

مكتبة

TELEGRAM NETWORK

2020



غرناطة وقصر الحمراء

وصف لمدينة غرناطة القديمة وقصرها

الإسلامي

تأليف: ألبرت كالفرت

ترجمة: د. أحمد إيبش

غرناطة وقصر الحمراء

وصف موجز لمدينة غرناطة القديمة
ولمحة تفصيلية حول قصرها الإسلامي

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
تعممة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
الجميع الثقافي

© National Library
Abu Dhabi Tourism &
Culture Authority
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى: ١٩٩٩م، ٢٠١٢م

الأردن: الطبعة الأولى في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - الجميع الثقافي
أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب. ٢٧٥٠

publication@tcabdhabi.ae
www.tcabdhabi.ae

رؤاد المشرق العربي

غرناطة وقصر الحمراء

وصف موجز لمدينة غرناطة القديمة
ولمحة تفصيلية حول قصرها الإسلامي

للرحالة البريطاني

آلبرت فريدريك كالفرت

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

سلسلة

رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمنقّفي العربية ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس

ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرومان (كرحلة إيلْيوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثم في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة التّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والتّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والتّقافة

هذا الكتاب

نقدّم للقراء الكرام اليوم كتاباً هو أشبه بالتّحفة الفنّية، يتناول وصف درّة الأندلس (الفردوس الإسلامي المفقود) غرناطة، وقصرها الرّائع الفريد قصر الحمراء، الذي يشمخ أمام عين الدّهر مثلاً سامياً لروعة فنّ العمارة الإسلاميّة في القرون الوسطى، وشاهداً حياً أمام أنظار العالم أجمع على عظمة المسلمين وراقيّ دولتهم. هذه الدّولة التي ازدهرت يومذاك على أرض الأندلس، فأهدت البشريّة علوماً وفنوناً وشعراً وآداب. وما برحت تذكر كلّ عربي يزور الأندلس بعبقرية أجداده وتستثير وجدّه على هذا المجد الذي بلغوه في زمن مضى ثم دثر وباد، فلا يجد أمامه مواسياً غير أبيات الصّمّة بن عبد الله القشيري:

بروحي تلك الأرض ما أطيب الرّبي

وما أحسن المصطاف والمُتربعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنتني

على كبدي من خشية أن تصدّعا

وليسث عشياث الحمى بزواج

إليك ولكنّ خلّ عينيك تدمعا

كأنّا خلّنا للنوى وكأنّما

حرّام على الأيّام أن نتجمعا

كتب الأديب الأميركي واشنطن إرفينغ: «كم حيكت عن هذه الأبنية الشرقية أساطير وحكايات، صحيحة وخرافية، وكم ألّفت عنها قصائد وأغانٍ، عربية وإسبانية، تتغنى كلّها بالحبّ والحرب والشّهامة!». فما الصّرح العظيم الذي ألهمه بهذه الكلمات؟ إنّه بلا ريب قصر الحمراء الفريد الذي تزدان به مدينة غرناطة الإسبانيّة، أرفع مثال رائع أخاذ للفنّ العربي الإسلامي في

جنوب أوروبا، شيده المغاربة المسلمون الذين سادوا إسبانيا قروناً عدّة، فجمع بين التّحصينات الدفاعية في أسواره وأبراجه الخارجية، وروعة القاعات والصّحون، والعقود المُقرنصة وأشغال الجصّ الفريدة، والقباب المُرصّعة بالمقرنصات، وهندسة البساتين انّضرة الفيحاء.

بلغت غرناطة تحت حكم المسلمين المغاربة أوج مجدها بعد أن دخلها بنو نصر عام 1237 م فعدت عاصمة الدّولة الإسلاميّة في الأندلس، وقام الملوك المتعاقبون عليها ببناء مجمّع قصر الحمراء، فلم يوجد له مثل في أوروبا بأسرها. وقد وصف أحد الكتّاب هذا القصر بأنه «أروع الابنية في العالم أجمع». ولا يقلّ موقع قصر الحمراء عظمة عن البناء نفسه، فخلفه تنتصب بكلّ شموخ قمم جبال سيبيرا نيقادا المكلفة بالثلوج ويتعدّى ارتفاعها 3,400 متر. كما أنّ القصر نفسه مشيد على تلة مكسوّة بالأشجار تشرف على المدينة من علوّ 150 متراً تُدعى السّبيكة. وقد شبّه الشاعر ابن زمرك في القرن الرابع عشر موقع التلة بالنسبة الى مدينة غرناطة بزواج مُحبّ يتأمل زوجته.

تقع غرناطة في الجنوب الشرقي للأندلس، على الصّفّة اليمنى لنهر شنيل، ويخترقها نهر حدّره Darro الذي أتاح للجنان والبساتين أن تحيط بالمدينة. ويحدّها من الجنوب جبل شلير الذي تكسوه الثلوج صيفاً وشتاءً، أطلق عليه العرب جبل الثلج، ومن الشرق جبل شلير ومدينة ألميرية، ومن الشمال جيان، ومن الغرب لوشة ونهر شنيل، وتتمتع بموقع في غاية الحسن، فهي على وادٍ عميق يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبل شلير، وتظللها الأكام العالية من الشمال والجنوب، ويبلغ طول هذا الوادي ثلاثة عشر ميلاً، وبه بُستان من أجمل بساتين الأندلس. ولهذا الوادي روتان كبيرتان يخترقهما نهر «حدّره» ربوة في الجهة الجنوبية وهي ربوة الحمراء، وربوة في الجهة الشماليّة وهي ربوة البيازين والقصبّة. وهكذا تُشرف غرناطة من تينك الرّبوتين على غوطتها التي تجري فيها الأنهار.

أرضٌ خصبة ذات وديان وأنهار تظللها الأشجار وتنتشر بها الجنائن الخضراء والمروج الخصبة، وبها أشجار الرّيتون والنّفّاح والمشمش والخوخ والرّمّان والبرتيقال والدّرّاق واللّيمون واللّيم والأترج والموز والنّخيل ذي الثّمّار مختلفة الأنواع. وصفها لسان الدّين ابن الخطيب قائلاً:

«ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعةً بعد زريعةٍ، ورعيّاً بعد رعي، طول العام، وفي عمالتها المعادن الجوهريّة من الذهب، والفضة، والرّصاص، والحديد، والتّوتية. وبناحية دلالية من عملها، عود اليلنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاً وعطر رائحة. وقد سبق منه لخيران صاحب المرية أصلٌ كان منبته بين أحجار هناك. وبجبل شلير منها سُنبل فائق الطيب، وبه الجنطيانا، يُحمل منه إلى جميع الآفاق، وهو عقيرٌ رفيع، ومكانه من الأدوية، التّرياقية مكانه. وبه المرقشيثة على اختلافها،

واللازورد. وبفحصها وما يتّصل به القرمز. وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز. وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقبلةً، وغلةً شريفةً، وفائدة عظيمة، تمتازة منها البلاد، وتجلبه الرفاق، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية. وفحصها الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الرّكاب، وسمُر الليالي، قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب، وتتخلله الأنهار جداول، وتتزاحم فيه القرى والجنّات».

وجال بها ابن بطوطة في رحلته ببلاد الأندلس، فقال عنها: «قاعدة بلاد الأندلس وعروس مُدنها، وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكُروم مُحدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها عين الدّمع، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثيل له بسواها».

* * *

أما مؤلف الكتاب ألبرت فريدريك كالفرت Albert Frederick Calvert فهو كاتب ورحالة ومهندس تعدين بريطاني ولد في كنتيش تاون بمِديلسكس عام 1872، ورباه جدّه جون كالفرت عالم الفلزّات. قام بين 1891-1892 برحلات استكشافية في أستراليا وظلّ يكتب عنها ويغامر بمشاريع التّعدين فيها إلى عام 1898، حينما حلّت بالشركات التي يعمل بها خسائر أدّت إلى إفلاسها. ومن جرّاء ذلك زال اهتمامه بأستراليا وابتدأ حياته من جديد في إسبانيا التي ألف عنها وعن فنونها 36 كتاباً حتى عام 1924، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا أحد أخصّها وأجملها، وقد صدر عام 1904. ومُنح رتبة فارس في سلك الملك ألفونسو الثاني عشر والملكة إيزابيلا.

* * *

حول قواعد اللفظ الإسبانيّة

لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ ثمة خصوصيات تتفرد بها هذه اللغة عن سواها، لا يستقيم لفظ أسماء الأعلام والأماكن إلّا بها. كحرف V الذي يلفظ باءً بالقشتاليّة كقولهم: «بور فابور» por favor أو «برابو» bravo، ومع ذلك فقد فضّلت في بعض الأحيان الإبقاء على حرف ف بدلاً من (ب) لأنّ الأخير يبقى لفظاً عامياً كما يطالعك في مدريد مثلاً اسم: غران بيا Gran Via (أحد أشهر شوارع العاصمة). ولذلك كتبت: دي لا پولفورا بدلاً من پولبورا، وأونتيفيروس بدلاً من أونتيبيروس. والمسألة على أيّ حال تبقى سجّالاً ما بين لهجات الكاستيَّانو والأراغونيس أو القطلانو، والخوض فيها هنا أمرٌ لا طائل منه.

أما حرف H فهو في الإسبانيّة يُكتب ولا يُلفظ إطلاقاً، مثل: آستا مانيانا hasta mañana. ولذلك كتبت: لوس إيدالغوس Los Hidalgos، أو ميناخه Homenaje، لاس إرماناس Las Hermanas. ومن الخطأ أن نكتب بالعربيّة: هرناندر، هندوراس، هاغانا (صوابها آبانا Havana).

وأما حرف S فهو يلفظ في الإسبانية سيناً بالمطلق، وحتى قد يأتي مشوباً بشين كقولك: باشكوال Pascual أو: ريوش كاتولييكوش. ولا يلفظ زياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علة فهو لا يأبه لها شروى نكير، كقولهم في اسم البرازيل: «براسيل»، وفي اسم ملكة قشتالة إيزابيلا: «إيسابيل». لكنني اضطررت لكتابة اسمها كما هو شائع بالعربية.

وغني عن التعريف أنّ حرف Z يلفظ ثاءً، كقولهم: إيبينا Ibiza أو إرنانديث Hernandez أو ثارا Zara. ومثله حرف C إن أتى متبوعاً بحرفي العلة e أو i كقولهم: تِنْترو centro، ثيوداد ciudad. وسماعياً، قد يلفظ الحرف D ذالاً في آخر الكلمة، كقولهم: مدريد Madrid. وقد تُلفظ الجيم اللهوية G غيناً، كقولهم: أراغون Aragón، بريغونتا pregunta.

وأما حرف X فهو من الأحرف غير النظامية في اللغة الإسبانية، ويمثل أسطح دليل على أنّ المعايير اللفظية في هذه اللغة لا تنتظمها قواعد ثابتة. فكثيراً ما يلفظ هذا الحرف كالإنكليزية في وسط الكلمة، وخاصة إن تلاه حرف ساكن غير معتلّ، مثل: expedición إكسبيديثيون. ولكن إن جاء في أول الكلمة (وهذا نادر وغير إسباني) فهو يلفظ بسين، مثل: xenofobia سينوفوبيا. ولكنه في اللهجة القطلانية ولهجة الباسك يلفظ شيناً، مثل: Xavi شابي. وهذا ما نراه في بعض لهجات أميركا اللاتينية وأميركا الوسطى، ولو أنّ لهجة المكسيك ترمي بهذه القاعدة عرض الحائط، فتلفظ اسمها Mexico «ميخيكو» كلفظ حرف J في الإسبانية. وكذلك في الأندلسية: خيريث Xerez، كيوخوته Quixote.

ومن خصائص الإسبانية حرف ñ الذي يُلفظ (ني) كقولهم: España، واللام الممتّاة ll التي تلفظ ياءً مشدّدة حتى لو أتت بمطلع الكلمة مثل: Llama ياما، وثنائية ch التي تلفظ (چ - تش)، مثل: Echeverria إچيبيريا.

أخيراً، فلفظ الحرفين G و J ما بين الجيم اللهوية والحاء أو الشين، أمرٌ متشعب ويتعدّر تفصيله هنا، ويمثّل إحدى أعسر المهارات اللفظية التي تواجه الطلاب الأجانب عندما يشرعون بدراسة الإسبانية. هذا طبعاً ما عدا اختلاف اللفظ ما بين إسبانيا وأميركا اللاتينية. فالإسبان يسمّون لغتهم: كاستيَّانو Castellano بينما يسمّيها أهل الأرجنتين: كاستيجانو. ويقول الإسباني: يو سوي إسبانيول، بينما يقول الأرجنتيني: جو سوي آرختينيو.

ومن شاء الاستزادة في أصول ضبط اللفظ الإسباني بمنطوقه القشتالي، فخير مرجع هو:

Mariano Velázquez de la Cadena, Edward Gray, Juan L. Iribas: A New Pronouncing Dictionary of the Spanish and English Languages, D. Appleton, London, New York. 1900 - 1902

* * *

أما حواشي المؤلف فقد ميّزتها عن سواها، وكل ما عداها فهو لي. وأرجو أن يكون في عملي هذا ما يفيد ويمتع.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبیل، 13 أبريل 2013

د. أحمد إییش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة متقينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة متقينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التّركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أما في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التّركية حرف ç كقولك: çay, çok, çinar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّ، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التّركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثله في الفرنسية والبرتغالية z والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية z والحكيّة ž.

3- أما عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السعودية: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدول، رامات چان (علماً أن ڭا هي ذاتها جنة بالعربية أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقرس، قوديز، كلوقز، قلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجيرة: جَلنط Galant، كتالوج Gondol جندول.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيات العربية باسم (الجيم للهوية) تمييزاً له عن (الجيم الشّجيرة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أن أصله في لهجات العربية القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليمن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتباع

أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربية المشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميز: وليكن بقلم المُسند الحميري اليماني، أو جيماً كنعانية، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيات التيمانية» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللهوية، التي حافظت عليها القبطية بمصر كاليونانية γ المفترقة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربية الجنوبية القديمة، وما زالت في العبرية والسريانية كالجيم المصرية.

الواقع أن الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهوية، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كيبفو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية ك. وفي التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غرچك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (عجّار)، Avcı (أوجي)، Cem (جم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غوير)، وإن أردوا رسم الاسماء العربية لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمطلق. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragón: «أراغون»، وليس أراغون. هذا عدا عن أن حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابه جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) يمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرنجال، بلجارياء، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمي البُرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معربة عن التركية bulgur).

4- ثمة أسماء في اللغة الفرنسية تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربية (كما هي في السريانية

والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خمارويه، خالويه، نبطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسننّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كولييه، رُنيه، غارنييه، جرفيه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje خويّه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5- نصرّ في هذه السلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصحّ بالألمانيّة: مدينة لايبتيك وليس لايبزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، قلهلم وليس ولّيم، ريوخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أميركا، فارشاقا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جواو. ولكنّ ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجان (غي دي لوزينيان)، ولّيم الصّوري (غيوم)، برج إيقل (وصوابه: آيقل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أنّ ثمة شيئاً في التّركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمّدة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسبانيّة والبرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانس والرّومانيّة، ما خلا حالة في البرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيلفظ ياءً،

مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستورها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترنمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مرّوة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانبيّه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نفّس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينية (إغريقيّة) Συρία (سُوريا) مقولبة لاسم «أشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناَ وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الرّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأنّ الهاء بأخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش



المؤلف، آلبرت فريدريك كالفرت، في قصر الحمراء

غرناطة

مدينة المسلمين المغاربة

ليست مدينة غرناطة سوى إبداع صرف للمسلمين المغاربة Moros، فتاريخها تاريخهم جميعاً بلا استثناء، وماضيها سجلٌ لأمجادهم وذكرى زوال دولتهم. تلك الرُّمّانة، كما سماها فاتحها، لم تُثمر وتتلّق إلا في شمس المسلمين الساطعة ولم تذو إلا بانحسارها. ثم إذا بها في ظل الحكم المسيحي تهوي منزلتها من عاصمة متألفة إلى مجرد ضاحية فقيرة، وما هي اليوم إلا نصبٌ تذكاريٌّ عظيم يشهد على سلالة تلاشت وحضارة دالت وبادت.

أما فيما يتعلق بتاريخ غرناطة قبل أن تصبح مركز مملكة مستقلة، فلا حاجة بنا إلى كبير عناء في البحث، إذ أنّ أهميتها الفعلية تعود إلى عهد نشوء سلالة بني نصر الحاكمة وذلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وهو عصر انبثاق دولة الموحّدين العظيمة. ربما كان للأندلس بأكملها أن تشاطر مصير قرطبة وإشبيلية، ولكن ملوك الكاثوليك افتتحو البلاد قبل قرنين من الزمان، لولا أنّ شاباً يدعى ابن الأحمر أتى من أرخونا Arjona (بالعربية أرجونا) وعقد العزم على إنشاء مملكة لنفسه على أطلال إمبراطورية مجرّاة. وعقب الازدياد المطرد لعدد أتباعه، تمكّن من السيطرة على خاين Jaén (بالعربية جيان) عام 1232، وأخضع غرناطة نفسها عام 1237. وهكذا دانت له المدن الواحدة تلو الأخرى تفتح أبوابها بما فيها مالقة والمرية، وما كاد عام 1241 يحلّ حتى اعترف به حاكماً وسلطاناً على كل المنطقة الواقعة ما بين جبال سيرا مورينا Sierra Morena وأعمدة هرقل من رُنْدَة Ronda إلى بانّا Baza (بالعربية بسطة).

كان مؤسس السلالة النُصْرِيّة هذا رجلاً عظيماً بكل ما للكلمة من معنى، امتاز بحضوره اللافت القوي وأسلوبه المُرْهف اللطيف، أما شجاعته فتدرجه في مصاف الأبطال. وإلى جانب بسالته في ساحة القتال، لم يضاهاه في حبه للسلام ملكٌ آخر. ولقد أثبت نفسه كبطل قومي حقيقي وكأبٍ لشعبه، إذ شجّع على الصّناعة والزّراعة، وكان راعياً - كباقي سلالته - للفنون والآداب، ومشجّعاً على الهجرة بكل ما أوتي من قوّة. كان رجلَ دولة ذا بصيرة نافذة يعي تماماً بأن دولة محدودة المساحة كدولته يتوقّف وجودها على ازدياد تعداد رعاياه بشكل غير عادي، فلذلك بذل كافة الإغراءات للمسلمين المقيمين في الأقاليم الخاضعة لسيطرة المسيحيين لكي يستوطنوا ضمن حدود أراضيه.

وكانت غرناطة آخر أمل للمسلمين في أوروبا، فبذل كل وسيلة ممكنة ليصونها ويحميها. وقد بادر إلى التحالف مع حكام المغرب، وتلمسان، وتونس، وحتى بغداد البعيدة. وهذا لم يمنعه أيضاً من التوّدد إلى أهل قشتالة واستمالتهم، فعقد مفاوضات تحالف مع فرناندو الثالث وألزم نفسه

بحضور القداديس Cortes (وهذا خارج عن المألوف بالنسبة لمسلم) داعماً الملك في حروبه بعدة 1500 رمح. وهذا الجزء الأخير من المساومة التي دُعي لإنجازها على وجه السرعة ضد إخوانه في الدين في إشبيلية بدأ أمراً غير اعتيادي، لكن تبريراً لما قام به وتخفيفاً لحدّة الأمر نغزو فعله إلى أنه، أي ابن الأحمر، كان يرى في الموحدّين في إشبيلية مجرد زنادقة مارقين. وبكل الأحوال، وسواءً ارتضى ضميره ذلك الفعل أم لا، فإنّه قد أسهم بقدر لا بأس به في نجاح فرناندو، ورُحّب به بجرارة كفاتح لدى عودته إلى غرناطة.

والدليل على أن المساعدة التي قدّمها لم يُنظر إليها بشكل عام على أنها طوعية من قبل أهالي إشبيلية، قد تمّت البرهنة عليه بهجرة الآلاف منهم إلى أراضيهم واستقرارهم فيها.

خشي ابن الأحمر من قوّة قشتالة، وكان يعلم بأنّ الأمل الوحيد لمسلمي إسبانيا يكمن في أمن دولتهم وتماسك أركانها، وبحذر، ولئلا يُسيء لجيرانه المرّوعين، استقبل بحفاوة الثائر والمنفي الأمير دون إنريكيه Infante Don Enrique عندما التمس هذا الأخير اللجوء إلى غرناطة، إلا أنّه أرسله فيما بعد إلى تونس برسائل توصية إلى سلطان تلك المنطقة. مع ذلك، فإنّ لباقتّه ودبلوماسيته لم يجتّباه حرباً مع ألفونسو واستمرت متاعبه قائمة، فقد ثار ولاة وادي أش Guadix ومالقة Málaga وقمارش Comares ضدّ سلطته.. وسرعان ما ظهر عصيان آخر في قشتالة، وأجبر ألفونسو على ترك الولاية يقتتلون فيما بينهم.

أضحى ابن الأحمر رجلاً طاعناً في السنّ في الثمانين من عمره، ينتضي درعه بمِللٍ لحملة أخرى من تلك الحملات التي راحت نفسه تعافؤها. ولكنّ وقت الرّاحة قد جاء أخيراً. فعلى بعد أميال من أبواب عاصمته وقع مُصاباً وكان على رأس جيشه، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة عند الغروب على جانب الطّريق، محاطاً بمحاربيه الذين بكوه. وكانت تلك في تاريخ غرناطة ليلةً مُدلّهمةً ظلماء.

* * *

أما ابن ابن الأحمر، محمّد الثاني، فقد خَلَفَه وكان في الثامنة والثلاثين من عمره في الحادي والعشرين من يناير عام 1273. وبدأ المؤرخون العرب بإطرائه بكثير من عبارات المديح كما اعتادوا مع معظم أسلافه من الحكام؛ فُوَصِفَ بأنه محاربٌ ورجلٌ دولة، وأديبٌ وشاعرٌ ذو موهبة كبيرة. وخلال فترة حكمه التي دامت 29 سنة لبث في حالة حرب دائمة. فمباشرة بعد تبوّئه الحكم قام بسحق الولاية المتمرّدين في أنتيكييرا Antequera وقام بعدها بزيارة لألفونسو العاشر في إشبيلية، بهدف إبعاد الملك القشتالي عن تحالفه مع المتمرّدين المنهزمين. والواقع أنه قد نجح في ذلك، إلا أنّ الملكة فيولانته Violante في نهاية زيارته طلبت منه التّكريم بمنّة لخاطرها، ولكونه فارساً حقيقياً وبحسب تقاليد ذلك الوقت لم يرَ بُدّاً من الموافقة. إلا أنه اكتشف، متأخراً جداً، بأنه خُدع بموافقتّه على سنة هدنة مع الولاية. وبغضب مكبوت، عاد إلى غرناطة وأمضى السنّة في التّخطيط لإلحاق الهزيمة الكاملة بأعدائه. ولقد تحقّق له ذلك بالمعونة التي قدّمها له يوسف سلطان المغرب، بجيشه الذي يقدر بـ 100,000 رجل نزلوا في طريف Tarifa عام 1275.

أثبت الأفارقة، كما في مناسبات سابقة في تاريخ العرب الفاتحين، أنهم حليفٌ يُحسب له أيما حساب. فألقى محمد نفسه وقد تورط في حرب طويلة لا طائل منها مع قشتالة، وشعر بالخزي لرؤية الأفارقة وقد احتفظوا لأنفسهم بالجزيرة الخضراء Algeciras وطريف Tarifa ومالقة. فاستعاد ملكية المدينة الأخيرة برشوة الحاكم وذلك بمبادلتها بمدينة سالوبرينيا Salobreña (شلوبينية بالعربية) واعتبر ذلك مكسباً شخصياً له، وخلص نفسه أخيراً من المعضلة التي ورطه فيها بعض الأفارقة بتحالفه مع سانشو صاحب قشتالة. وفي عام 1302 نراه مجدداً في حرب ضد المسيحيين، مقاتلاً ثم مقتولاً على أيديهم.

كان محمد الثالث خير خلفٍ لأبيه، وقد عُرف بطاقته الكبيرة التي لا تتضب. ولقد اختصر الطريق مع الخونة حتى في تلك الأيام العصيبة. فبعد عزل السلطان لابن نصر حاكم وادي آش Guadix، قام هذا الأخير بتشكيل فرقة لخدمة مصالحه. ولما سمع محمد الثالث بذلك، استدعاه لمحاكمته وأمر بقتله أمام ناظره. ومن مآثره المشرفة فتحه لمدينة سبتة Ceuta قبالة جبل طارق Gibraltar عام 1306، ومن غنائم الغزوات الكثيرة بنى مسجداً في غرناطة، طعم بالذهب والفضة، واليشب والرُخام. ولعل نجاحه هذا هو ما أثار غيرة الممالك الكاثوليكية، فهوجم من كل جهة من قبل ملوك قشتالة وأراغون Aragón، وأجبر على إبرام صلح مهين. وفي طريق عودته إلى عاصمته اعتقل في الحمراء ذاتها على يد عصابة من المتآمرين وأجبر على التنازل لصالح أخيه «مولاي نصر». بدأ السلطان الجديد حكمه بعدد من النجاحات العسكرية عام 1309 م. فلقد أجبر خايمي دي أراغون Jaime de Argón على أن يرفع الحصار عن المرية Almería، إلا أنه بالمقابل كان عليه أن يفض النزاعات في دياره والمؤامرات وحركات العصيان المحلية. وأعظمها تلك التي تزعمها ابن أخيه أبو الوليد.

في خضم هذه التعقيدات حصلت حادثة غير متوقعة، فلقد أصيب نصرٌ بسكتة دماغية وتُرك ليموت. أطلق سراح أخيه المعزول محمد الثالث على يد بعض رجال البلاط وأحضر إلى غرناطة، ليجد أن مغتصب العرش قد استردّ صحته وتواجه. لم يعيش محمد سيء الحظ طويلاً بعد هذا الخطأ الفادح، إلا أن العقوبة سرعان ما لحقت بأخيه. فأجبر على أن يخضع لأبي الوليد، وكان من حُسن طالعهِ أن سُمح له بأن يتراجع إلى وادي آش Guadix، ويعلم سيادته عليها. ومع أنه كان مغتصباً، فلقد ركب نصر مبتعداً وعليه وقار الفلاسفة. صحيحٌ أنه تكدر بعض الشيء لنصر منافسه، لكنه عندما دُعي من قبل بيدرو الأول Pedro I لينضم إليه في هجوم على غرناطة، رفض بروح وطنية. لقد كان رجلاً شجاعاً، ولم يتبرم من مواجهة المصير الذي حلّ بسواه.

أما ملك غرناطة الجديد أبو الوليد إسماعيل، فكان رجل حربٍ ومتعصباً. مولعاً بالإشادة بإيمانه بالله وحده وبسيفه العادل، مبرراً بذلك لجوئه إلى السلاح. نتيجة لذلك، أباد الجيش الإسباني الذي دنا من غرناطة، وقد كان بين القتلى الأميران دون خوان Don Juan ودون بيدرو Don Pedro وهما من أبناء الملوك، وأخذ جيشه المنتصر شرقاً منتزعاً باثا Baza (بالعربية بسطة) ومارتوش Martos من أعداء بني جنسه.

لكن آخرين أيضاً ربطوا إيمانهم بحدّ السيف، وعلى غرار الملك الإغريقي أغامنون Agamemnon، استولى على غنيمة كبيرة بأسره للشباب محمد حاكم الجزيرة الخضراء Mohammad de Algeciras. إلا أنه بعد ثلاثة أيام من دخوله المظفر إلى عاصمته قُتل غيلةً على أبواب الحمراء بحدّ خنجر رجل كان قد جرحه في السابق. فلما أدرك الوزير أنّ الملك سيوافيه الأجل قريباً، ومصمماً

على تجنب تداعيات عنيفة، استدعى وجهاء غرناطة إلى القصر، وأعلن أنّ أبا الوليد قد تعافى من جراحه. كان المرسوم الملكي، يقتضي بأن يؤدّي الحاضرون اليمين لمبايعة الأمير الابن مولاي محمّد ابن إسماعيل كخليفة للملك. وعندما تحقق له ذلك، أعلن الوزير الماكر وفاة ابن الوليد وتولي محمّد الرابع، وكان ذلك في غضون عام 1325.

عندما حرّر نفسه من سيطرة وصيّ على العرش غير محبوب، كشف السلطان الشاب عن مقدرات شخصيّة وذهنية لا تقلّ قدرًا عن أسلافه. وحرّي بنا أن نعترف بأن المؤرخين العرب كانوا يجمّلون سيرة الملوك أيّما تجميل، فنادرًا ما كان يوصف أحدهم بما يخالف النموذج المثالي للفضائل. كان على محمّد الرابع أن يقاتل حفاظاً على عرشه بقسوة ضد الإسبان من جهة والأفارقة من جهة أخرى. فكان أن استولى على جبل طارق Gibraltar ليفقده ثانية لصالح أبي الحسن حاكم فاس. لكن الملك الأفريقي سرعان ما طلب مساعدته للصمود أمام المسيحيين، تجاوب محمّد بشهامة مع مناشدته، فانقضّ كالصّاعقة على معسكر الإسبان ورفع الحصار. إلا أنه لم يكافأ بشكل لائق - كما أن تهوّر في شهر أغسطس عام 1333 دعاه لأن يوجّه حلفاءه الأفارقة لعدم قدرتهم على الاحتفاظ بتحصيناتهم، وفي غضون يوم أو اثنين، وبعد إعادة جيشه إلى الوطن، قام بنزّهة إلى قمة الصّخرة، فتبعه بعض الذين كان تعرّض لهم بتقريع، وسرعان ما لقي حتفه طعنًا بخناجرهم. ولقد عُثر على جسده عارياً ومشوّهاً عند أسفل الصّخرة، ونُقِل إلى مالقة. لكن لم تجرِ أيّة محاولة لمعرفة هويّة القتلة أو معاقبتهم.

خَلَفَ محمّدًا المنكوب أخوه يوسف الأول، أبو الحجّاج. ومع امتلاكه، بطبيعة الحال، للفضائل التي يبدو أنها كانت متوارثة في السّلالة النّصيرية، كان هذا الأمير استثنائياً بحماسة وتأهّب للسلام. آمن، كما يقول دون فرانثيسكو پي مارغال Don Francisco Pi Margall، بأنه من الأجدر أن تعالج الخطر القديم عوضاً عن الدّخول في مغامرات جديدة محفوفة بالمخاطر. وبمساعدة وزيره البارع رضوان، عدّل القوانين وطهّر إدارة القضاء. وبنى قصرًا عظيمًا في مالقة، والجامع الكبير في غرناطة الذي لم يبق منه أي أثر. ومتخلياً لأول مرّة عن سياسة السّلام، تحالف مع الأفارقة في حرب ضد قشتالة، مُني على أثرها بهزيمة ساحقة، فبادر من تلقاء نفسه إلى التّفاوض على هدنة مدّتها عشر سنوات. وفي نهاية ذلك العهد، توفي ألفونسو Alfonso ملك قشتالة، ولقي سلطان غرناطة حتفه غيلةً مطعوناً على يد رجل مختلّ خلال أدائه الصّلاة في المسجد، وكان ذلك في عام 1354.

كان محمّد الخامس رجلاً فاضلاً ومنكوداً الحظ كأبيه. حكم لمدة أربع سنوات وحسب، عندما هوجم في قصره الخاص من قبل الموالين لأخيه من أبيه إسماعيل. وبصعوبة نجا من الموت فاراً إلى مجلس الحريم، متكرراً بزّي الخدم، واستطاع التّلمّص من مطارديه آخذاً طريقه نحو وادي آش Guadix. أما إسماعيل الثاني فلم تُكلّل فترة حكمه القصيرة بالنجاح، وسرعان ما خُلع عن العرش وقُتل في عام 1360 على يد «ملك بني الأحمر» أبي سعيد. في غضون ذلك، تبنّى پدرو الأول Pedro I في قشتالة قضية السلطان العادلة واجتاح أرض غرناطة. لكن المسلم الشّهم أبي تسنّم العرش على حساب دم شعبه. فما كان من پدرو Pedro إلا أن انسحب، لكنه خلّص محمّدًا من أعدائه حيث قتل أبا سعيد على حين غرّة عندما كان هذا الأخير يقوم بزيارة إلى إشبيلية.

أُعيد محمّد إلى عرشه، وكرّد للجميل والمساعدات التي قدمها له پدرو Pedro، زحف لدعمه بجيش غرناطي ضدّ إنريکه دي تراستامارا Enrique de Trastámara. جعلت مأساة مونتييل Montiel

استمرارية النزاع عديمة الجدوى، وقرّر السلطان العربي على إثر ذلك تكريس الوقت المتبقي من حكمه لتحسين وضع رعيته. فأسس جمعياتٍ خيريةٍ وملاجئٍ ورفع غرناطة إلى ذروة العلياء والازدهار. أصبحت المدينة، برأي الكاتب المعاصر ابن الخطيب عاصمة للشرق، ومركزاً تجارياً ضخماً، ووطناً عاماً لكل القوميات. وفي ظلّ حكم محمّد الخامس، يمكن اعتبار المملكة بأنها قد وصلت إلى أقصى مجدها، ومنذ تلك المرحلة وحتى انحطاطها نُحصى قرناً من الزّمان.

كان يوسف الثّاني، الذي خَلَف أباه عام 1391، يكره الحرب لدرجة جعلت رعاياه يشتهون بأنه ربما كان يتعاطف مع المسيحيين. فثار ابنه ضدّه، وكان الملك الهادي ليفضّل التنازل عن العرش أكثر من امتشاق السّيف. إلا أن تحذيرات الموفد المغربي لأخذ موقف أكثر رجولة، جعلته يتّراس جيشاً (انحاز ضدّه فيما بعد) وينطلق مخرباً مُرسية Murcia بقوة النّار والسّيف. فما كان من دون مارتين دي لا باربودا Don Martín de la Barbuda، سيد كالاترابا Calatrava الكيخوتي Quixotic إلا أن شنّ حملة وحشية ضدّ هذا السلطان المحبّ للسلام هازماً إياه، كما هو متوقّع. ولقد تنكّر له أيضاً وبشكل لافت للنظر إنريکه Enrique الثّالث، ملك قشتالة.

أما ابن يوسف الثّاب ووريثه، محمّد السّابع فكان أميراً ذا طبيعة مختلفة جداً. اصطحب معه 25 فارساً فقط وتوغّل في طليطلة وتفاوض في قلب قشتالة مع إنريکه Enrique الثّالث، لكن الهدنة المُبرمة سرعان ما خُرقت وأشعل محمّد الحرب بسرعة في طول الأندلس وعرضها. ولبثت الحرب تتراوح بين نتائج متفاوتة، وتبعتها كما كان معتاداً في تلك الأيام سلسلة من الغزوات، لم يبذل فيها أيّ من الطرفين جهداً حاسماً للاستيلاء على عاصمة الآخر أو لحماية مناطق فتوحاته.

ولدى شعوره بقرب نهايته، فكّر السلطان المولع بالحرب بأخيه الأكبر يوسف، الذي كان سَجَنه في قلعة سالوبرينيا Salobreña (شلوبينية بالعربية). وخوفاً من إمكانية تسبّب الأسير المتعاب لابنه، فقد أرسل محمّد رسولاً لتنفيذ حكم الإعدام فيه. كان يوسفُ يلعب الشّطرنج مع حاكم القلعة عندما وصل الأمرُ القاتل. فطلب السّماح له بإنهاء اللعب ومغادرة المبعوث، وقبل أن يقوم بالحركة الأخيرة، وصلت الأخبار بموت محمّد وإعلانه كسلطان لغرناطة. وأبدى يوسف هدوءاً وثباتاً لدى قبوله تولّي العرش، كذلك الذي أبداه عند مثوله بين أشدّاء الموت.

مع طبعه السّلمي الذي جُبِل عليه كأبيه، كان على يوسف الثّالث أن يصدّ أشدّ الاعتداءات التي شُنّت على مملكته المتهالكة. وفي زمن حكمه وقع الحصار الشّهير للأنتكيرة Antequera (أو الأنتكير أيضاً بالعربية) على يد القشتاليين، أسس على أثره النّاجون ضاحية أنتيكيرويلا Antequeruela المجاورة لغرناطة. نَعِمَ يوسف بالسلام أخيراً، وحظي بحليف قيّم جرّاء قصّة غريبة من العداء الأخوي.

وذلك أنّ أهالي جبل طارق Gibraltar ثاروا بعد مدّة في وجه غرناطة وأعلنوا خضوعهم لفاس، فأرسل سلطان تلك المملكة أخاه المكروه أبا سعيد، ليستولي على المدينة وعامله كما فعل النّبي داود مع أوريا، تاركاً إياه طعمَةً لسطوة العدو. إلا أنّ يوسف، عامل الأمير الأسير بكرم، وأظهر له الرّسالة التي استلمها على الفور من سلطان فاس، طالباً فيها قتله بالسّم. وبتعطش كبير للانتقام حصل أبو سعيد على أسلحة وجنود من غرناطة، واجتاح المغرب، خالِعاً أخاه الغادر عن العرش. ومنذ ذلك الوقت أصبح الحليف المؤكّد لسلطان غرناطة، التي لن تتجرّأ قشتالة وأراغون Aragón بعد الآن على أن تقلق راحتها. وكانت وفاة يوسف الثّالث في عام 1417.

يمسي تاريخ غرناطة من الآن فصاعداً زاخراً بالثورات المتتالية والاضطرابات. فقد سيق محمد الثامن إلى المنفى على يد سمي له أضحى يُعرف بمحمد التاسع. ثم أُعيد إلى الحكم بثورة مناهضة. وداهم الجيش القشتالي سهل غرناطة (فيغا) Vega وصولاً إلى أسوار العاصمة. وكادت غرناطة نفسها تسقط لو لم يخف كل من خوان الثاني والكونستابل رفيع الشأن ألفارو دي لونا Alvaro de Luna إلى قشتالة نتيجة الفوضى التي نجمت عن التداعيات الأخيرة. لقد هزّت الزلازل المملكة المنشغلة، وحسبنا أن نفترض بأن محمدًا التاسع لم يتولّه الندم عندما تخلى عن عرشه وفر إلى مالقة.

تولّى السلطان الجديد، يوسف الرابع، عرشه الذي ألحق بقشتالة كمقاطعة تابعة لها، مُرعماً على التماس دعمها له بنتازلات مُخزية. ولقد استبق بموته بعد ستة عشر شهراً من تسلّمه السلطنة اغتيالاً حتمياً كان سيّطاله. وللمرة الثالثة، نودي بمحمد الثامن والياً على غرناطة عام 1432. وما كان من الأعمال العدائية مع قشتالة إلا أن تجددت في الحال. لكنّ الحظّ هذه المرة حالف العرب الذين هزموا مناوئهم في إيورا Íllora، وأرشدونة Archidona، وكاستريل Castril. غير أنّ نجم محمد الثامن الصاعد سُرعان ما خبا. فقد اصطدم مع أسرة ابن سراج Abencerrages القوية، وحُرم من دعمها، وأخيراً طرد من مملكته من قبل أحد أقاربه ويدعى ابن عثمان Aben Osmin. انتصر الغاصب على المسيحيين مستولياً على عدّة معاقل، لكنّ جيشه عانى في النهاية من هزيمة نكراء في أليورتشونس Alporchones. وأُفقدت تلك الحادثة ابن عثمان عقله، فبدأ يتصرّف من الآن فصاعداً كطاغية على الطراز الروماني القديم.

إثر ذلك، طفت الثورات تتكرّر في غرناطة على طريقة الولايات الأميركية الجنوبية، فأكمل الغاصب حكمه الوجيز وأجبر فيما بعد على التخلّي عن منصبه لسعيد ابن عم محمد الثامن. كانت غرناطة تتادي بالسلام، ولقد دفعت الجزية لإنريكي Enrique الرابع في قشتالة، وأطلق جميع الأسرى المسيحيين - بلا جدوى، إذ أنّ الصراعات المتقطعة استمرت كما كانت. وفُقدت خاين Jaén (جيان بالعربية) وأرشدونة Archidona وجبل طارق Gibraltar على الرّغم من بسالة الأمير مولاي الحسن، وقائد القوات إبراهيم، الذي لمّا عين الكسرة اندفع على صهوة جواده في أعماق الوهاد لا يلوي على شيء. وأخيراً، استطاع ابن إسماعيل المتألم على بلده الممزّق أن يُحرز السلام إثر مقابلة شخصية عقدها مع إنريكي Enrique، خارج أسوار غرناطة. كرّس على أثرها ما تبقى من فترة حكمه لتشجيع التجارة، والصناعة، والزراعة في مقاطعته، غير أنّه لم يجن ثمار ذلك ولا حتى أولئك الذين تلوه، ذلك أنه توفي في المريّة Almería في السنة 1465. ومع وفاته، راح ناقوس الخطر يدق مؤذناً بنهاية عصر الإمبراطورية الإسلامية في أوروبا.

استغرقت فترات حكم علي أبي الحسن، محمد الحادي عشر (أبو عبدل Boabdil) ومحمد الثاني عشر الشهير بالزّغل (أي الجسور) السنوات الممتدة بين 1465-1492 تمّ خلالها سقوط المملكة وزوالها. ولقد ملأ تاريخ هذه الحوادث كتباً ضخمة كثيرة أصبحت مألوفة لدى القراء الإنكليز من خلال أعمال پريسكوت Prescott، وأما عجالتنا المُختصرة هذه (من جهة أخرى) فلا يمكن أن تتّم بغير موجزٍ عن الفصل الأخير لقصة غرناطة.

كانت شخصية مولاي علي أبي الحسن، على عكس أسلافه، مُعنة في الغطرسة. فقد كان عديم الرحمة، مولعاً بالحرب، وكارها للمسيحيين متعصباً ضدّهم ومسلماً غيوراً. أحرز في السنوات الأولى من حكمه بعض الانتصارات على إنريکه Enrique الرابع الضعيف، وأثبت قوّة مكنّته من قمع ثورة في مالقة. لكنه أضعاف فرصة مهاجمة ملكي إسبانيا الجديدين فرناندو وإيزابيلا Fernando y Isabel عندما كانا في حرب مع المناهضين لهما في لا بلترانيجا «La Beltraneja» ولم يقد بأية محاولة إقامة حلف مع أعدائهما الكثر. لم تكن الحنكة في فن إدارة شؤون الدولة من خصال سلالة بني الأحمر.

وفي عام 1476، حاول أبو الحسن التماس تجديد للحلف مع ملكة قشتالة، ولكن عندما جعل فرناندو ملك أراغون Fernando de Aragón دفع الجزية المتفق عليها من قبل ابن إسماعيل شرطاً للمعاهدة، ثارت فيه حمية المسلمين العرب وإياؤهم فقال للرسل الإسبان: «ارجعوا إلى ملوككم، وقولوا لهم إن السلاطين الذين كانوا يؤدّون الجزية للتصاري قد ماتوا، أمّا نحن فليس لدينا لأعدائنا إلا أسنة الرماح». ختمت هذه الكلمات مصير المسلمين المغاربة Moros في إسبانيا، على الرّغم من أنّ الحاكم الذي نطق بها ظنّ أنها مجرد دعوة إلى الاشتباك بحرب حدودية كنتك التي كانت تجري من وقت لآخر.

كان المشهد الأول في الدراما الطويلة المتداركة هو الاستيلاء على الزّهراء Zahara على يد جماعات من غرناطة، ففي عام 1481 وبتحريض من غارات مركزيز قادس Cádiz الوحشية، فوجئت الحامية المسيحية في خضمّ عاصفة هوجاء فلجأت إلى السيف، أما باقي السّكان فقد سيقوا أسرى إلى غرناطة. عاد أبو الحسن، بكل فخر وكبرياء، إلى عاصمته حيث استقبل بابتهاجات شعبية، لكنّ العرب الحكماء هزّوا رؤوسهم وتنبّأوا بأن أطلال الزّهراء سوف تتداعى قريباً على رؤوسهم.

لم يتوان فرسان الأندلس الغاضبون عن الانتقام. فبعد شهرين من الاستيلاء على الزّهراء Zahara، تمّ الاستيلاء بهجوم من قبل قوات مركزيز قادس Cádiz على المعقل القوي والأهم في غرناطة وهو الحمراء. ونشرت الأخبار رعباً في غرناطة، فانطلق أبو الحسن في الحال على رأس 53,000 رجلاً طوّقوا المكان. أما فرناندو Fernando الملك الكاثوليكي، الذي خلص إلى فكرة القضاء على مملكة غرناطة بأكملها، فقد أسرع لنجدتها، لكنه ما أن وصل إلى لوثينا Lucena (ليسانة بالعربية) حتى شاعت الأنباء عن رفع الحصار عنها من قبل خصم المركزيز الوراثة، دوق مدينا سيدونيا (شدونة) Medina Sidonia. عاد أبو الحسن للهجوم بعد عدّة أسابيع، واستأنف فرناندو Fernando تقدّمه الذي تراجع العرب أمامه. فما كان من الملوك الكاثوليك إلا أن دخلوا إلى الحمراء في 14 مايو 1482.

تمّ اتخاذ استعدادات كبيرة في كل مكان في قشتالة وأراغون لمتابعة الحرب، لكن الجيش الذي حُشد فعلياً أمام لوجا Loja (لوشة بالعربية) في 1 يونيو ويقارب عدده 16,000 رجلاً، كان بعيداً عن تطلّعات فرناندو وتوقعاته. وتمت حماية البلدة على يد أحد أشجع قوادر العرب المسلمين هو علي العطار، الذي ردّ هجوم المسيحيين ملحقاً في صفوفهم خسارة فادحة. واستطاع الملك أن ينجو بنفسه بصعوبة، وقد أُجبر على قرع الطبول داعياً إلى الانسحاب. واكتسح أبو الحسن البلاد حتى ريو فريو Rio Frio (النّهر البارد).

لو أنّ نجاحاً كهذا أحسن استغلاله لكانت كفة الميزان انقلبت لصالح العرب، لكن الخيانة كانت في غرناطة دوماً تتبّع أعقاب النصر. فقبل عدّة سنوات، أضفيت الأسيرة المسيحية الجميلة

دونيا إيسابيل دي سوليس Doña Isabel de Solis ابنة حاكم مارتوش Martos إلى حريم السلطان، تحت اسم ثريًا Zoraya ومع مرور الوقت ولدت له صبياً هو أبو عبد الله، مرتفعة بذلك إلى منزلة السلطانة المفضلة. ثم اعترتها الغيرة كما قيل، من جارية يونانية أو ربما بسبب عداوة من قبل السلطانة الأولى عائشة Ayesha، فأثارت مؤامرة ضد سيدها العجوز، سُجنت على أثرها مع ابنها في الحَمراء. وهناك رسماً خطة للهرب، محرّضين العامة لمصلحتهما، وأجبراً أبا الحَسَن على اللجوء إلى مالقة.

أما أبو عبد الله المعروف جيداً باسم «أبو عَبدِيل» Boabdil أو «إل چيكو» el Chico أي «الصغير»، فحكم نيابةً عنه، لكنّ وادي أش Guadix وبانّا Baza (بسطة بالعربية)، ومدناً شرقية أخرى بقيت وفيه لولائها القديم. هذه الشّقاكات بين العرب، على الرّغم من أنها أعانت الإسبان بشكل أساسي، ساهمت من جهة أخرى وبطريقة غير مباشرة في إلحاق أخطر الكوارث بحملتهم. ذلك أنّ حملةً ضد مالقة بقيادة مركز قادس Cádiz وحاكم سانتياغو Santiago الكبير هوجمت بينما كانت تسلك طريقها بحذر عبر الشّرقية Ajarquía من قبل فرسان الأسد العجوز أبي الحَسَن، ومُزّقت إرباً. وقُتل من الإسبان في ميدان المعركة 800 رجل. لكنّ «أبو عَبدِيل» Boabdil، الحريص على تدعيم أسس المجد الذي أحرزه والده، حملَ خارج غرناطة بـ 9,700 رجل، وشنّ حرباً على العدو تحت قيادة كونت كابرا Cabra (قبرة بالعربية)، قرب لوثينا Lucena (ليسانة بالعربية)، هُزم على أثرها العرب بشكل تام، أما قائدهم الشّجاع علي العطار فقد قُتل، وأما «أبو عَبدِيل» نفسه فقد أسره جندي يُسمّى مارتين أورتادو Martín Hurtado.

ولو أنّ هذا الأمير قليل الحظ ترك بين يدي أعدائه، لأخذت الحرب مجرى مختلفاً، لكن والدته وأتباعه قاموا فوراً بالمقايسة لإطلاق سراحه. وعقدت على الأثر معاهدة مُخزية تقضي بمنح «أبو عَبدِيل» Boabdil سنتي هدنة تشمل جميع الأماكن التي تخضع لسلطته، وبالمقابل فُيّد «أبو عَبدِيل» ليس فقط بدفع الجزية المقدّرة بمبلغ 12,000 دوقية ذهبية، بل بمدّ القوات الإسبانية المازة في الأراضي الخاضعة لسيطرته بالمؤن لمواجهة والده. وهكذا قايض شرفه مقابل حرّيته. عاد السلطان البائس إلى عاصمته ليجد الملك العجوز قد استأثر بالحَمراء، فغمر الصّدام بين الحزبين شوارع غرناطة بالدماء. ثم أقام الفقهاء alfakis أخيراً هدنة، وما كان أمام «أبو عَبدِيل» إلا أن يُجبر على التّراجع إلى المريّة Almería التي خضعت له كعاصمة ومقر إقامة.

في السّنوات الأربع القادمة، أحجم الملوك الكاثوليك عن أية حملة عسكرية مهمّة، مكتفين بتخريب المدينة الممزّقة وخرق حدودها بغزوات مستمرة وحملات نهب وسلب. في هذه الأثناء، ظهر رجل قويّ إلى السّاحة يتمثل في شخص أخي أبي الحَسَن، وهو عبد الله الرّغل -Abdullah Az-Zaghal، الذي قرّر وضع حدّ للانقسامات التي كانت تجلب الخراب لمدينته أكثر مما تدلّ على بسالة الإسبان. فاندفع هذا الأمير نحو المريّة Almería وقتل حاكمها، وأخذ ثريًا Zoraya سجيناً، لكنه توانى للأسف عن تشديد الحراسة على «أبو عَبدِيل»، الذي فرّ إلى قرطبة واضعاً نفسه تحت حماية فرناندو Fernando.

سرعان ما أصبح أبو الحَسَن بعد فترة وجيزة مسناً ومُرهباً، فتنازل لمصلحة أخيه المولى بالحرب، وتوفي في موندوجار Mondújar. قوّت هذه الحادثة من شكيمة «أبو عَبدِيل» فطالب بالعرش المُتداعي، ودخل في اتفاق مع عمّه الذي بموجبه يحكم الطرفان في غرناطة، الأول في البيازين Albaicín والآخر في الحَمراء. وملتهداً لاسترداد سمعته، هاجم الملك الجديد العائد إلى

عرشه المسيحيين بالقرب من لوجا Loja (لوشة بالعربية) بجيوش ضئيلة فهُزم وأجبر على الاعتصام في قلعة لوجا Alcazar de Loja، التي لم يُسمح له بالخروج منها إلا لتجديد المعاهدة المخزية التي عقدها في قرطبة.

لم يكن مستعداً للتنازل عن العرش لمنافسه، وفي طريق عودته إلى غرناطة فاجأ القسبية وحاصرها. ثم حدثت إحدى أكثر الاصطدامات تهوُّراً سجّلها تاريخ المدينة بين أشياخ السلاطين المُتنازعين. وأخيراً تمّ تجنّب إراقة دماء جديدة بتدخّل من سفراء أرسلهم فرناندو Fernando. وبدت التسوية الثنائية القديمة وكأنها قد استؤنفت بشكل مؤقت. أثناء ذلك، استحوذ فرناندو وإيزابيلا Fernando y Isabel مرّة أخرى على الميدان، وفي عام 1487 حاصروا فيليث مالقة Velez-Málaga واستولوا عليها وعلى مدينة مالقة المهمة، على الرّغم من مساعي وجهود الرّغّل لتحرير المكانين.

في ذيك الحين، تنازل السلطان الشّجاع عن عاصمته لابن أخيه، وأقام مراكزه الرّئيسية في المرية Almería. ونجح طوال سنة 1488 بصدّ غزو على مقاطعته، ولكنه في السنة التّالية، وبعد سقوط مدينة باثا Baza (بسطة) القوية، أذعن، كما عبّر هو بنفسه، أمام إرادة الله، وتنازل عن كل الأماكن الواقعة تحت سيطرته، بما في ذلك المرية Almería ووادي أش Guadix إلى الملوك الكاثوليك. أما محمّد الثالث عشر فقد انسحب، كما يروي المؤرخون المسلمون المغاربة Moros، إلى الجزائر حيث مات بعد عدّة سنوات في فقر وظروف غامضة.

لم يبق آنذاك، من جميع أقاليم العرب في أوروبا قاطبةً، إلا مدينة غرناطة الوحيدة، التي أصبح محمّد الثاني عشر، أبو عبد الله الصّغير Boabdil أخيراً ملكها بلا منازع. ولقد أصدر قراراً جريئاً ببيع تاجه الذي استحقّه عن جدارة بأعلى ثمن ممكن، ومن غرناطة أغار على آلندين Alhendín وعلى مارتشينا Marchena مدمراً البلاد الخاضعة للمسيحيين. فما كان من فرناندو وإيزابيلا إلا أن طالبا بتسليم المدينة تقيداً بالمعاهدة المزعومة، فأجاب بكل صدق بأنّ إباءه وغضب أتباعه يمنعه من ذلك. وبدأ عدد سكان غرناطة بالتزايد بسبب اللاجئين الوافدين إليها من جميع أجزاء المملكة ليصل إلى ثلاثة أضعاف حجمها الطبيعي. فأدرك الملك الإسباني أن الطّريقة المثلى لتقليل عددها هو بحصارها.

وعلى رأس 20,000 رجل، بما فيهم بعض أفضل فرسان أوروبا، دخل سهل غرناطة (القيغا) Vega وبنى مدينة سانتا فيه Santa Fé، عند بوابات المدينة المُحصّرة. لقد أدّى هذا الاحتشاد الطّويل الأمد للكفرة في عقر دار العرب إلى غمرهم بكآبة كبيرة. ولم يبق أمام «أبو عبدل» البائس أيّ بريق أمل على الإطلاق، فلقد رزحت المدينة تحت نير المجاعة، كما أعاق الأسطول الإسباني كل أمل بوصول المؤن من أفريقيا إلى مدينة ما برح أهلها البائسون يطلبون المساعدة. أمّا المفاوضات من أجل معاهدة الاستسلام فلم يدخلها السلطان إلا بتلكؤ شديد في شهر أكتوبر من عام 1491. كان يريد أن تُدار بسرّية تامة خشيةً من العامّة. وبالفعل، ففي اللحظة الأخيرة وبخطر يتهدّد حياته، توسّل «أبو عبدل» (أبو عبد الله الصّغير) إلى فرناندو ليعجّل دخوله إلى المدينة.

وفقاً لذلك، وفي 2 يناير عام 1492، حضر الملك العربي مع 50 من الفرسان ليسلم المفاتيح إلى الملوك الكاثوليك على ضفاف نهر خنيل Genil (شنيل بالعربية) راحلاً إلى المقاطعة التي خُصّصت له من قبل الظّافرين في أليوجاراس الصّخرية Alpujarras (البشرات بالعربية). هذا وإنّ حكاية وقوفه ليرنو للمرّة الأخيرة إلى مملكته السابقة وتقريع والدته له مشهورة جداً. ولا نعلم فيما إذا لمحت عيناه وميض الصّليب الفصّي الكبير الذي رفعه فوق الحمرّاء الكاردينال مندوثا Mendoza

إشارةً للإسبان بأن احتلال غرناطة قد تمّ، وبأن غلبة الإسلام على إسبانيا قد وُلّت ومضت إلى الأبد.

* * *

استمرّ حكم المسلمين 781 سنة، تنقص ستين سنة فقط عن مدّة الفتح النورماني لإنكلترا. وجديرٌ بالملاحظة أنّ سلطنة غرناطة قد صمدت وبقيت حتى بعد الانكسار الفعلي لإمبراطورية المسلمين بأكثر من قرنين. وعندما نأخذ بعين الاعتبار، مساحتها المحدودة، وموقعها المنعزل، وقوّة وعداء الدّول المجاورة، والهجمات التي كانت تخضع لها باستمرار، لا يمكننا إلا أن نشعر بالإعجاب الشّديد لشجاعة حكامها ونكائهم وصلابة شعبيها. ولو لم يكُ البلاط مسرحاً لنزاعات تنافسية، ولو لم تكن هذه النزاعات قد جرّدت سيوفهم ضدّ بعضهم، لفاقت سلطنة غرناطة جيش إسبانيا العسكري ونزعته الوطنية، ولبقيت إلى يومنا هذا كتركية أخرى في الغرب. ذلك أن رُوح طارق، وعبد الرّحمن أو المنصور لم تمت فيهم بشكل كامل، ولا حتى لدى ذلك الملك الشّجاع سيّء الطّالع الذي يعزو له المؤرّخون سقوط المملكة، ويتّهمونه - على نحو مُستهجن حقاً - بالتّخنّث والضعف.

كان مسلمو غرناطة يعرفون كيف يخوضون حرباً خاسرة، حتى لو كان ذلك ينطوي على رهان غير مضمون، وكانوا عندما يعدمون الحيلة للنّصر ينافحون من أجل كسب شرفهم. لقد أثبتوا أنفسهم بأنهم جديرون بأسلافهم، وأمّا أروع صرح يدلّ على هيمنة المسلمين على إسبانيا وأكثرها بهاءً وآخرها زمنياً، فكان دونما ريب غرناطة النّبيلة الشّامخة.

قصر الحَمراء

من نافل القول إنّ قصر الحَمراء بالنسبة لغرناطة يعادل بالنسبة لأثينا معبد الأكروليس Acropolis، ولا ريب أنه أعظم تذكّار حيّ قدّمه المسلمون لأوروبا. وهو ينتمي إلى آخر حقبة من الفن الإسباني العربي، وذلك عندما بدأت بذرة أفكار المسلمين وثقافتهم تضرب جذورها عميقاً في التربة وتبتكر أسلوباً يمكن تسميته بالأندلسي أكثر من العربي. وإذا كان المسلمون قد تركوا بصمة عميقة في الفكر والفن الإسباني، فهذا لا يعني أنهم قد خرجوا عموماً من تأثير جيرانهم المسيحيين. فخلال القرنين الأخيرين من احتلالهم تراخى التّشدد الصّارم لعقيدتهم بشكل كبير، وبالأخصّ فيما يتعلق بالفن، الذي هو دائماً انعكاسٌ لعادات النّاس وروحهم. لم تترك موجة عصر النّهضة الإمبراطورية العربية المنكمشة دون أن تؤثر فيها، وبينما لم يتردّد الملوك القشتاليون في توظيف الحرفيين المسلمين في بناء كاتدرائياتهم، فإنّ سلاطين غرناطة كذلك لم يهملوا دور الفنانين المسيحيين في تزيين قصورهم.

تبقى «الحَمراء» صرحاً إسلامياً بحتاً، لكنها ترمز أيضاً إلى مرحلة مؤسّساتية وثقافية متميّزة وفريدة بالنسبة لوطن وعهد محدّدين. والواقع أنّ المسلمين لم يصلوا ولا في أي مكان آخر إلى مثل هذه الذّروة السّامقة من التّفكير والرّفعة. إنّ الحَمراء تقف كأسمى ذروة تبلغها بفنّها وحضارتها.

لن تُشيد أبداً حمراءٌ جديدة ولا پارثينون Parthenon جديد ولا أهرامات جديدة، لأنّ تلك الصّروح العظيمة كانت تعابيرٍ وسَمّت أفكاراً وطموحاتٍ خاصّة بمجتمعات آلت منذ زمن بعيد إلى الزوال. وهكذا فإن «قصر الحَمراء» في غرناطة ليس مهماً لمجرد أنه صرح إسلامي تُرك منعزلاً في الغرب البعيد في أوروبا، بل كأثرٍ حيّ باقٍ لشعب وحضارة زالا منذ زمن طويل. وهناك مساحة من الحزن ترتبط به، تتبعث من ذكرى إحباطٍ عنيف نال ذلك الشّعب ومهمّة لم يتمّ إنجازها، مفعمة جداً كما هو واضح بالتّور والجمال للعالمين المسيحي والإسلامي على حدّ سواء.

ينبتق عن سلسلة جبال السّيبيرا نيقادا رعنٌ صخري يشرف على غرناطة من جهتها الجنوبية الشرقية، يتفرّع عنه واديان ضيّقان بداخل ثلاث ربوات. وقد توجّ أقصى الشّرق منه بجنّة العريف Generalife، وأقصى الغرب بالحصون القديمة المعروفة بتوريس برميخاس Torres Bermejas أو الأبراج القرمزيّة Vermilion Towers. والتلّ الواقع بين الاثنين - شبّه فورد Ford شكله بحقّ ببيانو ضخم - أقيمت عليه المباني المختلفة التي شكلت بمجملها الحَمراء. هنا ظهرت مستوطنات في أيام السّلتيين Celtiberian الغابرة، ومدينة إلبيريس Illiberis أو إلبيرة Elvira كانت تقف هنا، وربما امتدّت إلى أبراج التّوريس برميخاس Torres Bermejas.

وعندما أتى العرب شيّدوا حصن القصبّة Al Cazaba - على رأس تلة الحَمراء مطلقاً على الأبراج القرمزيّة Vermilion Towers. ولهذا أطلقوا اسم «الحَمراء» كما يعتقد ريانو Riaño، لتمييزها عن القصبّة Alcazaba في حي البيازين Albaicín، أو ربما لتمييزها عن فوضى تداخل بعض المباني الحديثة مع القديمة. كان الباني حسب ما يذكر ابن الخطيب زاوي بن زيري Sawar Alcaysi الذي

عاش في النصف الثاني من القرن التاسع، بالرغم من أن كونتريراس Contreras يقول بأنه كان يُعرف ببرج ابن جعفر Ibn Jaffir، ويعتقد فورد بأن حبوس ابن ماكسن Makesen هو المؤسس. في كل الأحوال، يعود تاريخ البناء إلى الفترة الأقدم للفتح العربي، وأقام بنو الأحمر هنا، مسيطرين على غرناطة كمدينة صغيرة محاطة بالأسوار ومحمية بقلعة.

يصف ابن الخطيب قلعة غرناطة على هذا النحو: «الجزء الجنوبي من المدينة تشغله ضاحية الحمراء أو مدينة الحمراء، قصر السلطنة، الذي يتوجها ببرجاته الترينية وأبراجه الشامخة، معاقله (حصونه) القوية، والقصر Al Cazar الرائع، وضروح فخمة أخرى تقن العين والروح بروعتها. هناك أيضاً وفرة في المياه التي تفيض في سيول من الخزانات، مشكّلة فوق المنحدرات جداول وشلالاتٍ صغيرة يُسمع صوتُ خريرها الرّتان من بعيد. وعند أسفل الأسوار هناك حدائق فسيحة هي موئل السلطان. والبساتين المورقة، بخضرتها الكثيفة تغطي الشرفة البيضاء حتى تومض كالنجوم. باختصار، لا توجد بقعة حول محيط الأسوار إلا وقد زرعت بالحدائق وبساتين الفاخرة».

لم يتغيّر المشهد كثيراً منذ أن دوّن وصفه المؤرخ العربي. فما زال خرير الجداول يُسمع ويجري أسفل منحدرات تلّ الحمراء، والعنادل تشدو في غابات الدردار الكثيفة.

بالنسبة للقصبة Alcazaba، فعلى اعتبارها القسم الأقدم في حصن القلعة، ينبغي أن تُدرس أولاً. يُدخل إليها عبر البرج وبيت السلاح - من خلال قنطرة على شكل حدوة من القرميد الأحمر مع زليج azulejos رائع، وهو قرميد مزجج. وإلى اليسار هناك برج أوميناخه Homenaje (العرفان) الذي ترك الزمن والحرب بصماته عليه. وهو يحتوي (وهذا أمر جدير بالملاحظة) على مذبح نذري روماني، طوّق بإحكام من قبل البنائين العرب في المبنى، ويحتوي على هذه الكتابة: «المعترف بالجميل فاليريوس Valerius إلى زوجته المتسامحة كورنيليا Cornelia».

وعلى الطرف المقابل للقصبة Al Cazaba يوجد تورّه دي لا فيلا (برج الحراسة الليلية) Torre de la Vela، أو برج الساعة Tower. ويقع في طابقين، يتصل بعضهما بالآخر بدرج مظلم وضيق، مع فتحات لحلقات في الجدار. وقد غلّق في هذا البرج جرس مشهور، ليُسمع، كما قيل، في لوجا Loja (لوشة بالعربية) على بعد ثلاثين ميلاً. ويُدقّ في الذكري السنوية لفتح غرناطة، وفي هذا اليوم يقتضي العُرف الذي تمليه اعتقادات محلية أن تقوم الأنسات التّواقات إلى الزّواج إلى ضربه بكل ما أوتين من قوة. وعلى قمة هذا البرج هناك الصليب الذي ثبته للمرة الأولى الكاردينال مندوثا Cardinal Mendoza. والمنظر من الشرفة لجمال السّيزا نيقادا المكسوّة بالثلج، والسّهل الخصب (الفيغا) Vega، والمدن ذوات الجدران البيضاء، والقرى، فسيح بقدر ما هو جميل. وعند أسفل التّورّه دي لا فيلا Torre de la Vela يمتدّ بيت الأسلحة، محمياً ببرجين، ويُلقب الآن ببرج دي لوس إيدالغوس (التبلاء) de los Hidalgos وبرج دي لا بولفورا (البارود) de la Polvora وكان يُعرف سابقاً بالپانياغوا Paniagua وكريستوبال دل سالتو Cristóbal del Salto - وهي أسماء توحى بأساطير قد آلت إلى النسيان.

هناك وثيقة قديمة في سيمانكاس Simancas تذكر من الأبراج التي تربط القصبة Al Cazaba مع باقي الحصن، برج أدارغيرو Torre del Adarguero «البرج الذي سكنه خادم الدكتور أورتيث Doctor Ortiz»، وبرج ألكيثا Torre de Alquiza، وبرج أوننيفيروس Torre de Hontiveros (والآن يدعى برج الدجاج Torre de las Gallinas)، وبرج وغرفة ماتشوكا Machuca. كما يوجد من هذه البقايا برج آخر، مشار إليه باسم Torre de la Tahona، لكن لم يبق له أثر.

لقد انفصلت القصبه، بحسب معظم الدراسات الحالية، عن موقع القصر بوادٍ صغير مُنحدر، حيث بُنيت بعد الفتح أحواضٌ، بأمر من كونت تِنديّا Conde de Tendilla وأنشئت فوقها ساحة الأحواض Plaza de los Algibes الحالية. يبدو أن هذه الأعمال استلزمت تدمير جدار امتدّ من التورّه دي لاس غايّيناس (برج الدجاج) Torre de las Gallinas في الشّمال إلى پويرتا دل بينو (بوابة التّبّيذ) Puerta del Vino الجميلة في الجنوب. هذا المدخل عُزل تماماً الآن عن الجدار (السور) المحيط. وفوق قنطرة الحدوة يوجد نقش على الجصّ، بالحرف العربي العادي يخصّ بالعناية الإلهيّة بانيه (السّلطان محمّد الخامس)، ويبدو أنه يحيي ذكرى نصر مؤرّر. ومجدداً، فوق القنطرة نافذة مزدوجة رائعة أو (أخيميث) ajimez. وفي الحجر المركزي يظهر المفتاح، وقد تكرّر هذا الرّمز في كل أقسام الحَمراء بعلامة (غ) بالحرف الكوفي، ربما كان يعني الحرف الأول للمدينة. وواجهه المبنى الداخلي لها قنطرة على شكل حدوة كبيرة ونافذة مزدوجة تعلوها. وعلى الأغلب أنّ لا پويرتا دل بينو La Puerta del Vino (باب التّبّيذ) كانت هي المدخل إلى قصور القصر وحدائقه.

لدى عبورنا ساحة الأحواض Plaza de los Algibes، نترك خلفنا أعمال العرب الأولى ونقترب من المباني التي تدين بتأسيسها إلى السّلالة النّصريّة أو الغرناطية الحاكمة. والقصّة التي تعطي الاستحقاق للأحمر (محمّد الأول) لبنائه القصر الأحمر في منتصف القرن الثالث عشر يبدو بأنها تستند إلى وقائع لا غبار عليها. فعندما يُشار إلى أن الحَمراء كانت موجودة في الأزمنة السّابقة، فالمقصود بلا شك القصبه Al Cazaba. وإلى نفس الأيدي ربما يُعزى بناء السّور الخارجي العظيم للحمراء الذي يحيط بالقصر والحصن، متّبعاً التّفاوت في محيط التّلّ. ترك ابن الأحمر شعاره «ولا غالب إلا الله»، في أقسام كثيرة من البناء، وكان قد تلقّظ بهذه الكلمات في استنكاره المكتتب لتَهليلات رعاياه لدى عودته من مساعدة المسيحيين في فتح إشبيلية. وخلال قرنين ونصف من الحكم النّصري خضع القصر لتعدّلات وتجديدات كثيرة لدرجة يصعب معها التّريق بين أعمال السّلاطين المختلفة. يعتقد فورد Ford، وبحقّ كما يبدو لنا، من التّكرار الدائم لاسميهما على الجدار بأنّ يوسف الأول، ومحمّد الخامس، لهما الحصّة الأكبر في تزيين الصّرح وترميمه. فمنذ الفتوحات الجديدة طرأت تغييرات وإضافات كثيرة وخاصّة لقصر كارلوس الخامس (شارلكان)، الذي سنأتي على ذكر مفصّل له فيما بعد.

كانت قمّة تلّ الحَمراء مأهولة بالسّكان في أيّام ابن الأحمر، واستمرّت كذلك أثناء حكم خلفائه. أما السّكان الذين كانوا يقطنون أسفل القصر فيتألّفون بشكل رئيسي وفي الأزمنة الأخيرة على الأقلّ، من رواد القصر من: المحظيّات من الجوّاري السّابقات والسّلطانات المنبوذات، العلماء وكبار القضاة، جنود المرتزقة، السّفراء الدّائمين وفوق العادة. قبائل قوية كبني سراج، الذين مارسوا تأثيراً كبيراً جداً في المراحل الأخيرة من حكم بني نصر، وهناك أيضاً أحياء لقادتهم فيها والبلدة الصّغيرة - التي يبدو أنه لم يكن لها مثل من قبل - كانت تمتدّ من أقصى التّلّ الشّرقى إلى الدّاخل حتى أبواب القصر حسب ما يمليه مزاج الملك في ذلك الوقت.

لم يجرِ التّحقيقُ أبداً في الحدود الأصلية للقصر، حتى في وقت فتح الملوك الكاثوليك، وثمة أجزاء منه قد هُدمت دون شك لفتح مجال بناء قصر كارلوس الخامس (شارلكان). ومن جهة أخرى، فقد ورد في محفوظات الحَمراء أن بيوتاً خاصّة كثيرة قد تم الاستيلاء عليها بهدف توسيع المبنى القديم. لكن إذا التمسنا الأعذار لأعمال الهدم، والتوسعة، والتّرميم التي حدثت منذ القرن الخامس عشر، نجد أمامنا في قصر الحَمراء مثلاً رائعاً لآخر للمرحلة الثالثة من فن العمارة الإسباني - العربي.

في الخريطة العامة للصرح، تستحق ملاحظات كونتريراس Contreras الذّكر برمتها: «نحن نتغلغل في كل نُصب تذكاري عربي عبر بُرج ناءٍ، أو بين برجين، باستثناء البيوت المأهولة بالسكان، في هذه الحالة فإنّ الدّخول يتم عبر مربّع صغير مفتوح، عديم الأهمية بالنسبة إلينا ومع ذلك يتكرّر في البيوت القديمة للأندلس. هناك رواقٌ طويل وضيقٌ يقطع المحور بشكل عمودي قاسماً المبنى إلى جناحين. وعند التقاء المحورين نجد المدخل، ونجد أمامه تأثير المنظور الرائع جداً في هذه المباني. وبعد المدخل نجد بهواً فيه بركٌ ونوافيرٌ، وأروقةٌ جميلة مضاءة.

وخلف الرّواق الثاني، وعلى طول المحور الرّئيسي، هناك محاور طولية تتقاطع مع بعضها بزوايا قائمة حتى أقصى نهاية البناء، حيث القباب أو أبراج الشّقق الداخليّة المأهولة بالسكان تسمو شامخة فوق مستوى المبنى وتتعكس في مياه البرك. ورُدهات المنزل من هذا النّوع، قد رُتبت بحسب منزلتها أو فخامتها، في سُرادقات صغيرة على جانبي القصر، متنوّعة في أسلوب زخرفاتها كما الخيام في معسكر تركي، حيث من الممكن لمساكن الأمير أن توجد إلى جانب مساكن جنود عاديين. وإذا كانت هذه الصّفوف من الحجرات قد وُجدت الآن مرتبة بحسب الرّصف الدّقيق لإفريز إسلامي مدجّن Mudéjar، فهو دلالة على أنّ عبقرية الفاتحين المسيحيين قد منعت القمم المدبّبة crests، والقباب، أو أبراج الكنائس من تشويش تناسق منظور الرّخرفة.

«خارج هذه الخريطة التّقليدية، التي يمكن أن نقارنها بصليب مع ذراع معترضة تقطعه عند مسافات مختلفة أذرع عمودية متوازية مع بعضها، ولكن بأطوال مختلفة، لم يجد العرب الإسبان أسهل من هذا المنهج في البناء، فمع انقاص أو إطالة أذرع المحور بقدر ما قد تتطلبه ملاحق القصور الكبيرة، لم تنفصل أبداً عن النّظام، حيثما وأينما بنيت... هذا إذن هو المخطّط الحقيقي للحمراء، وهو يختلف تماماً عما فهم من قبل الكلاسيكيين في القرن الثامن عشر، بواجهاته، وزواياه، وتربيعاته».

يجب الاعتراف، من ناحية ثانية، بأنّ روعة الطّراز المعماري في الرّخرفة تفوق تصميم مخطّط أرضيّة القصر. فقد بُنيت كلّ الرّخرفة العربية على مخطّط هندسي صارم، وكلّ تصميم قد حُدّد بترتيب متناسق للخطوط والانحناءات في أبعاد متساوية، ونقطة تقاطع الخطوط عند الزوايا

هي سرّ النظام. تتدفق كل هذه الخطوط من رسم محدد ولا يقدم أي شكل أو زخرفة بشكل عشوائي. إنَّ الزخرفة الإسلامية تمقت عدم الانتظام أو العشوائية وترفض الرمزية. ومع ذلك لم يُراعَ شرع الإسلام الذي يحرم تصوير المواضيع الحيّة، دائماً في هذا القصر نصف الأوروبي - نصف العربي.

إنَّ البساطة والبدائية تميّز أيضاً ألوان الزخرفة، التي استخدمت في الأعمال على الجصّ، إذ تظهر الألوان الرئيسية: الأزرق، الأحمر، الأصفر، أما الألوان الثانوية فتظهر فقط في الأجزاء الدنيا dados للفسيفاء. واللون الأخضر في كثير من زخرفة اليوم كان أزرق في السابق، وتغيّر لون الصباغ المعدني المستخدم بعامل الزمن، ويبدو أنّ زخرفة الأسطح قد حُطّطت بتمعن دقيق للون الذي ستلقاه. وسواء فيما يتعلّق بالزخرفة أو باللون، أصبح هناك تسامح في درجة التجديدات منذ أن انتقلت الحمرء إلى أيدي مسيحية.

يقول السيد جون لوماس John Lomas: «لنمعن النظر برهة في بعض التفاصيل - وخاصة في مجال الزخرفة، فأينما تقع العين، تقع فوق رواق مقنطر أو بهو معمد، دقيق جداً في التوريق الشفاف الغني لتيجان الأعمدة، وفي رشاقة دعاماته، حيث أنّ أحدنا سيدهش من معجزة صمود تلك المنشآت حتى على مدى جيل واحد. وكذلك «دموع العشاق» كما سمّي هذا العمل المخرم، إذ يطلبون من الشخص أن يقف مباشرة داخل القاعة المظلمة أو الردهة وينظر إلى السماء الزرقاء خلفه وكأنها غيمة صغيرة من الياقوت الأزرق. لكن الأفضل من ذلك بالتأكيد - التنبُّر في آية من بدائع الفن - وهو أن تقف خارج الجوسق الشرقي لقصر الأسد وتنظر عبر الفسحة المثلثية والدّهليز والقاعة، لتلتقط الضوء الذي ينعكس عبر النوافذ المقابلة البعيدة، شفافية التأثير. كل هذا يدعو المرء إلى أن يتمنّى مقابلة المهندس المعماري الذي صمّمها.

وبعض المنشآت غير المنتظمة تتسم بروعة لا تُعقل. فما عساه يكون أجمل من سلسلة الرّواق المقنطر هذا، رشاقة أعمدته التي تشبه جذع النخلة أم قناطره المرتكزة إلى القوائم المتناسقة، أم العمل الدقيق للفرجات المثلثية؟ يبدو أنه لا توجد بقعة واحدة من شأنها أن تزجج العين، علاوة على ذلك، هناك تقريباً 12 قوساً متنوعة، تختلف في الشكل، أو الارتفاع، أو العرض، ويتفاوت الرّواق المعمد المسقوف في الاتساع عند كل منعطف، أما الأروقة العليا فغير مستوية. والمداخل ذات طابع شخصي توضع فيها الأعمدة بشكل منفرد أحياناً، ومجتمع أحياناً أخرى، وعددها على الجانبين غير متطابق على الإطلاق.. ومع ذلك، فهناك تناسق عام، وتناظر. والكلّ بمجموعه انعكاسٌ لانتصار جمال التأثير».

في مذكرته يضيف السيد لوماس «كشاهد على الطريقة الدقيقة التي يذهب للعمل بها معماريو تلك الأيام القديمة، يمكننا التتويه بأن العلاقة بين البعد غير المتساوي للرّواق المعمد

المسقوف على الجوانب الطويلة والقصيرة للقصر، هي تربيعات على جوانب المثلث قائم الزاوية. وهذا التناظر الجميل الحاصل من خلال عدم انتظام المسافات هو فنٌ قد فقدناه بشكل غريب».

سنقوم الآن بوصف مفصّل لقصر الحمراء.

El Patio De la Mezquita

فناء المسجد والأبنية المجاورة

أظهرت الدراسات الحالية بأن المدخل القديم إلى قصر الحَمراء كان عن طريق مدخل يؤدي إلى داخل ما يسمّى اليوم بالكنيسة. إنه مربع في شكله رُفعت فيه جدران منذ زمن طويل. وتقول الكتابات التي نُقشت فوقه: «النصر والتّمكين والفتح المُبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين...» وتشير الكتابة إلى أنه أقيم بأمر الإمام محمّد المظفر «في ظله يرعى العباد»، ويُعتقد بأن هذا النص يشير إلى محمّد الثالث (1302-1309).

وإنّ الكنيسة التي أسّسها فرناندو وإيزابيلا Fernando y Isabel المجاورة لبهو السّباع Patio de los Leones قد نُقلت إلى هذ الجزء من قصر فيليب Philip الرابع في العام 1621. في ذلك الوقت حوّلت موقدة رائعة من طراز عصر النهضة إلى مذبح. وتحتوي الشّقة على بقايا قليلة من عمل بنائيه العرب، وخارجها يوجد فناء المسجد Patio de la Mezquita بواجهته الفاتنة، إلا أن رواقاً حديثاً قد شوّها كثيراً. أما الجدران فزُيّنت بنسق متكرّر لنقش زخرفي «ولا غالب إلا الله»، وجُمِلت بمجّد الملوك وأنواع كثيرة من فن الزّخرفة العربي (الأرابيسك). وتشير الكتابة حول النافذة الرّئيسية إلى محمّد الخامس (1354-1391).

بُنِيَ جامع الحَمراء الكبير عام 1308 من قبل محمّد الثالث. وقد حُفظ بشكل جيّد حتى الاحتلال الفرنسي الذي، وفقاً لدون پاسكوال دي غايانغوس Don Pascual de Gayángos، دمره بشكل كامل. ولقد وصلتنا عنه رواية بقلم ابن الخطيب، وزير يوسف الأول: «وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحَمراء، على ما هو عليه، من الطّرف والتّجديد، والتّرقّيش، وفخامة العُمد، وإحكام أنوار الفضة، وإبداع ثريّاتها، ووقف عليه الحَمّام بإزائه وأنفق فيه مال الجزية، وأغرّمها لمن يليه من الكفار، فدوا به زرعاً، نهد إليه صائفته لانتسافه، وقد أهتمهم فتنة، فظهر بها منقبة يتيمة، ومعلوة فذة، فاق بها من تقدمه، ومن تأخره من قومه». بقي من هذا المعبد الفخم بقايا قليلة عدا عن قاعة صلاة تدخلها عبر باب في الجدار المقابل للكنيسة الصّغيرة تدخل إليها عبر باب في الجدار المقابل لمذبح المصلّى. لا يزال المحراب بارزاً هنا. وأمامه، بينما كان يوسف الأول يؤدي صلّاته، سقط ضحية خنجر غادر في السّنة 1354.

إلى جانب المحراب، يوجد برج يونيالس (الخناجر) Puñales المتهدّم، الذي يقدم نقاط اختلاف معمارية كثيرة عن باقي القصر، وفيه مزايا قد توحى بخصائص أسلوب العمارة المدجّن Mudéjar المشاهد في مناطق أخرى في الأندلس. وقد زُوّدت النافذة الرّئيسية للبرج بشرفة خشبية مع نوافذ شبكية مشابهة لتلك الموجودة في القسطنطينية والقاهرة.

لنرجع بخطواتنا نحو صحن المسجد Patio de la Mezquita نصل إلى القصر الرَّحْب قصر الآس العطري أو بركة السَّمك Patio de los Arrayanes أو de la Alberca. هذا هو القصر الذي يدخله الزائر أولاً عبر المدخل الحديث. وهو واحد من أجمل أجزاء القصر، ويقدم أنموذجاً عن الانتصارات وراءه. يخيل للمرء بأنه انتقل مباشرة إلى الشرق. «أصالة فن العمارة - يقول دون فرانثيسكو مارغال Don Francisco Margal - الأروقة المهواة، والمقاصير alhamis الوفيرة، الشَّقق الرَّائعة التي تلمحها من خلال قناطرها، التوافير وأوراق النَّبات، انعكاس جدرانها الحصى في مياه البركة، حفيف النَّسيم الذي يحرك الآس العطري الكثيف، شفافية السَّماء، السكون الذي يسيطر في كل الأرجاء - كل ذلك يخلب الرّوح في وقت واحد، ويتزكنا لبعض اللحظات غارقين في بحر من الأحاسيس التي تكشف لنا عن تناغم المشهد الكامل. يشكّل القصر مستطيلاً، محدداً من الشّمال والجنوب برواقين يقومان على ثمانية أعمدة من الرّخام الأبيض، وإلى الشّرق والغرب جدران فُتحت فيها أبواب ونوافذ مزدوجة مغطاة بزخرفة عربية (أرابيسك)، ولكنها تختلف بدرجة زخرفتها. عند كل زاوية نجد حنية alhami أو مقصورة alcove، حيث اعتاد العرب أن يتراخوا في النَّهار، متمددين على سجّاد ودواوين فخمة. أما جدران تلك الأماكن الصّغيرة فمطعمة بنحت نافر من الجصّ، وسقفها تزخر بنقوش النَّوازل. وعلى طول منتصف القصر تمتد البركة، أو حوض السَّمك، حوافها مخبأة بأشجار البرتقال والآس العطري. يتدفق الماء الصّافي إلى الأعلى في حوضين مستديرين عند النّهاية، إلى الشّمال، يغلق المشهد بشرفة برج فُمارش Torre de Comares، إلى الجنوب بأسوار قصر كارلوس الخامس (شارلكان). وعبر أحد المداخل يمكن أن تُشاهد نافورة بهو السّباع. ويرفل القصر باسترخاء، بغنى الشّرق وروعته.

يتكوّن كل رواق من سبع قناطر نصف دائرية، تصل الرّئيسية فيها بارتفاعها إلى الافريز، بينما تنخفض البقيّة عنها كثيراً، وتُغلق بخشب مزخرف، أو بنوافذ شبكية. أما سقف الرّواق الجنوبي فيأخذ شكل حوض أو رقص أرثيوسونادو artesonado، ويحمل سبع قباب صغيرة، وفوق القنطرة الرّئيسية للرّواق الشّمالي قبة منفردة طليت بنجوم ذهبية صغيرة على خلفية زرقاء.

وفي هذا القصر كتابات متعدّدة، أهمّها:

«نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشّر المؤمنين».

«النّصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المُسلمين».

«عزٌّ لمولانا السّلطان أبي عبد الله بن مولانا السّلطان أبي الحجاج».

وكتابة ترجمتها: «أنا كحلّة العروس، مزينة بأتم الجمال والكمال».

في بهو البركة Patio de la Alberca قنطرة تختلف كلياً عن الأخريات في القصر، فسطح واحد فقط قد زين، بصورة ملونة لشخص. والرّخارف هنا هي أقرب إلى الأشكال الطّبيعية منها إلى فنّ العمارة الأندلسية، والقنطرة ذات طابع عجمي.

يُعتقد أنّ البهو وُجد للفصل بين شقق الذّكور، التي ترتادها العامة، وقد وصفناها سابقاً، وشقق الحريم Harem، أو المساكن الخاصّة، بما فيها بهو السّباع.. إلخ.

نمرّ عبر قنطرة جميلة مزخرفة بتصاميم نباتية رفيعة الذوق في داخل قاعة البركة Sala de la Barca أو زُدهة قاعة السُفراء. هذه الشقّة الرائعة التي كانت تشعّ بالألوان، قد تضررت بشكل كبير في حريق عام 1890. وسقفها الداخلي، كما يقول المعمار أوين جونز Owen Jones، عبارة عن قبة من الخشب المزخرف بنماذج شديدة الإتقان، تدعمها مقرنصات ذات تشكيل حسابي دقيق جداً، حيث يمكن أن تقارن حساسية تركيباتها بتنوع الألحان التي تؤلفها النغمات السبع للسلم الموسيقي، وما لتلك العناصر البسيطة من قوة وتأثير عند تكرارها».

وخلف هذه القاعة يرتفع برج فُمارش Tower of Comares الذي يبدو وكأنه يستريح على دعائم في منتهى النحول ويتأرجح في الهواء، أما الدّعائم الحقيقية فقد حُجبت عن النظر بشكل متعمّد، والمنظر من قمة شرفة البرج رائع. ومن هذه المنصة، كما يُعلّق واشنطن إرفينغ Washington Irving، راقب ملوك غرناطة الفخورون وملكاتهما تقدم جيوشهم، أو أشرفوا على المعارك في سهل غرناطة Vega. وجدران البرج تمتاز بسماكة مذهلة.

أما الدّاخل، وهو عبارة عن مربع 37×75 قدماً فيرتفع حتى مركز القبة، وتتخلّله قاعة السُفراء (سالا دي إمباخادورس) Sala de Embajadores، وغرفة استقبال السلاطين. وهي الأكبر وربما الأكثر مهابة بين قاعات الحُمرّاء. إذا نظرنا إلى الأعلى، نشاهد قبة هوائية رائعة بأسلوب سقوف الأرتيسونادو artesonado، مع نجوم وزوايا مطلية بالألوان. ويعتقد أوين جونز Owen Jones بأن السقف الحالي يحلّ محل سقوف أقدم، كانت تدعمه قنطرة من القرميد. وتفنقر القاعة إلى أرضيتها الرُخامية السابقة، ونافورتها الرئسية، والشبكيّات الخشبية التي كانت تُسدّ نوافذها المزدوجة. لكنها لا تزال مزخرفة (بعمود سفلي) dado جميل فسيفسائي (معروف باسم sofeisfa) يصل إلى الإفريز الخشبي. وثمة كثير من النقوش الكتابيّة الكوفية والمغربيّة تتداخل ضمن الرُخرفة، وقد تكرّر شعار بني الأحمر فيها. هناك تسع مُختليات أو مقاصير تتفتح على القاعة، كل واحدة بنوافذ مزدوجة، حلّت محل الشرفات. أما المقصورة مقابل المدخل فكانت مكان عرش السُلطان، وتشهد على ذلك الكتابات الشعريّة الطويلة. ترى، أية اجتماعات مبهرة كانت تملأ هذا البهو في السّنوات الماضية - وأيّة مشاهد عنيفة وقرارات مصيرية قد جرت هنا!

El Patio De Los Leones

بهو السّباع والشّقق المجاورة

يحتلّ بهو السّباع Patio de los Leones، مع الحجرات المفتوحة عليه، الرُّبع الجنوبي الشّرقي من القصر. «لا يوجد قسم في هذا القصر من شأنه أن يعطينا فكرة كاملة عن جماله الأصلي وروعته أكثر منه»، كما يقول واشنطن إرفينغ Washington Irving «إذ أنّه على نقيض البقيّة، لم تطله يد الزّمان بالتّخريب إلا قليلاً. تقوم في المركز النّافورة المشهورة التي تغنّوا بها في الأغاني والحكايا. وأحواض المرمر لا تزال تصبّ قطراتها الماسية، يدعمها الاثنا عشر أسداً تجعل نبعها البلّوري يتدفّق كما في أيام أبي عبد الله الصّغير (أبو عبدل) Boabdil. يتميز أسلوب العمارة، كما في باقي أقسام القصر بالأنّاقة أكثر من الفخامة، وينمّ ذلك عن ذوق جميل ونزعة إلى المتعة الخاملة. عندما ينظر المرء إلى التّوريق للبهو المعمد والنّقش الشّبكي للجدران الذي يبدو هشاً ظاهرياً، فإنه يصعب التّصديق أنّ كل ذلك قد نجا من بلاء القرون وصدّات الزّلازل وعنف

الحرب، واختلاس الرخالين من نوي الذوق الرفيع، فلذا قد يكون حرياً بنا أن نعتقد بأن المكان محروسٌ بفتنة سحرية».

والقاعة عبارة عن مستطيل مساحته 66×116 قدماً، على كل جانب منها امتدَّ بهوٌ معمّد أو رواقٌ معمّد، وعند كل نهاية أنشئ سُرداقٌ جميل مع قبة رائعة. أمّا عدد الأعمدة الرخامية فهو 124، وارتفاعها 11 قدماً. توضع بشكل عشوائي، منفردة أحياناً، وأحياناً أخرى مزدوجة - دون أن يخلّ هذا الترتيب بالتناسق العام والتجانس. وكذلك القناطر ذات الانحناءات المختلفة التي تبرز عبر تيجان مزخرفة بأوراق نبات غنية بالتصاميم المتنوعة. ويغطي الأرابيسك أو الزخرفة العربية التقليدية المسافة فوق القناطر، وتزينها آيات من القرآن. أما السقوف الداخلية للأروقة المعمّدة فتزخر بنقش جصي دقيق وتغطي الجدران إلى ارتفاع خمسة أقدام بالدادو Dado من الزليج azulejos الأزرق والأصفر، وتحف بشعارات النبالة الملونة بالأزرق والذهبي وتحمل شعاراً عربياً بشكل ملتوٍ.

في مركز القصر نافورةٌ يُشتق منها اسمه. وهي تتألف من حوضين (في زمن العرب كان هناك حوض واحد فقط) يدعمهما 12 أسداً رخامياً. نُحتت تلك التماثيل العربية، كما يلاحظ فورد Ford، وكأنها شعار بطريقة خشنة، وتشبه إلى حدّ قريب تلك التي تعلو مدافن المسلمين والنورمان في بوليا Pulia وكالابريا Calabria (في إيطاليا)، «ووجوها مطموسة، وقد نُحتت أعرافها كحراشف الغريفين griffin (نصف طائر ونصف أسد)، وأقدامها كدعائم السيرير، بينما أنبوب المياه الملتصق بأفواها لا يضيف إلى وقارها». وبالفعل، فالكتابة الطويلة حول الحوض تؤكد بأن لا شيء يستدعي الخوف من هذه المخلوقات، لأنها «لا حياة لها لتقدر على إظهار ضراوتها»، ويبدو ذلك سخيلاً وغير ضروري. ومع ذلك فكنماذج للنحت العربي تبدو فريدة، والظاهر أن بنائي الحمرء لم يكونوا صارمين كثيراً في تطبيق دينهم (الذي يحرم الأشكال التصويرية) والكتابة المُشار إليها قد نظمها فيليرا Velera شعراً يقع في 44 بيتاً من الشعر بالفشتالية.

على الجانب الجنوبي لبهو السباع تقع Sala de los Abencerrages (قاعة بني سراج)، سُميت هكذا لأنه يعتقد بأنها كانت مسرح أحداث مذبحه 36 رجلاً من أعيان تلك الأسرة بأمر من أبي عبد الله الصغير (أبو عبدل) Boabdil. وهناك عرق مُحمرّ في الأرضية الرخامية يُشار إليه على أنه لطخات دم ضحايا يتعذر محوها. وللقصة أساسٌ تاريخي ضئيل، نشرها للمرة الأولى كاتب اسمه خينيس بيريث دي إيتا Ginés Pérez de Hita، عاش في القرن السادس عشر. يقول البعض بأن مغتصب الحكم ابن عثمان (1446) قد قُطع رأسه هنا بأمر من الأمير مولاي الحسن، لكن آخرين كتبوا عن تلك الفترة المشوشة من تاريخ غرناطة، ذكروا أنّ الطاغية قد فرّ إلى الجبال. وهذه الحجرة، التي ربما كانت الأكثر أناقة في الحمرء، لا تبدو مكاناً مناسباً لإراقة الدماء. يُدخل إليها عبر قنطرة جميلة، تظهر منها أكثر مما ينبثق عنها، أعمدة رخامية. والغرفة عبارة عن مربعٍ يمتدّ شرقاً وغرباً بمُختلئين أو مقصورتين يُدخل إليهما عبر قناطر منحنية متقنة الصنع. لكن شهرة قاعة بني سراج Sala de los Abencerrages بسقفها - صُممت كنجمة، بقلادات أو هوابط، و16 نافذة في سقوفها المعقودة.

كتب الدون فرانثيسكو بي مارغال Don Francisco Pi Margall: «آلاف المقرنصات، ألوانها، قناطرها التي لا تُعدّ، تيجان نجومها، نتوءاتها وانخفاضاتها المعقدة، مخاريطها، مصلعاتها، تشابك أضوائها، تأثيرات الضوء وظلّه chiaro scuro، كل ذلك يبدو عند النظرة الأولى مشوشاً، يتعذر تعريفه وفكّ رموزه، مشعاً، وغامضاً، كذلك النطاق العريض، درب التبانة، الذي يعبر قبة السماء. ومع

ذلك، فإنه منتظمٌ في الواقع أكثر ممّا قد يبدو ظاهرياً. لقد عمل فرجار الرياضي في تخطيطه أكثر ممّا عملت عبقرية الفنّان في تنفيذه. لكنّ خطوطه كثيرةٌ جداً، وتركيبها يتغير بسرعة كبيرة، حيث لا تستطيع فهم المخطط إلا بعد دراسة وصبر طويلين.

يعود الزليج azulejos الذي يواجه الجدران إلى زمن كارلوس الخامس (شارلكان). وفي مركز القاعة يوجد الحوض الرخامي الذي وقعت إلى جانبه مذبحه بني سراج حسب ما تدّعيه الرواية.

قبالة هذه القاعة، في الجانب الشمالي من بهو السّباع، هناك قاعة سالاد دي لاس دوس إرماناس Sala de las Dos Hermanas (قاعة الأختين)، سمّيت هكذا، بعد إدخال بلاطتين رخاميتين مزدوجتين في الأرضية. وتسمح قنطرة باهرة بالدخول من البهو إلى دهليز ضيق يتصل من جهة اليمين بالطابق العلوي، وبالنافذة النّاتئة أو الشّرفة الشّبكية، والتي من خلالها تجول نساء الحريم بطرفهنّ إلى البهو في الأسفل. والقاعة غنية، أنيقة، توحى بالتّرف الشّرقى والاسترخاء كتلك التي تركناها للتو. وفي كل جدار فتحة مقنطرة، وفتحتان كمداخل، والبقية تؤدّي إلى المُمختليات أو المقاصير النّائية أكثر من باقي أجزاء الحَمراء. وفوق كل قنطرة نافذة متناظرة مع الشّقق في الطّابق العلوي قد تلاشت الآن. يبدو السّقف بالتركيب المدهش ذاته للأشكال الهندسية، نفس التناظر المشوّش الذي يُرى في قاعة بني سراج Sala de las Abencerrages. وفي الحقيقة، تعتبر هذه القاعة بشكل عام (وليس ككلّ) الأروع بين الاثنتين، فلقد أخفي سطح الجدران تحت منحوتات نافرة ثمينة من الجصّ والزليج azulejos. وثمة كتابات فوق الميداليات السّت عشرة والأطر المزخرفة Cartouches قد حُلت رموزها في قصيدة طويلة من قبل ابن زمرك Ibn Zamrek نُظمت على شرف محمّد الخامس، وترجمت في 11 أبيات إسبانية verses من قبل فاليرا Valera. بيتٌ واحد منها يجلب انتباهنا: «انظر بتمعن إلى أناقتي واجن فائدة من تلك الحُلل، هنا أعمدة تزدان إلى حدّ الكمال، جمالها مضربٌ للمثل».

احتوت تلك الشّقة الرّائعة على آنية زهور شهيرة: «إل خازون» (el jarron)، قيل بأنّها اكتُشفت في إحدى الغرف الأرضية للقصر وكانت مليئة بالذهب. وهي الآن في متحف الحَمراء الصّغير. هذه الآنية، التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، قد طُليت بالميّنة بشكل جميل بالأبيض، والأزرق، والذهبي، وقد وصفها البارون دافقيه Baron Davillier في كتابه عن الخزف الإسباني.

وراء قاعة الأختين شقّة طويلة وضيقة تُدعى (سالاد دي لوس أخيميثيس) Sala de los Ajimeces (قاعة النّوافذ المزدوجة)، لكن سقّفها وزخرفاتها لا تضاهي تلك الموجودة في القاعة الأكبر. وتنتفح على الجانب الشمالي ميرادور دي لينداراخا Mirador de Lindaraja، أو حجرة المشهد، لتطلّ على مشهد خلّاب للحديقة في الخلف.

يفوق هذا القسم الصّغير الذي لا تتجاوز مساحته 15 × 10 قدماً كل أجزاء القصر في غنى تفاصيله وزخارفه. في أيام العرب كان بوسع السّلاطين أن ينظروا من خلف شبكيات النّوافذ الثّلاث نحو المدينة وسهل ألفيغا Vega. وعندما تملّ أعينهم من المشهد يقرأون الشّعر الوفير المكتوب على الجدران.

بالعودة إلى بهو السّباع، ندخل من طرفه الشّرقى، سالاد دِل تريبونال Sala del Tribunal أي قاعة القضاء، أو سالاد دي لا خوستيثيا de la Justicia أي قاعة الشّريعة (العدل)، التي تتألّف من

سبع حجرات مفتوحة على ردهة عامة. والغرف الأربع الصغيرة مربعة، تفصلها ثلاث شقق مستطيلة أكبر. الألوان البهية ذاتها، والإسراف عينه في الزخرفة الهندسية، هنا كما في أي مكان آخر في الحمرء! أما القنطرة فوق الحجرة المركزية الصغيرة أو الديوان فربما تكون الأروع في القصر بكامله. ولكن ما يجعل هذه القاعة الأكثر تميزاً في القصر هو أنها تحوي ربما النماذج الوحيدة للفن التصويري الإسلامي في العصور الوسطى. فسقف المٌختلى الرئيسي أو المقصورة قد زُخرف بلوحة تمثل عشر شخصيات يُفترض أنهم قضاة سابقون. ولذلك أعطي الاسم للقاعة. والأرجح أنهم يمثلون السلاطين العشرة الأوائل لسلالة بني نصر الحاكمة. والصورة مثل باقي القباب الأخرى، نُفّذت بألوان ساطعة (ذهبي، أخضر، أحمر.. الخ). على جلد محضّر مع خليط الجبس. تبدو التّصاميم وكأنها حُطّطت بالبني. واللوحات في المٌختليات الأخرى أو المقاصير ذات مواضيع أكثر تشويقاً. ففي الأولى، تُشاهد قلعة مع ميدان أبراج وشرفات، وفي خارجها يوجد أسدٌ يُسحب بسلاسل بيد فتاة، وقد أمسك رجلٌ ذو شعر أشعث ولحية يديها بوحشية. ويهبّ لمساعدتها منقذٌ في شخصية فارس مسيحي، مسلّح من رأسه حتى أخمص قدميه. في الجانب الآخر من الصورة، يظهر نفس الفارس وقد هُوجم من قبل فارس عربي، يسدّد رمحاً في صدره. والعربي كان خارجاً للصّيد، إذ بدت كلابه وهي تطارد الخنزير البري والثعلب في أسفل المشهد تحت أحصنة المقاتلين. ومن أبراج القلعة ظهرت سيدتان جميلتان تستمتعان بمنظر المسيحي المهزوم بسعادة واضحة. وفي جزء آخر من اللوحة يظهر الفارسان كلاهما وهما يلاحقان الطريدة، ويُرَى غلامٌ الفارس مستنداً إلى شجرة ومعه سيفٌ وترس، من المحتمل أنه كان ينتظر عودة سيده.

خُصّصت للوحة الثانية بشكل كامل لمشاهد الصّيد. ويظهر العرب وهم يطاردون الخنازير البرية، بينما شغل المسيحيون أنفسهم بالذبّية والأسود. يظهر الصّيادون أيضاً وهم يعودون ويقدمون غنائم الصّيد إلى سيداتهم. يُحيّي العربي سلطانه بكبرياء معتدلّ ومهذّب، بينما يركع المحارب المسيحي أمام سيّدته ليقدم غنيمته.

توصّل أكثر النقاد كفاءة إلى نتيجة مفادها أنّ هذه اللوحات هي من القرن الرابع عشر، ولذلك فقد أنجزت في عهد الملوك المسلمين الذين تجاوزوا نواهي القرآن. وليس من السهل الجزم بأنها من عمل المسلمين. أشار غايانغوس Gayangos إلى تشابه ملحوظ بين هذه اللوحات وتلك التي في الكامبو سانتو Compo Santo في پيزا Pisa، وفي المجلد فإنها كلّها على الأغلب قد أنجزت من قبل فنان إيطالي، لم يتردد المسلمون في توظيفه لإنجاز فنّ يُعتبر غير شرعيّ عندهم. وهناك مثال آخر مشابه يخصّ يهود لندن، الذين في أعياد معينة كانوا يوظفون المسيحيين ليؤدّوا ما يحرمه دينهم. كما ينبغي التّنويه إلى أنه برأي بعض الباحثين المسلمين المعاصرين لا يُعدّ النحت والرسم من المحرّمات المطلقة.

كانت في قاعة الشريعة (العدل) Sala de la Justicia بركة للوضوء، هي الآن في المتحف. وعليها منحوتات نافرة جميلة لأسود، وغزلان، ونُسور. ووفقاً للكتابة، فقد صُمّمت في العام 1305 لخدمة المسجد، وحقيقة تبدو أنها تدعم وجهة نظر الباحثين التي ذكرناها للتوّ.

وفي تلك القاعة أمر فرناندو وإيزابيلا بإقامة قدّاس للاحتفال بعودتهما إلى العرش، وهنا رُفع الصليب بيد الكاردينال مندوثا Mendoza. أمّا شعارات ملوك الكاثوليك - النير Yoke وجعبة السهام

- فقد أدخلت في زخرفة المُختليات أي المقاصير.

أما البرج المتهدّم والشقّة الواقعة إلى جنوب قاعة القضاء التي تُدعى الرّوضة Rauda فيبدو أنها ضريحٌ للسلاطين. والكوّة التي وُضعت فيها التُربة، ما زالت موجودة، وكذلك الحوض الضيّق الطويل المستخدم في غسل الجُثمان. يمكننا في المتحف مشاهدة ثلاث ألواح تحتوي على نقوش تذكارية لأضرحة السلاطين يوسف الثالث، ومحمّد الثاني وأمير يدعى أبو الحجّاج، وهو ابن الأخير غالباً.

من الشقّق القليلة المتبقّية في الحَمراء، وربما الأكثر أهمية شقّة التوكادور tocador، أو غرفة ملابس الملكة الواقعة إلى جانب الباتيو دي لينداراخا Patio de Lindaraja، مقابل غرفة المشهد Mirador de Lindaraja. أقام في تلك الشقّة واشنطن إرفينغ Washington Irving، وحسب رؤيته الشخصية: «خلال إقامتي في الحَمراء، كانت نهاية جناح ذي غرف فارغة من الفن المعماري الحديث مخصّصة لإقامة الحاكم، قد أعدت لاستقبالي. كانت مواجهة للقصر... وكنت مستاءً لكوني أودعت في شقّة حديثة... وجدت، في رواق بعيد، باباً يتصل ربما بشقّة واسعة مقفولة أمام العموم... ومع ذلك، حصلت على المفتاح دون مشقّة فُتّح الباب على عدد من الحجرات الشاغرة كلها من الفن المعماري الأوروبي، على الرّغم من أنها بُنيت فوق قنطرة عربية.

... هذا الجناح الخيالي من الغرف انتهى إلى ردهة مفتوحة بدرابزينات، نُصبت على زوايا قائمة مع جانب الحديقة... وجدتُ بأن تلك الشقّة قد أعدت زمن فيليب الخامس والجميلة إليزابيت دي پارما Elizabeth de Parma اللذين حلّا ضيفين على الحَمراء. وقد خصّصت للملكة ووصيفاتها إحدى أكثر الحجرات ترفاً هي غرفة نومها، وسلّم ضيق يخرج منها... يفتح على منظر بهيج، وقد كان في الأصل شرفة السلطنة العربية، التي لا تزال تحتفظ باسم توكادور Tocador. قرّرت في الحال أن تكون إقامتي في هذه الشقّة، وسبّب قراري مفاجأة عظيمة، لكنني لم أتحوّل عن قراري».

هذه الشقّة الفاتنة قد زُيّنت بأربع لوحات من القرن السادس عشر، تمثّل أسطورة فايتون الإغريقيّة Phaeton. على سقف الأرتيسونادو artesonado المطلي والمذهب، يمكنك قراءة الدّعاء: «مولانا أمير المسلمين، السلطان المجاهد العادل أبو الحجّاج يوسف، ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس، أبي الوليد بن نصر، كافي الله في الإسلام... جعله الله عزّة وافية وكتبه في الأعمال الصّالحة الباقية». وحول المخدع رُدهة من تسع قناطر على أعمدة عربية، طليت وزُخرفت بصور تمثّل: الإيمان، الأمل، الإحسان، القضاء، القوّة، ضبط النّفس، المشتري، نبتون، الوفرة، نار العذراء فيستا. وتلك اللوحات من عمل فنّانين إيطاليين هما: جوليو آكويلا Giulio Aquila وساندرو ماينيره Sandro Mainere، اللذين كانا من تلاميذ رافاييل Raphael.

تبيّن أن الحديقة الصّغيرة السّاحرة أو رُدهة المشهد Patio de Lindaraja أو Daraja التي تتخلّل المخدع الفخم والشّرفة البارزة العربية mirador كانت في الأصل تدعى Jin Dar Aja أي: «جنان دار عائشة». والحديقة العربية القديمة التي امتدّت حتى برج فُمارش Torre de Comares قد سُورَت الآن بأسوار صالة النّوافذ المزدوجة Sala de las Ajimeces وثلاث قناطر من البناء الحديث. ويعود تاريخ النّافورة في المركز إلى القرن السابع عشر. وهي بقعة ساحرة، بسروها، وشجر برتقالها، وشجر اللّيمون الذي يرتفع من سياج أشجار الأّس العطري والورد.

بين هذه الحديقة وقصر البركة Alberca تمتد الحمامات - وهي ملاحق أساسية للدار الإسلامية - وقد رُممت بكل براعة وبشكل فني على يد كونتريراس Contreras. والتصميم هو المُتبع عادةً في كل مكان في الشرق. مروراً عبر سالا دي لاس كاماس Sala de las Cámas أو غرفة تغيير الملابس، حيث تتبع أغاني المحظيات من رواق عالٍ وحتى الأسفل حيث يتكئ السلطان في إحدى المُختليات أو المقاصير، تدخل إلى قاعة الحمامات (سالا دي بانيوس) Sala de Baños، بحمامها الرُخامي الأبيض وأرضيتها من الأجر اللّماع. تسمى تلك الغرفة لدى العرب بغرفة الحرارة، أو حمّام البخار. وقد وصفها إدوارد لاين Edward Lane في كتابه «عوائد المصريين المعاصرين وسلوكياتهم»، وتقع تحت القناطر الجميلة التي تدعم القبة التي يخضع فيها المستحمون إلى عمليات التّدليك والفرك التي وصلت مؤخراً إلينا. وأضيئت الحجرة من الأعلى عبر فتحات على شكل نجوم، كما تشير الكتابات إلى الهناء الذي يترقبه الرجال في قصر البهجة هذا. وتتألف شقق الاستحمام من ثلاث قاعات وحجرتين صغيرتين، تدعى بالعامية حمّامات الأميرات Infantas.

أبراج قصر الحمراء وبواباته

يكتب السنيور فرناندث خيمينيث Señor Fernández Jiménez: «سور النّصريين بقيت منه بدنة لم تتلف عرضها حوالي 1400 متر من طرفها الأول إلى الآخر، ويحميها 26 برجاً، اعتبرت الدعامتان كدعامة واحدة فقط تحمي بوابة الطّباق السبعة Siete Suelos. وإلى هذا العدد من الأبراج يجب أن يضاف بُرج السّلاح (تورّه دي لاس آرماس) Torre de las Armas، الذي اخترق ببوابة مشتركة للقصبة Al Cazaba والحمراء، وهو أيضاً من عمل بني نصر. حُصّنت القلعة علاوة على ذلك بخمسة معازل، وبوابات كثيرة، ومحميات خارجية عديدة، ما تزال آثارها في بقعة السرو alamedas الحديثة. وتتفاوت سماكة الأبراج وفقاً للموقع والهدف، تتراوح المسافة بينها بين 34 إلى 64 متراً تقريباً».

في يومنا الحالي نستطيع احصاء 15 برجاً فقط، أسماؤها:

La Justicia, Las Cabezas, Los Siete Suelos, Las Aguas, Las Gallinas, Las Armas, La Vela, Los Hidalgos, La Polvora, De la Cautiva, Del Candíl, Los Picos, Las Damas, Las Infantas, Los Puñales

وباب الشريعة (پويرتا دي لا خوستيثيا) Puerta de la Justicia هو المدخل الرئيسي إلى الحمراء، بناه كما تروي الكتابات فوق القنطرة، السلطان يوسف أبو الحجاج في عام 1348. وكان القضاء هنا في أيام العرب يتبع نظام المشيخة القديمة. فوق القنطرة نُحتت يد مفتوحة، ومعناها محط جدل. التفسير المرجح هو أنها رمز ديني، تمثل الأصابع الخمسة أركان الإسلام: شهادة الإيمان بالله ورسوله، الصلاة، الصوم، الزكاة، والحج إلى مكة. زُخرفت القنطرة الداخلية بشكل جميل بالفن العربي (الأرابيسك) ويرمز المفتاح. يستمر المدخل عبر بوابة أخرى، مع ممرات مُلتوية صُنعت على هذا الشكل لإرباك العدو. ويظهر على القنطرة التي توفر مخرجاً من البرج بعض الطلاء من المينا الرّائع، والزّخارف التّرينية.

مباشرة خارج هذه البوابة هناك عضادة كارلوس الخامس (شارلكان) Pilar de Carlos v، وهي نافورة على الطراز الروماني - اليوناني شُيّدت بأمر الحاكم مندوثا Alcaide Mendoza عام 1545.

وُزِّيت بالأسلحة الامبراطورية، ورؤوس (آلهة الأنهار) شنيل Genil، وحدره (دارو) Darro ، وبيرو .Beiro.

أما برج الطِّباق السَّبعة Torre de los Siete Suelos المزدوج فيقع على جانبي مدخل هو الآن مسدود، وكان في السَّابق المدخل الرَّئيسي إلى الحصن. قيل إنَّ «أبو عَبدِيل» Boabdil (أبو عبد الله الصَّغير) سيء الحظ قد مرَّ عبره في طريقه إلى المنفى. سمِّي البرج هكذا لأنه يُعتقد بأنه يتحدَّر نزولاً بسبعة طوابق تحت الأرض. ولقد استقصيت أربع حجرات سفلية. وهنا تقول الرِّوايات الشَّعبية إنَّ المكان خُصَّ للكنوز الدَّفينة. وتروي الأساطير عن حراس غير مرئيين وآخرين سحريين.

عند الرِّواية الجنوبية الشَّرقية للسَّور هناك برج الماء Torre del Agua المتهدَّم، والذي يشتقُّ اسمه من القناة التي تنبثق عند تلك النِّقطة من الوهد. وعلى الجهة الشَّمالية الشَّرقية نصل إلى برج الأميرات (تورَه دي لاس إنفانتاس) Torre de las Infantas، وداخله نموذج كامل للبيت الشَّرقي الصَّغير. عبر رُدهة صغيرة نصل إلى فناء مغطى مع بركة في المنتصف، ومُختلِّيات أي مقاصير مفتوحة من ثلاث جهات. والزَّخرفة جميلة وأصيلة. والبرج هو واحد من أجمل أقسام الحصن. أما البرج المجاور ويدعى برج الأسيِّرة، فالى حدِّ ما أقلَّ كمالاً وانتظاماً في تصميمه، ولكنه زُخرف بشكل أنيق بألواح الأجر الوردي اللون. تمجَّد الكتابات هنا أبا الحجاج وتشير إلى الأسد المقيم داخل هذه الأسوار، لكن ذلك - ليت شعري - لا ينطبق على وصف الأسيِّرة!

يبدو برج الآكام (الدُّرى) Torre de los Picos قد صُمم هكذا، من الفتحات التي تتوجُّ ذروة الحصن. ولكنه خضع بشكل واضح لإعادة تصميم واسعة زمن الفتح الإسباني. إلا أن آثار الحكم النَّصري بقيت في شكل بعض النِّوافذ المزدوجة المنحوتة بشكل جميل.

أما برج إسماعيل Torre de Ismael، أو de las Damas (برج السِّيدات) فقد وهبه محمَّد الخامس إلى ابنه إسماعيل، وفيه شرفة belvedere مزينة بوفرة، وقاعة قد زُخرفت بذوق رفيع جداً. وفي برج پونيالس (الخناجر) Puñales المتهدَّم تزيينات جصية غريبة، تختلف عن تلك الموجودة في أقسام أخرى من القصر.

وبين برج الآكام (الدُّرى) Torre de los Picos وبرج السِّيدات de las Damas محرابٌ صغير بُني على الجدار. خُصَّ زمن الفتح الإسباني للاستخدام الشَّخصي لشخص هو أستاسيو دي براكامونته Astasio de Bracamonte. وعلى الرَّغم من أنه خضعت لترميم يرثى له، فالقبلة Kiblah أي المحراب الشَّرقي ودلالات أخرى للمذهب الإسلامي لا تزال ملحوظة. وأغرب ما في الأمر أنَّ المدخل قد حُرس بأسدين عربيين جُلبا من دار سكِّ العملة القديم. فيبدو أنَّ وصايا الدِّين الإسلامي قد تم تجاهلها حتى في المصلى ذاته!

بُنيت أبرشية كنيسة القديسة مريم Santa Maria، في عام 1581، وتحتلَّ موقع الجامع الذي كان يظهر فيه [لسان الدِّين ابن] الخطيب مُشيداً بماثر محمَّد الثالث (1302-1309) إذ كتب: «وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحَمراء، على ما هو عليه، من الطُّرف والتَّجديد، والترقيش، وفخامة العُمد، وإحكام أنوار الفضة، وإبداع ثريَّاتها، ووقف عليه الحَمَّام بإزائه وأنفق فيه مال الجزية، وأغرَمها لمن يليه من الكفار».

أما الكنيسة الحديثة فمبنية بالقرميد، ولا تحتوي شيئاً ذا أهمية، باستثناء نقش فيزيقوتي Visigothic، يشير إلى بناء المعابد الثلاثة، التي كُرسَت للقديس يوحنا St. John، والقديس إسطفان St.

Stephen، والقديس فيثنته St. Vincent في العامين 594 و607.

قصر كارلوس الخامس

إنّ القصر المهجور، المبني على الطراز التلقيدي دون سقف، والذي بُني في غير موضعه بين هذه المباني الشرقية، قد أسس بأمر من الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) في عام 1538، ولم يكتمل أبداً. ويبدو أن هدف هذا القيصر الفلمنكي كان إقامة مسكن دائم هنا، يستطيع من خلاله أن يتأمل جمال القصر العربي. والبناء رباعي الزوايا ذو واجهات أربع، ارتفاع كل منها 17 متراً. الطابق الأسفل على الطراز التوسكاني (الإيطالي)، والعلوي على الطراز الإيوني (اليوناني). بعض المداخل الرخامية جميلة الصنع. وتظهر في الزخرفة تلميحات إلى الحملات في البحر والبر، التي قادها الامبراطور، وشعاره Plus Oultre (أكثر بعداً)، أما رمزه فهو الخروف Fleece الذهبي.

داخل القصر مشغول بقاعة دائرية مهيبة، مع رواق مدعم بـ 32 عموداً. صُمم الدرج بفخامة، وبشكل عام لو أن القصر كله قد أكمل وبني في أي مكان آخر، لكان تذكيراً يشاد به لعهد كارلوس.

جنة العريف

عبر وادٍ معرّش بالبلاب ثمة بناءً أخضر وأحمر، هو قصر الاستجمام المعروف بجنة العريف Generalife الذي يشرف على أسوار الحَمراء الضخمة. ويُعتقد بأن الاسم مشتق من Jennatu-l'arif «جنة العريف» أي جنة المعماري. ويبدو أن القصر قد بُني على يد عربي يدعى عُمر، ومنه اشتراه السلطان أبو الوليد. وزمن الفتح الإسباني أصبح مُكاً للأمير المرتد سيدي يحيى، الذي اتخذ اسم دون Pedro دي غرانادا Don Pedro de Granada، وأحفاده آل كامپوتيجار Campotéjar هم الملاك الفعليون حتى اليوم.

لا تُعتبر جنة العريف Generalife من الفن المعماري الإسلامي الأندلسي المهمّ. عبر فنائها الرئيسي، الذي يبلغ 34.70×12.80 متراً، تمرّ القناة التي تروي قطعة الأرض بأكملها، وتتصل بالسقيّة Acequia أو قناة الحَمراء. أما الواجهة الجنوبية المقنطرة والقاعة الواسعة المجاورة فقد عُدلت من أجل إنشاء رُدهة كبيرة. ويشبه الرّواق المقنطر ذلك الذي في بهو «بركة السمك» وعليه كتابة شعرية تشيد بأن أبو الوليد رمم القصر في السنة 1319.

وقاعات جنة العريف Generalife بحدّ ذاتها قليلة الأهمية، وتحتوي على عدّة لوحات يُشكّ في أنها حقيقية. أهمها لفرناندو وإيزابيلا، وخوانا لا لوكا Juana la Loca وزوجها، والزوجة الرابعة لفيليب الثاني. وبين لوحات عائلة غرناطة لوحة يُفترض أنها لابن هود المتوكّل، غريم الأحمر وسلف سيدي يحيى. وتلك هي اللوحة التي يُصرّ الرّجالون الإنكليز عن طريق الخطأ على أنها تمثّل «أبو عبدل» Boabdil.

لكن إذا كان القصر غير جدير بالأهمية، فإنّ الحقائق آية في الجمال والبهجة. فنوافير الماء ترتفع عالياً في كل مكان وترطب جذور الأس العطري، والأرز، والسرو الطويل، أروع شجر في إسبانيا بأسرها. كشفت أسطورة عن ابن سراج Abencerrage في موقف مداعبة مع السلطانة، تحت إحدى أشجار السرو، وليس لذلك أساس من الصحة. هذا على الرغم من أنّ طبيعة المكان هي أنسب مكان يتخيّله المرء لالتقاء المحبين كما توحى القصة.. لكن الحديقة مهملّة، وكثير من الأشجار الرائعة قد قُطعت.

* * *

إنّ الصّروح التي بقيت إبان السّيطرة العربية في مدينة غرناطة نفسها قليلة، وقد اختفت بسرعة. وفي سوق السّقطيين Zacatín، الذي كان في الزّمن القديم السّوق الشّرقى الرّئيسى، يوجد بناء كان يلقب سابقاً بكاسا دل غايو دي بيينتو Casa del Gallo de Viento (بيت ديك استشعار الطّقس) ويُعرف الآن بكاسا دل كاربون Casa del Carbón (بيت الفحم)، وذلك بسبب تحويله إلى مخزن لتلك المادة المفيدة. تؤكّد المرويّات الشّفهية بأنّ القصر (لأنه كان قصراً في زمن ما) قد بُني من قبل باديس بن حبوس Badis Ibn Habus حاكم غرناطة، الذي حكم حوالي عام 1070 بعد الميلاد، والذي بتوجيهاته صُنعت دوّارة تدلّ على اتجاه الرّياح بشكل محارب على مطيّة ومسلح بترس ورُمح. ثم فيما تلا من سنين استُخدم البناء كمركز لتجارة الدّرة. وأهم ما يستحقّ الذّكر فيه مدخل مع قنطرة على شكل حدوة، ونوافذ مزدوجة. ورُدهة مع قبة ومقصورة. إلى جانب الكاسا دل كاربون Casa del Carbón منزل الدّوق أبرانتيس Duque de Abrantes. وقيل إنّه يوجد بأسفله ممرّ يتّصل مع الحَمراء - وهو مسدود الآن، وهذا أمر غريب، من قبل المالك الحالي للموقع، دون أي استكشاف أو فحص.

أمّا الحَمّام العربي الذي كان فخماً فيما مضى فتدخله من مجرى نهر دارو Carrera de Darro، وهو الآن في آخر مراحل الخراب والإهمال. ويُعتقد بأنه يعود إلى الفترة الأولى لحكم المسلمين. القناطر على طراز الحدوة القديم، والأعمدة وتيجانها من الطراز العتيق البدائي. والكتابة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ما تزال واضحة.

الحَمّام نفسه، مع الحجرات المتنوعة للاسترخاء وتغيير الملابس، والمقاصير alhamies المألوفة، ما تزال موجودة. أما دار سكّ العملة العربية القديم فقد هُدمت عام 1643، وبوابة «باب الرّملة» Bivarrambla الشهيرة لا يمكن بعد الآن أن توصف بأنها عمل إسلامي.

إنّ طمس الشّخصية العربية لغرناطة، مقارنةً مع خلودها في إشبيلية، مثالٌ جليّ يصلح لإظهار كيف أصبحت النّزعة الدّينية والعنصرية شديدة في إسبانيا خلال المنّتي سنة ونيّف التي انقضت بين فتوح المدينتين. وإنّ الرّوح التي تعامل بها كلٌّ من فرناندو St. Fernando، وألفونسو إل سابيو (العالم) Alfonso el Sabio، ويدرو الأول Pedro I مع أعمال خصومهم المسلمين ورعاياهم، تمثّل تبايناً واضحاً مع ما أظهره الملكان الكاثوليكيّان كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثاني.

غرناطة الكاثوليكية

إنَّ أوَّل عمل يقوم به ملك إسباني لدى دخوله إلى مدينة مسلمة مفتوحة هو أن يحوِّل المسجد (الجامع) الرَّئيسي فيها إلى كنيسة مسيحية. وهذا ما حدث أيضاً في غرناطة، لكن مصلى الحَمراء بقي لبعض الوقت كاتدرائية الأبرشية الجديدة. أما الجامع في المدينة، فقد رُفِع إلى تلك المرتبة فيما بعد، ولقد وُصف من قبل الأسقف بيرتو من روان Abbé Bertaut of Rouen (نقله فَايَادار Valladar)، الذي كتب سنة 1609: «إنه مربَّع وطويل أكثر منه عريض، لا توجد فيه قناطر والسَّقْف مغطى بالقرميد، وفي جزء كبير منه لم يكن مترابطاً حتى. وقد دُعم الكل بعدد من الأعمدة الحجرية الصَّغيرة، المرتبة بتناسق». يقول خوركيرو Jorquera إنَّ المسجد كان يتألف من خمسة صحنون منخفضة. وسواءً كان أم لم يكن أصلاً كنيسة فيزيقوطية، كما يزعم بعض الكتاب، فتاريخ يعود المعبد على الأغلب إلى القرون الأولى للفتح الاسلامي، والبرج الذي يحوي المحراب قد اشتهر لوقت طويل باسم برج توربيانا Torre Turpiana.

بعد أن استُخدم البناء للمذهب الكاثوليكي لمدة قرنين، اختفى ما بين 1705 و1759 لتحلَّ محله غرفة المقدَّسات الحالية. وككاتدرائية، ألحقت بالبناء القائم المجاور، وكُرِّست كذلك في 17 أغسطس 1561.

وقبل حوالي ربع قرن من تأسيس الكاتدرائية كانت توجد الكاپيَّا ريال Capilla Real، أي الكنيسة الملكية، وتُعدُّ التذكار الأهم والأخاذ لفتح غرناطة. أنشئت عام 1505 ككنيسة للملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا، بتوجيه من إنريكه إيغاس الشَّهير Enrique Egas، وتمَّ بناؤها عام 1517 - أي بعد وفاة الملك بسنة وبعد وفاة الملكة بـ 13 سنة. صُمِّمت الكنيسة على هيئة صليب لاتيني، وهي إحدى النماذج الأخيرة للطراز القوطي الإسباني. والبناء معتدل نسبياً وبسيطاً، يتباين بقوة مع الأبنية المزخرفة والمتقنة للعصر اللاحق. تتألف زخرفة الدَّاخل بشكل كامل تقريباً من إفريز يحمل كتابة طويلة بأحرف مذهبة تقول: «هذه الكنيسة أمر ببنائها الكاثوليكيان المعظمان دون فرناندو ودونيا إيزابيلا Don Fernando y Doña Isabel» الخ... الخ... وثمة تأثير قوطي في الدرابزين الرَّائع، أو القضبان المتصالبة، المكونة من الحديد في قسم، ومن الذهب في قسم آخر. وهي تفصل صحن الكنيسة عن جناحها، وقد صُنعت عام 1522 على يد المعلم بارتولومه Maestre Bartolome. وتُشاهد صورتا الملكين الكاثوليكين على جانب من المذبح العالي. وهي، كما يقول فورد: «جديرة جداً بالاهتمام، كونها تصاوير دقيقة لوجهيهما، وشكليهما، وزِيَّيهما: خلف فرناندو Fernando تظهر راية قشتالة الظَّافرة، والهدف الذي من أجله عاشا وماتا كلاهما: الانتصار على المسلمين Moros وهداية الكفرة - متجسدة تحتها في نحت ملون فريد، يُعزى إلى فيليبي بيغارني Felipe Vigarny، وهذا ذو قيمة أثرية عالية جداً. وفي استسلام الحَمراء، نُصِّور إيزابيلا وهي تمتطي جوادها الأبيض الصَّغير بين فرناندو والكاردينال مندوثا Mendoza الكبير، الذي يجلس فوق بغله المُجمَل مثل وولزي Wolsey. هو وحده يرتدي القفازات، ووجهه التَّحيل يتباين مع بدانة الملك والملكة. يفتح يده ليأخذ

المفتاح، الذي يقدّمه له أبو عبد الله (أبو عبدل) Boabdil المترجّل مُمسكاً به من أعلاه. وفي الخلف ظهرت السيدات، والفرسان، وحاملو الحراب والفؤوس الحربية، بينما خرج الأسرى من البوابات بالأزواج. ولا يوجد ما يفوق هذا المشهد أهميّة في إسبانيا. ويصور المنحوت البارز الآخر «اهتداء الكافر» الجمهور المقهور وهو يخضع قسرياً لمراسم التعميد بالجملة، الأشخاص الأساسيون يتحوّلون إلى زُهبان حلقي الرأس. أمّا الوشاح وأغطية أرجل النسوة (ال fasciae الرومانية) فما زالت تُلبس في تطوان حتى اليوم.

تعتبر تلك المنحوتات النافرة دون شك أكثر قوّة وفنّاً، وفي تناسق أكثر مع البناء بشكل عام، من منحوتات القبور البهية في عصر النهضة لفرناندو وإيزابيلا - التي أنجزها النحات الإسباني بارتولومه أوردونييث Bartolome Ordoñez، على الأغلب. حيث يظهر الملكان العظيمان مستقلّين جنباً إلى جنب، ويُعبّر وجههما عن وقار وهدهد لا محدودين. وعند كل زاوية من الصّريح يوجد أحد المطارنة الأربعة للكنيسة وتحتهم ظهر تمثال نصفه إنسان ونصفه أسد. كما توجد ميداليات على جهتين فقط من أربع جهات تمثّل على التّوالي التعميد وقيامّة المسيح، والقديس جرجس والقديس خايمي (يعقوب). وقد أنجزت أشكال الحواريين الاثنى عشر بشكل جميل، وكذلك درع النبالة، وفي الحقيقة فإن كلّ تفاصيل هذا التذكّار فخمة ولكنها غير معبّرة.

ضريح ابنة فرناندو وإيزابيلا المجاور هو للملكة المنكودة خوانا Juana، وزوجها فيليب الأول الوسيم، وهو أقلّ شأنًا من ناحية التّصميم والتّنفيد. ورؤوس الأشخاص المتكئة لا تتقلّ سماتهم الحقيقية، وتُمثّل المنحوتات النافرة ميلاد المسيح، وحكاماء المجوس يحملون الهدايا إلى المسيح عند ولادته، وحقل الآلام، والدّفن. وفي الكوى صور عن فضائل الكادرينال (التي لم تكن من خصال فيليب)، وفي الزوايا تماثيل القديسين ميخائيل، جرجس، أندراوس، ويوحنا اللاهوتي. وكم هي جميلة صور الأطفال، وكثير من زخرفة الشّعارات. كل ذلك يظهر في أجمل أساليب ازدهار عصر النهضة، وتمّ نحته في جنوة بأمر من ابن خوانا كارلوس الخامس (شارلكان).

وتختلف المراقد الحالية للملوك المخدّة ذكراهم بشكل رائع بالحجر في القسم العلوي. ونزولاً إلى سرداب ضيق تحت القبور نجد خمسة توابيت ذوات أشرطة حديدية. في هذا الموضع يستريح رُفات فرناندو وإيزابيلا، وخوانا وفيليب، وابنهما الأمير خوان. يُعرف تابوت فرناندو من حرف (F). يكتب بي مارغال Pi Margall: «هنا يرقد في الضوء الخافت آباء وأبناء ملوك ثلاث سلالات اتحدوا في أقلّ من قرن من أجل مجد وطن الآباء الأعظم، هنا يرقد آخر أمراء العصور الوسطى، وأولئك الذين افتتحوا العصر الحديث. هنا يرقد الأبطال وآباء الأبطال - ملوك لم يتراجعوا أبداً في وجه الخطر، وملكات نوت حياتهنّ بنار حبّ عميق. مظفّرين عادوا من المعركة، ليجدوا راحة وسعادة بين أيدي حبيباتهم، وأرواح تعسة شربت كأس المعاناة، دون أن تسكر من شدّة الأسى. من منا يستطيع دخول هذه المنطقة المظلمة دون أن يشعر باختلاج عواطفه - دون أن ينحني بمهابة أمام الشواهد التي يغطّي رجالاً أنقذوا الأمم من عبثية الإقطاع؟ وهو يذرف دمعة على تابوت العظيمة (إيزابيلا Isabel)، لا يستطيع أحد أن يكبح لجام أسفه على تلك الملكة التّعيسة (خوانا Juana) التي ثملت من الحب، ممضية الليل تنتظر بزوغ الفجر لكي تسير فُدماً وحدها، حتى آخر أصقاع الدّنيا، باحثة عن زوجها الحبيب، فلا تترك تابوته حتى يغلق القبر عليه؟».

نترك هؤلاء العظماء والتّعساء من عصر أفل، رحلوا إلى العدم في قصرهم المعتم الأخير، لنصعد إلى الكنيسة. وليس هناك الكثير لنراه. في غرفة المقدّسات حُفظ تاج الملكة الكاثوليكية

وصولجانها، وسيف فرناندو، وبعض الأتواب القوطية الفاخرة. وفوق مذبح على الجانب الجنوبي هناك مشهد يمثل «التزول عن الصليب» وعنه يتحدث Ford بتبجيل. تتصل الكنيسة الملكية مع الكاتدرائية بمدخل فخم من الطراز القوطي القديم. وزُيّنت الأعمدة على كل جانب بتماثيل لملوك مع أسلحتهم. وفوق المدخل تمثال نسر يرفع أسلحة إسبانيا. شعارات النبل، رموز دينية، ومنحوتات نافرة لقسيسين وملائكة قد امتزجت في الزخرفة، الجميلة وغير المبالغ في صنعها.

أما الكنيسة الملكية، فمع أنها تشكّل معمارياً جزءاً من بناء الكاتدرائية، فإن لها تنظيمًا كنسيًا مستقلاً، برهبانه ورجال الدين. وقد سُجّلت مشاهد طريفة تدلّ على علاقة لا تتّصف بالودّ كانت تدور بين كهنة الكاتدرائية والقساوسة الملكيين. هذه العداوة (كما يقول فايّادار Valladar) وصلت ذات مرة إلى أقصى حدّ عندما عبّر رئيس الأساقفة كارّيو دي ألدريته Carrillo de Alderete عن رغبته في زيارة الكنيسة مع كهنته، فرفض القساوسة إدخالهم. ووفقاً لذلك، دعا رئيس الأساقفة إلى اعتقال الكهنة، وتبع ذلك دعوى قضائية طويلة. للقساوسة حق المرور عبر جناح الكاتدرائية إلى پويرتا دل پردون Puerta del perdón أي باب الغفران، الذي هو المدخل الرسمي إلى الصّريح الملكي - وهو امتياز يبدو أنه أفاض الكهنة. غريبة تلك الشّجارات المضحكة التي تحدّث في زمن يشهد أعظم أحداث تاريخية يسجلها التاريخ الوطني. ما بين السّمو إلى المهزلة هنالك خطوة واحدة فحسب!

الكاتدرائية

بُنيت كاتدرائية غرناطة مجاورة ومتّصلة بالكنيسة الملكية وغرفة المقدّسات، أو الجامع القديم، بين عامي 1523 و 1561. لقد كان كارلوس الخامس (شارلكان) يفضّل الطراز القوطي، ولكنه أخيراً وافق على اختيار تصاميم ديبغو دي سيلوه Diego de Siloé. يصف Ford الكنيسة كواحدة من أروع الأمثلة للطراز اليوناني الرّوماني، لكن المخطّط قوطي بشكل واضح، ولا يستحقّ الصّرح عبارات التّفخيم التي تقول: إنه «أعظم معبد في أوروبا بعد القاتيكان». فهو مؤثّر في صرامته واتساعه، ويمكن وصفه بأنه مهيبٌ أكثر منه جميل.

والواجهة، التي قيل بأنها صُمّمت من قبل ألونسو كانو Alonso Cano، أحيطت ببرجين (أحدهما لم ينته) مقسمين بأربعة أعمدة حجرية ضخمة تدعم إفريزاً. وترتكز عليه أربع دعائم، تحمل ثلاث قناطر مظلمة وعميقة. وعند أسفل هذه الدّعائم، على الإفريز هناك تماثيل للحواريين. وقد زُخرف الباب الرّئيسي بنُحوت نافرة تصوّر تجسّد المسيح أنجزها ريسوينيو Risueño، كما زيّنت الأبواب الجانبية بنُحوت نافرة لعيد البشارة وارتقاء مريم العذراء. ويرتفع البرج على اليسار 75 متراً فوق مستوى السّطح الحالي. ومنصاته الثّلاث تتبع على التّوالي الأنواع الثّلاثة لطراز الفن المعماري الإغريقي المعروف.

وتختفي جدران الكاتدرائية، إلى حدّ كبير، كما هو الحال غالباً في القارة الأوروبية، بأبنية محاذية. وباب الغفران Puerta del Perdón الذي، كما قلنا، ينتمي رسمياً إلى الكنيسة الملكية، هو تحفة ديبغو دي سيلوه Diego de Siloé. وقد نُحت بإتقان شديد. كما ظهر فوق القنطرة شخصان رمزيان يرفعان لوحاً نُقش فوقه إهداءً إلى الملوك الكاثوليك. أما الأعمدة الجانبية الضخمة للمدخل فقد زُيّنت بشعارات نبالة ضخمة. إنّ إقحام الرّموز والشّعارات في فنّ العمارة الدّيني في غرناطة لا يضاهيه أيّ مثال في مكان آخر.

أما داخل الكنيسة الذي رُصف بالرخام الأسود والأبيض، فمؤلف من خمسة صحن مع قناطر متصالبة على الطراز القوطي، تدعمها خمس ركائز، كل واحدة منها مؤلفة من أربعة أعمدة كورنثية. وترتفع فوق المذبح العالي عند النهاية الشرقية للبناء قبة مهيبه بارتفاع 220 قدماً، تتركز على ثمانية أعمدة، وتفتح بقنطرة رئيسية واحدة بارتفاع 190 قدماً. إن امتداد الكنيسة الرئيسية كائناً مايور Capilla Mayor عند النقطة من وتر الدائرة هو عمل بارع للفن المعماري. يقول لافوينته Lafuente: «إن جراءة القنطرة الرئيسية مثيرة للإعجاب، وطريقة إنجازها تخلق تأثيراً رائعاً: فعند النظر إليها من الأقواس البيضوية تبدو وكأنها تمتدّ وعلى وشك أن تضمر، لأنها تتخفّض تحت مستواها».

والكنيسة الرئيسية بناء فخم زُخرف بإسراف، يقوم على 22 عموداً كورنثياً من طبقتين. وبين الأعمدة السفلية القناطر البيضوية المشار إليها، وعلى الطبقة العليا اللوحات السبع الجميلة لمشاهد من حياة العذراء الطاهرة، التي أنجزها ألونسو كانو Alonso Cano. وبين الطبقتين لوحات جميلة لخوان دي سيقيّا Juan de Sevilla وبوكانيغرا Bocanegra. ونسبة كبيرة من أعمال النحت جيدة، والزجاج المصبوغ المعشق الفلمنكي في النوافذ الأربع عشرة غني بالألوان وقد أنجز بمهارة. أما المذبح العالي بحد ذاته، وهو من عمل خوسيه دي بادا José de Bada، فقد صنّع على طراز قبيح. ولكن رداءته قد عوّضت بتمثالين يمثلان فرناندو وإيزابيلا راعين، على كل جانب قام بنحتهما مينا Mena ومادرانو Madrano، وبالرأسين العظيمين والواضحين لآدم وحواء، اللذين نُحِتَا فوق منابر الوعظ بيد ألونسو كانو Alonso Cano.

في مركز صحن الكنيسة الأوسط المنفصل عن الكنيسة الرئيسيّة Capilla Mayor بجناح الكنيسة، هناك غرفة جوقة الترتيل وقد نُفِذت بأسلوب صاحب Churrigueresque يتحدّث الواحد فيها بصعوبة. ولا يميّز مكان جوقة الترتيل تلك إلا آلات الأرغن الجميلة، والصليب المنفّذ بيد پابلو دي روخاس Pablo de Rojas. وتحت جوقة الترتيل دُفن ألونسو كانو (المتوفى سنة 1667)، وكان واحداً من أعظم الفنانين الأندلسيين، وكاهناً ثانوياً في الكاتدرائية.

إحدى أهم الصور المميزة هي أيقونة العذراء الحزينة Virgén de la Soledad، موجودة فوق مذبح كنيسة القديس ميغيل Capilla de San Miguel (الكنيسة الأولى على اليمين لدى دخول الكنيسة). وكانت قد سُرقَت في العام 1873، ثم أعيدت إلى المدينة بعد فترة وجيزة. زُخرفت الكنيسة بشكل جميل بالرخام الأحمر والأخضر المرقط (السرينتين) وأمر بإنشائها رفيع العلم والشأن، المحسن، رئيس الأساقفة موسكوسو Moscoso عام 1804. أما قبره فمن صنع النحات فولتش Folch. ولقد وضعت في الكنيسة - ولا نعرف لماذا - أنيتا زهور صينيّتان أنيقتان.

بين هذه والكنيسة الأخرى مدخل إلى غرفة المقدّسات أو الجامع القديم، وإلى يسارها صورة صغيرة، وأمامها اعتاد القديس يوحنا اللاهوتي St. John of God أن يصلي بورع. وفي كنيسة الثالوث Capilla de la Trinidad بعض اللوحات الجيدة، من بينها أيقونة الثالوث Trinity لكانو Cano، ومنمّنتان صغيرتان على النحاس للفنان ذاته، وموت القديس يوسف Death of St. Joseph لماراتا Maratta. ونسخ أعمال لرافئيل وريبيرا Ribera. وأعمال ريبيرا الحقيقية (المسيح الطفل Child Jesus، والقديس لورنس St. Laurence، والقديسة مريم المجدلّية St. Mary Magdalene) وأعمال أخرى لكانو Cano في كنيسة يسوع الناصري Jesus Nazareno الفخمة التي تعود إلى القرن الثامن عشر. ويأتي بعد هذا، الباب القوطي الضخم للكنيسة الملكية لإنريکه إيغاس، ووراء باب كنيسة سانتياغو Chapel of Santiago مع تمثال رائع للقديس الأكبر حامي إسبانيا Patron Saint of Spain على حصانه، قُدّم

إلى الكاتدرائية من المدينة عام 1640. أما الأيقونة القديمة عذراء الغفران Virgén del Perdón فقد منحتها للملكة الكاثوليكية إيزابيلا البابا إينوسنت الثامن Innocent VIII، وكان من المعتاد أن تحملها الملكة. وكانت تُبجّل بشكل علني (لا تُعبد أو تُقدّس)، في مناسبة الذكرى السنوية للفتح الإسباني، في الثاني من يناير.

نعبر غرفة مقدسات الكاتدرائية ببابها الأنيق الذي أنجزه سيلوه Siloé، لنستريح أمام باب الكلية Puerta del Colegio. وخلف منحوتة «هو ذا الإنسان» Ecce Homo قيل إن مايبدا Maeda قد نحت الشيطان لوسيفر Lucifer بجمال استثنائي. فكان قد قدّم طلباً لسيلوه Siloé من أجل العمل وامتحان براعته في النحت، فما كان من المعماري الفاحص إلا أن قال له بازدياء: انحت الشيطان إذن! فما كان من مايبدا Maeda إلا أن نقّذ ما طلب منه حرفياً.

تغطي كنيسة القديسة حنة Santa Ana الغرفة المقببة المخصصة لرؤساء الأساقفة، وتحتوي على جزء من مذبح يعود إلى القرن السادس عشر، ولوحة القديس يوحنا St. Jean de Matha (وهو فرنسي، وليس إسبانياً) لبوكانيغرا Bocanegra. والكنائس الست التي تتبعها ليست لها مزايا معينة. أما الكنيسة الرابعة على الجهة اليسرى للكاتدرائية فتسمى La Virgén de la Antigua (العذراء القديمة)، نسبة إلى صورة قوطية بجلها بشكل كبير فرناندو الكاثوليكي، ونظر إليها أنقياء غرناطة بكثير من المهابة والإجلال. وهنا تظهر لوحتان بيد خوان دي سيقيا Juan de Sevilla تصوّر فرناندو وإيزابيلا يصليان، والملك متسربلاً بدرع. رُسمت اللوحات بالأسلوب الفينيسي (أسلوب البندقية). وفي رافدة المذبح لوحة لكورنيخو Cornejo من الأفضل الاقتصاد في الكلام عنها. إن رأسي القديسين يوحنا وبولس المرسومين بأسلوب الواقعية بيد كانو Cano يعكسان حبّ عصره لهذا النوع من الفن. وهي الآن في كنيسة عذراء الكرمل Virgén del Carmen. أما الكنيسة الأولى، أو المعمودية فقد شيدها، آدم Adam وأغوادو Aguado، على نفقة رئيس الأساقفة غالغان Galvan، الذي دُفن هنا إلى جانب أحد الذين شغلوا العرش الأسقفي وهو دون بينفينيدو مونثون Don Bienvenido Monzón. والمنحوتتان الثافرتان الرائعتان للقديسين هيرونيموس Jerome وإيزيدوروس Isidore هما للفنان مورا Mora. الآن، وصلنا إلى أبواب المدخل، وعلى كل جانب منها عُلمت لوحة جميلة. أما اللوحات الثلاث فوق الأبواب فتمثّل مشاهد دينية.

أهم مزية في صالة اجتماع الرهبان أو Sala Capitular، هي الشرفة المباركة مع رسوم ترمز إلى العدالة والحكمة، وهي بالإضافة إلى مجموعة التالوث المقدس تُنسب دون أدنى شك إلى مايبدا Maeda.

قبل أن نغادر الكاتدرائية، يتوجّب علينا أن نزور غرفة الذخائر، إنها تحوي عمل Assumption (لوحة رفع مريم العذراء إلى السماء) لكانو Cano وتمثالين له أيضاً وصلباً لمونتانييث Montañez، والعائلة المقدسة لخوان دي سيقيا Juan de Sevilla، ومريم الطاهرة لبوكانيغرا Bocanegra. تحتوي الخزينة على بعض الأثواب المطرزة بشكل رائع، وأمثلة لحرفة صناعة الفضة، وهي جيّدة لكنها ليست رائعة. وهناك خاتم للبابا سيستوس Sixtus الثالث، والوعاء المقدس المقدّم من إيزابيلا له أهمية تاريخية بكل تأكيد.

علبة الجواهر أيضاً تُعرض للزوار، ويُذكر لهم على وجه اليقين بأنها هي العلبة نفسها التي وُضعت فيها الجواهر المرهونة من قبل إيزابيلا من أجل الحصول على تمويل لرحلة كولومبوس الأولى. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنّ أسطورة صندوق پاندورا Pandora تعتبر غير ذات قيمة مقارنة

بها! أما كتاب الملكة المقدّس من عمل فرانتيسكو فلورس Francisco Flores فقد زُخرف بشكل جميل. وقد وُضع فوق المذبح العالي في الذّكري السنوية للفتح الإسباني. أمّا الشّغوف بالأسلحة فسوف يمسك بفضول بسيف فرناندو الكاثوليكي، وللمقبض رُمانة كروية وحمايل Quillon متدلّية مع فروع باتجاه النّصل، الذي نقش حتى ثلثي طوله تقريباً. كما أنّ هناك بقايا أخرى كانت لملوك الكاثوليك هي صولجانهم، تاج إيزابيلا، الرّيات الملكية التي رُفعت أثناء الفتح الإسباني، ورداء الكاهن الذي قيل بأنّ الملكة طرّزته بيدها.

من خلال الباب إلى جانب كنيسة القديس ميخائيل Capilla de San Miguel نعبّر السّاغرابو Sagrario (غرفة الذّخائر) التي تحتلّ موقع الجامع القديم، وقد حلّت محلّه في عام 1705. وقام بتصميمها دون فرانتيسكو أورتابو Don Fransisco Hurtado وخوسيه دي بادا José de Bada، فمسؤولية قطعة من الفن المعماري بهذا المستوى يجب أن تُلقَى على عاتق رجلين جديرين بها. إذ أنه من الممكن أن تُنبذ لصخبها، لكنها ليست لحسن الحظ بلا شأن. ففي إحدى الكنائس دُفن «الفارس العظيم فرناندو دِل پولغار Fernando del Pulgar، سيّد الملح El Salar» كما تسجّل الكتابات. هذا الفارس الشّجاع، أثناء آخر حملة على غرناطة، أغار على المدينة مع 15 فارساً، ووضع فتيل شمعة على أرض المسجد، ويقول البعض، إنه ثبت ورقة بمسمار تحمل صلاة Ave Maria (السّلام عليك يا مريم) على الباب. هذه المأثرة أكسبته وسلالته الامتياز القيم الذي خولهم ارتداء قبعاتهم في الكاتدرائية. وعظام دي پولغار De Pulgar قد تآكلت أكثر من عظام رئيس الأساقفة الطيّب دي تالافيرا de Talavera، التي بُعِثت عندما هُدم المسجد القديم. هذا وتحتوي غرفة الذّخائر عدّة لوحات قيّمة، تتضمن أيقونة القديس يوسف San José لكانو Cano، وتحتوي أبنية الكاتدرائية على نخبة رائعة من أعماله، كما لاحظنا. ومن خلال الباب الذي يقع إلى جانب كنيسة پولغار Capilla de Pulgar، والممرّ المظلم، يمكن الدّخول إلى الكنيسة الملكيّة.

أمّا البناء المسيحي الصّرف والأقدم في غرناطة فهو دير وكنيسة القديس خيرونيمو San Jerónimo، التي نقلت أساساتها إلى هنا من ضاحية سانتا فيه Santa Fé مباشرة بعد الفتح الإسباني. والدير الآن عبارة عن تكنات للفرسان وبعيد عن أعين الفضوليين. والكنيسة التي بناها ديبغو دي سيلوه Diego de Siloé، تأخذ شكل صليب لاتيني بسيط، جليل وصارم. أما الجدران فرُتبت بلوحات فريسيكو تمثل مشاهد من آلام المسيح، ولوحات لأباء الكنيسة، وملائكة تعزف على القيثارة وتغني. أنجزت في عام 1723 على يد رسّام غامض يدعى خوان دي مدينا Juan de Medina. وهناك ثمانى كنائس مفتوحة على جناحها وصحنها، إحداها تحوي رافدة مذبح تزيّنه لوحة رائعة، موضوعها الدّفن. وتظهر الكنيسة الرّئيسية مهارة سيلوه Siloé في أوجها. وقيل إنه حقّق في بنائها «هدفه النّبيل لإظهار نهضة إسبانية حقيقية»، حمل هذا الهدف ثمرة صغيرة، إلا أن بعض أتباعه قيّدوا أنفسهم بالأسلوب التقليدي الصّارم (الكلاسيكي)، والبعض الآخر بتطوير أسلوب Plateresque نسبة إلى فنّاني صنع الفضة». إنّ تزيينات الكنيسة تتمتع بكثير جداً من روح النهضة، وكذلك التماثيل التي تمثل شخصيات العصر الكلاسيكي: قيصر، پومبي Pompey، هنيبل، هوميروس، وآخرين، وتظهر جنباً إلى جنب مع شخصيات من أسفار العهد القديم تزيّن الكنيسة. كم هو غريب حقاً هذا الإعجاب بالحضارة الوثنية، وتعايشه مع التّعصّب الديني الشرس ضدّ كل ما هو غير كاثوليكي معاصر!

كُرست الكنيسة بأكملها عملياً لذكرى الجندي الإسباني الأعظم، القائد غونثالو دي كوردوبا Conzalo de Córdoba، الذي دُفن هنا، ولكن رفاتهُ نُقلت إلى مدريد. يظهر البطل وزوجته الذوقة في نحت، يركعان في صلاة على كل جهة من المذبح العالي. ويرتفع فوقه رافدة مذبح ولوحة رائعة ترتبه مقسمة إلى عدّة حُجيرات مليئة بالمنحوتات الثائرة والتماثيل. والمقاطع الأفقية فيها إغريقية - دورية أيونية - كورنثية، ومختلطة مصفوفة على التوالي. أما الحُجيرة الرئيسية السفلى فتحتوي على الهيكل Tabernacle، ومواضيع الحجيرات الثلاث التي تعلوها مباشرة هي عن الحبل بلا دنس Immaculate Conception، والقديس خيرونيمو Jerome، والصلب. وفوقها جميعاً يظهر شكل الأب الخالد. هذا العمل الرائع، الفريد من نوعه في إسبانيا، يبدو أنه أنجز على عدد من الفنانين، من بينهم خوان دي أراغون Juan de Aragón وبيدرو دي أوربا Pedro de Orea، وبيدرو دي راشيس Pedro de Raxis. والفنطرة على شكل محارة جميلة في الأعلى قد زُيّنت بصور الحواريين والقديسات بربارة، كاترينا، مجدلينا، ولوسيا، والقديسين المحاربين: جرجس وأستاخيوس ومارتين وسيباستيان وفرانثيس. والسيف الذي منحه البابا إلى القائد العظيم، كان أحد كنوز الكنيسة، وقد انتزعه بالقوة سيباستيان أثناء حرب شبه الجزيرة الإيبيرية Peninsular War.

هناك كثيرٌ من الأشياء الجميلة العظيمة في هذه الكنيسة القديمة التي تسهوا عن ملاحظتها أنظار الإنسان العادي. فالمقاعد في جوقة الترتيل قد صُممت بيد سيلو Siloé. ولوحات الفريسكو، التي تمثل انتصار الكنيسة، والعدراء، والقربان المقدس، ورفع مريم العذراء... قد أنجزت بشكل جيد جداً. ولكن ترميم البناء تعرّض للكثير من النقد، إنّما من الصعب أن تتخيل كيف كان بإمكانه أن يكون أفضل.

في جوار كنيسة تذكّار القائد الإسباني العظيم مبنًى لبطل وشخص إسباني عظيم من نوع آخر تماماً. لقد كُرس خوان دي روبلس Juan de Robles نفسه للمريض والسائل مع حماسة أفضت به إلى الحبس في قفص للمجانين. لم تُقدّر فضائله بعد وفاته فقط وكانت سبباً في طوباويته تحت اسم القديس يوحنا اللاهوتي John of God عام 1669، إجلالاً لذكراه. ولو قدّر له لكان دون أدنى شك سيُسرّ أكثر إثر بناء المستشفى الكبير الذي شُيّد بعد سنتين من وفاته وذلك في عام 1552. يوجد رُفات القديس في تابوت فضي، يرقد في كنيسة المشفى، وهو عبارة عن بناء فخم باهظ الكلفة سيء الذوق. والواقع أنّ أسلوب تشوريغيرا Churriguera المتكلف في الفن المعماري الإسباني قد طغى على الجميع. وأهم ما فيه لوحة القديس، وتوجد نسخة عنها في مدريد.

ارتبط اسم القائد العظيم بكارتوخا Cartuja، وهو الدير الكارتوزي الذي قُمع، وكان قد أعطى الأرض التي بُني عليها كهبة. بني الدير عام 1516، وهدم عام 1842. ولم يبق منه إلا جزء صغير مع الكنيسة. ولقد شُوّه الصحن الوحيد بالزخرفة المفرطة على طراز صانعي الفضة Plateresque. رُصعت أبواب غرفة جوقة الترتيل بغنى وبذوق رفيع بخشب الأبنوس وأصداف اللؤلؤ، والأرز وصدف السلحفاة، وكانت من عمل راهب هو مانويل فاسكيث Manuel Vazquez، الذي توفي عام 1765. والصرح مشيّد على الطراز الباروكي، وهو غنيّ بالرُخام النفيس، بعضه معرّق بأحجار العقيق. وعلى بعض ألواحها، رسمت يد الطبيعة أشكالاً تشبه الإنسان والحيوان. وفي غرفة الذخائر المجاورة، رُكبت أنواع متعدّدة من الرُخام لإسباغ مظهر باهر وبهيّ لأقصى حدّ. والقاعة بالتأكيد واحدة من أروع القاعات في إسبانيا، ولا تقلّ عنها روعة الأبواب والمصاريح المرصعة باتقان. إن الذوق السيء للكنيسة بشكل عام وجد ما يعوّض عنه بتمثال للقديس برونو، مؤسس المذهب

الكارتوزي Carthusian، وقد أنجز التمثال ألونسو كانو Alonso Cano، وبعض الصور لبوكانيجرا Bocanegra، وجاكوينتو Giaquinto، وكوتان Cotán. والمذكور أخيراً راهب، كان مسؤولاً عن اللوحات في الدير، التي تمثل استشهاد الرهبان الكارتوزيين في لندن على يد الطاغية هنري الثامن والسفاحين الذين كانوا يعملون موظفين في بلاطه.

كان دير كارتوخا Cartuja سابقاً غنياً بالأعمال الفنية، ولكن مثل سان إيرونيمو، قد نُهب من قبل الفرنسيين بقيادة سيباستيان، الذي أثبت، كما في كل المناسبات، تعصب الهادي مقترناً مع جشع اللص.

أمام كنيسة القديسين بطرس وبولس Santos Pedro y Pablo بناءً أنيق جداً بني عام 1539 لإرناندو دي ثافرا Hernando de Zafra أمين سر الملوك الكاثوليك. والباب مكون من ثلاث مراحل: يحتوي الأول على المدخل، وهو عبارة عن باب مربع، بين الأعمدة الدورية Doric الإغريقية، ويحمل الثاني شعارات النبالة للعائلة، نُحتت فوقها أسود وغرفين (حيوان نصفه نسر ونصفه أسد)، أما الثالث فيحتوي على شرفة بين أعمدة، منقوشة بنحوت نافرة دقيقة. وعلى نفس الخط هناك شرفة أخرى، تحمل كتابة غريبة تقول، Esperándola del Cielo - «فلتأملن بها في الجنة» تشير هذه الكلمات إلى أسطورة مأساوية تقول إن دي ثافرا De Zafra ساوره الشك في أن ابنته على علاقة سرية برجل. ولكي يحسم شكوكه، اقتحم غرفتها في يوم من الأيام، فوجد حاجب الغرفة يساعد الحبيب على الهرب من النافذة. وبعد أن يؤس من ملاحقة طريدته، عاد الأب، والموت في عينيه، إلى الحاجب. فصرخ الغلام: «الرحمة». أجاب الدون Don: «فلتأملن بها في الجنة»، ملقياً بالمتأمر مع ابنته من الشرفة. هكذا تروي الأسطورة. ويبدو أن دي ثافرا De Zafra، بحسب السجلات، لم يترك أولاداً، أما ابنته فيبدو أنها لم تعش طويلاً علاقتها الغرامية. يعلق قاتلادار Valladar قائلاً: «لعمري، في القرن السادس عشر لم يكن هناك أسهل من أن ترمي حاجباً خارج النافذة دون أن تجلب انتباه الشرطة أو القضاة».

لا مُشاحة في أن غرناطة غنية بالكنائس القديمة والمنازل تماماً كإشبيلية، ويشكل منزل القائد العظيم الآن جزءاً من دير الراهبات الكرمليات Carmelite، وعلى الواجهة لوح دُون عليه: «في هذا المنزل عاش، وفي الثاني من شهر ديسمبر عام 1515 مات، القائد العظيم دون غونثالو Don Gonzalo Fernandez de Aguilar Y de Córdoba، دوق سبسا Sessa، وتيرانوفا Terranova، وسانت أنجيلو Santangelo، البطل المسيحي، داحر المغاربة Moros، والفرنسيين، والأترك». يبدو أن أبنية كاسا دل تيروس Casa del Tيروس وجنة العريف Generalife وكذلك منزل المركزي كامپوتبخار de Campotejar قد أقيمت على موقع قلعة عربية محصنة أو أنها تشكل جزءاً منها. ويعتقد البعض بأنها أعمال تحصينية لما يعرف بالأبراج الحمراء أو الخمرية (توريس بيرميخاس) Torres Bermejas. ويدلّ داخله على الطابع العربي، كما يبدو أن العرب أيضاً قد أنشأوا السلالم وهناك زليج Azulejos غني ورقش أرتيسونادو Artesonado رائع مزين بمنحوتات نصفية مجسمة لعظماء الإسبان مع رؤوس عربية ومسيحية ومنحوتات نافرة تمثل: لوكريتيا Lucretia، يهوديت Judith، سميراميس Semiramis، پنثيسيبلا Penthesisilea.

يُحتفظ في هذا المنزل بسيف عربي ذي مقبض رائع وغمد، قيل بأنه يعود لأبي عبد الله الصغير Boabdil. لكن غمد السيف، بلا ريب من عمل لاحق للفتح الإسباني، وحرى بالمرء أن يساوره الشك بشأن أجزاء الرُفات المتعددة المنسوبة إلى الملك المسلم الأندلسي الأخير.

في واقع الأمر، لم يبقَ من غرناطة القديمة أكثر من الأبنية التي سمّيناها سابقاً. يمكن أن نرى في برج سان خوان San Juan de los Reyes المرّم بشكل سيء جداً، أن تشييده العربي يبدو شرقياً بوضوح أكثر من أيّ صرح غرناطي آخر، وأنه أيضاً قد طُمس بشكل كامل تقريباً. وفي كاسا دل أيونتاميونتو Casa del Ayuntamiento (دار البلدية) القديمة هناك بعض النُحف التاريخية النادرة، وبشكل خاص، المسوّدة الأصلية للامتياز الممنوح لغرناطة من قبل الملوك الكاثوليك، والدّرع الرّسمي الضّخم للمدينة. وثمة مواقع كثيرة، مثل ساحة باب الرّملة Plaza de Bibarrambla، التي يُحتفى بذكرها في أغانٍ وقصص إسبانية قديمة، قد حُدثت بشكل كامل. لكنّ هناك تذكّراً - وهو عمود بسيط متوّج بصليب حديدي - أهمّ من أيّ شيء بناه العرب. تسجّل الكتابة فوق العمود أنه في هذه البقعة، في 26 شهر مايو عام 1831 حُنقت دونيا ماريانا بينيدا Doña Mariana Pineda بشكل علني في عمر 32. ماتت شهيدة الحرّية وضحية موجة حكم جائر مسعور غريب ساهم كثيراً في خراب إسبانيا زمن حكم فرناندو السّابع. كان منزل الدّونيا ماريانا Doña Mariana مركزاً للإجتماعات الليبرالية الحرّة، وعندما اقتحمته الشّرطة وجدوت أنها تحوي على علم ثلاثي الألوان (فرنسي). وواجهت موتها بشجاعة جديرة بقضيّتها. بعد خمس سنوات، عندما استعادت الأمّة رُشدها، نُقل رمادها إلى البلدية (أيونتاميونتو) Ayuntamiento. أمّا الحاكم الذي أدانها فقد أعدم بدوره. وفي نفس الموقع لقي ثوّار إسبان كثيرون حتفهم بنيران الجند الفرنسيين، كانوا وهبوا عملهم وحياتهم لخلع فرناندو السّابع عن العرش. والسّاحة التي كانت تُسمّى سابقاً الكامبيو Campillo، تُعرف الآن باسم ماريانا بينيدا Mariana Pineda. ويمكنك أن ترى تمثالها من الرّخام الذي نحته كلّ من مارنا Marna ومورالس Morales.

أمّا التّل المسمّى ساكرو مونته Sacro Monte (أي الجبل المقدس) فهو تحفة تذكارية للسّداجة الانسانية. ففي عام 1594 أخبر أحدهم وهو فرانثيسكو إرناندث Francisco Hernandez الأسقف دون پدرو فاكا دي كاسترو Don Pedro Vaca de Castro بأنّه اكتشف رُفات عدد من الشّهداء المحليين في كهوفٍ هنا. فشيدت كنيسة دون أية مزية معمارية في هذه البقعة، وأصبحت مكاناً للحجّ - أمّا الدليل على أن الشّهداء المشار إليهم كانوا بالفعل موجودين فما زال قيد البحث. وبداخل الكنيسة حُفظت بعض الكتب الدّاكنة، كتبت بأحرف عربية، ومن المفترض أنها تحوي أعمال القديسين. هذه الأعمال كانت موضوع جدلٍ عنيف في القرن السّابع عشر. وتعدّ تلك الكهوف مهمّة من حيث مزاياها الطّبيعية وكانت غالباً مقابر استخدمت من قبل المسيحيين الإلبيريين Illiberis الأوائل. يمكن ملاحظة بعض الصّخور، وقد اهترأت في أجزاء منها من النّقبيل المتكرّر للمتعبدين. وثمة خرافة تقول بأن الشّخص الذي يُقبّل الحجر لأول مرة سوف يتزوج في خلال سنة، والقبلة الثانية تؤكّد لأولئك المتزوجين سلفاً انفرط عقد رباطهم الزوجي.

في الجهة المقابلة للمدينة، في الصّواحي أيضاً، مصلّى صغير إسلامي، قد رُمّم وشوّهت معالمه إلى أبعد حد. يُدعى صومعة سان سيباستيان Ermita de San Sebastián، وكان المكان الذي سلّم فيه أبو عبد الله الصّغير (أبو عبدل) Boabdil مفاتيح غرناطة إلى فرناندو وإيزابيلا Fernando y Isabel.

عندما نسير عبر شوارع غرناطة الحديثة، بكنايسها المبهجة، وبيوتها السّكنية المألوفة، لا يبدو لنا أنها اكتسبت الكثير من جرّاء تغيّر أسيادها. لكن انحطاطها لم يتم، على الأقل، حتى سنوات عديدة بعد الفتح الإسباني. والواقع أنّ الاجتياح الفرنسي وأكثر من ذلك انهيار صناعة

الحريير، قد أضعفا بشكل كامل ازدهار المكان. وخلال القرن الأخير فقدت منزلتها كمقرّ للقائد العام. لكن فجر يوم جديد سيأتي لمدينة الفخر العربي والإسباني على السواء. فلم تُعدّ غرناطة تكتفي بعد الآن بماضيها المشرق. وفي الواقع، يبدو أنّ مواطنيها يعيرون النصب التذكارية لتلك الأيام القليل من الانتباه. وهناك مظهر عام للغنى والاناقة حول المتنزهات الواسعة، والجادات المضاعة جيداً، ويعزى ذلك لمصنع الشمندر السّكري الذي دخل حديثاً في التّصنيع، لقد استردّ سهل فيغا Vega ابتسامته التي افتّر عنها عندما أعلنه أميرٌ مسلمٌ ملكاً له، وسُمع فيه نداءُ المؤدّن يصدح من أعلى مئذنة.

* * *



خارطة غرناطة

دليل المواقع على خارطة غرناطة

مشفى سان لازارو.

كنيسة سان خوان دي ليطران.

صومعة سانتو كريستو دي بيدرا.

سان برونو والكارتوخا.

ساكرو مونتِه (الجبل المقدّس Sacro Monte).

القبر المقدّس.

تكنة الجُلجلة وسان خيرونيمو.

سان خوان دي ديوس (يوحنّا اللاهوتي).

سان خوان دي ديوس (شارع).

مأوى الأمراض العقلية.

ساحة الثيران (پلاثا دي توروس).

سان إدفونسو، وطريق دِل تريونفو.

مكتب دفع الرّواتب.

باب البيرة.

باب مونايتا.

سان أندريس.

مشفى الأطفال.

مكتب الشؤون المدنيّة.

سانتوس خوستوس وپاستور .
معهد الموسيقى .
حديقة النباتات ودير راهبات الرّحمة .
ساحة رويل وغودينس .
دير التجسد .
سانتا پاولا .
إلبيرة (شارع) .
سان خيرونيمو .
شرفة أورلاندو .
سان ديبغو .
سان غريغوريو .
سان لويس .
التّحصينات العربيّة .
سان ميغيل الأكبر .
باب الزّيات .
إل سالفادور .
سان خوسيه .
دير الملاك .
الكلية الجامعة .
الكاتدرائية .
المدرسة العليا وقصر إقليم غرناطة .

مدرسة الاقتصاد.

ساحة السوق، وقصر الأسقف.

محكمة البداية (پلاثا دي باب الرملة).

دير أوغستينس ومجالينا.

دار البركة.

پوينتيثويلاس Puentezuelas (جسر).

ساحة مارشال پريم.

دار البلدية.

سانتا تيريسا (تيريزا).

دير الروح القدس.

المكتب العسكري.

الدير الكرملی.

مشفى الجذام.

سانتا آنا.

سانتا إينس.

دير الحبل.

سان خوان دي لوس رييس.

دير النصر سابقاً.

برج حراسة الحمراء (توره دي لا فيلا Torre de la Vela).

قصر الحمراء.

باب لاس غراناداس.

باب القضاء (خوديثياريا).

جنّة العريف.

باب الحديد (پويرتا إبيرو Puerta Hierro).

سان فرانشيسكو (سابقاً دير سنت فرانسيس).

كرسي المغربي (سيّا دل مورو Silla del Moro).

برج الطّباق السّبعة (الحمراء).

نافورة الكفّارة.

باب الشّمس.

دير سانتا كاتالينا.

هو ذا الإنسان Ecce Homo.

سان تيتيليو، والمشفى العسكري.

... ..

سانتا إسكولاستيكا.

الدير الكپوچي وسانتا ماريّا إخيبيثياكا (المصريّة).

سان أنطون.

أشغال الغاز.

منطقة خربة عامّة.

سان سيباستيان وطريق الفيولون.

لاس آنغوستياس.

إل سالون.

دير سانتياغو.

متحف أكاديميّة الفنون الجميلة.

- نُصب ماريانا.
- تكنة المدفعية.
- المسرح المركزي (بلازا دي بايلين Plaza de Bailén).
- الساحة الجديدة.
- محلة السقطيين Zacatín.
- سوق السمك.
- كنيسة سانتياغو.
- سان نيكولاس.
- دير توماساس.
- الأبراج الحمراء (توريس برميخاس Torres Bermejas).
- قصر كارلوس الخامس (شارلكان).
- باب الطواحين.
- سان باسيل.
- ميدان الألعاب.
- مقبرة.
- دير سان برناردو وكنيسة سان پدرو.
- سان بارتولوميه.
- طريق سان باسيل.
- سان كريستوبال.
- مشفى القربان Corpus Christi.
- سانتا إيسابيل لا ريال (الملكية)، وسان ميغيل الأصغر.
- سانتا ماريّا (المسجد القديم لقصر الحمراء).

سان ماتياس.

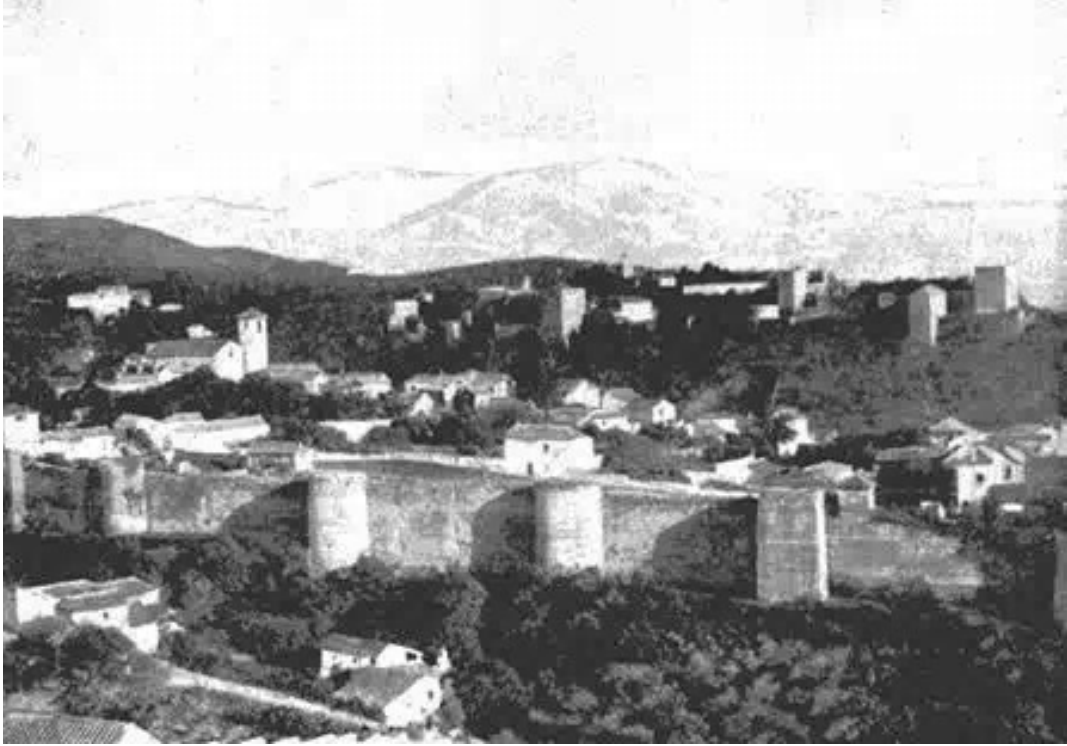
.Puerta de Fajalanza باب الفاخالانثا

.Calle Méndez Nuñez (شارع) مندِيث نونِيِث

* * *



منظر لغرناطة، يظهر فيه قصر الحمراء وجبال سييرا نيڤادا



منظر عام لقصر الحمراء



منظر لقصر الحمراء من طريق جبل ساكرو مونتِه



قصر الحمراء من كرسي المغربي (سّيا دل مورو)



منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



منظر لباب إلبيرة



منظر لقصر الحمراء من البيازين (رسم)



منظر للكاتدرائية وقصر الحمراء من سان خيرونيمو



منظر لجبال سييرا نيخادا من كاريرا دي لاس أنغوستياس



منظر للباب الملكي



منظر من البرج في قصر الحمراء



لا پلاتا نويڤا (الساحة الجديدة)



نُصب كولومبوس في پالاسيو دل سالون، وسييرا نيڤادا عن بُعد



شارع الملوك الكاثوليك



سوق الحرير العربي



لا كاسا دي لوس تيروس



كنيسة سانتا آنا



لوح ثلاثي مطلي بمينا ليموج كان في ملك القبطان الأكبر (گران كاپيتان).

المتحف الإقليمي في غرناطة.



مذبح في كنيسة سان خيرونيمو



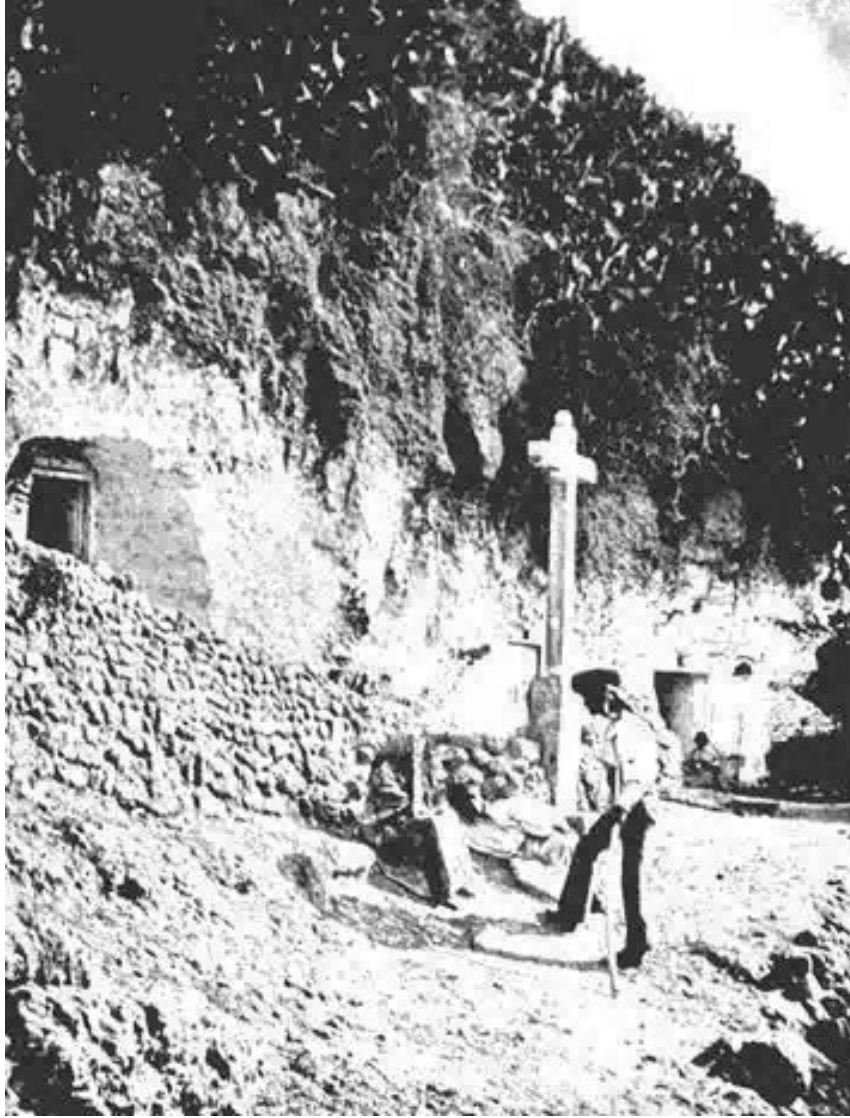
دار في شارع دارو. قصر العدل (پالاثيو دي خوستيثيا)



دار کاستریل



عجر نمونجیون وحواریهم



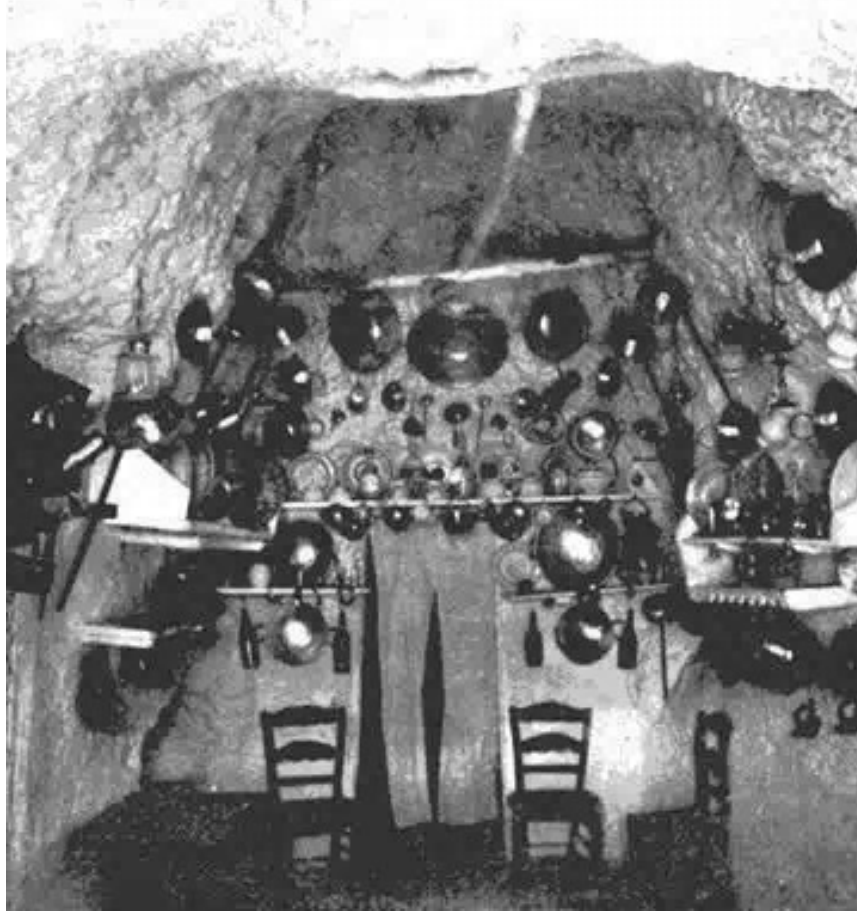
غجر أمام مساكنهم



مساكن غجرية في جبل ساكرو مونتِه



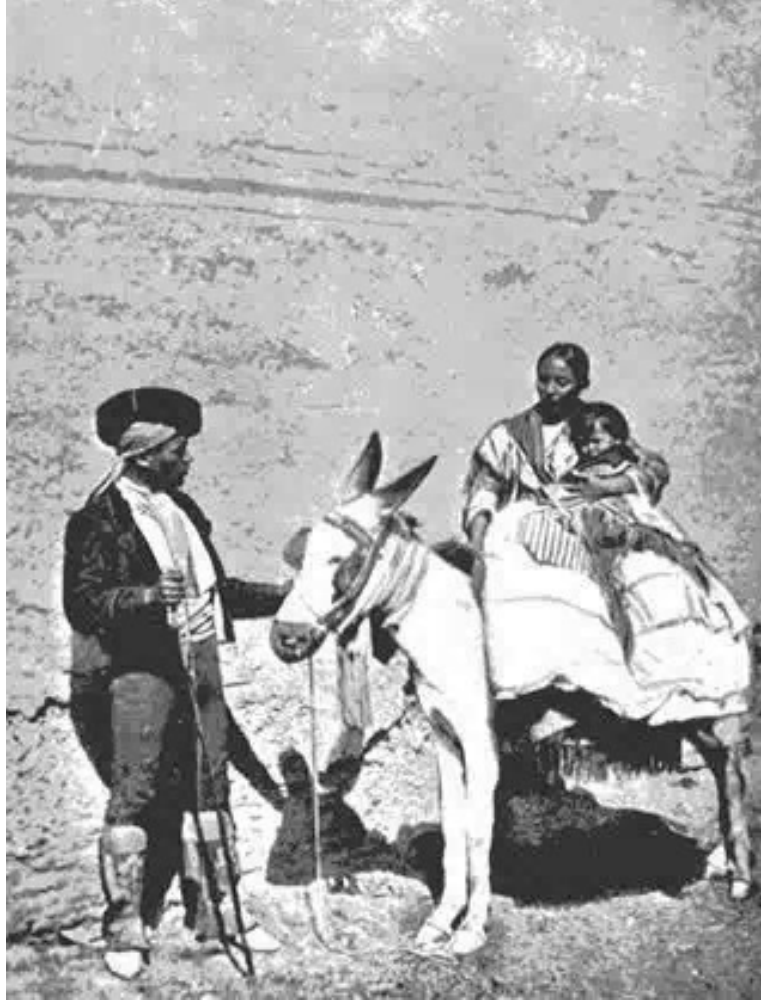
منظر عام لحواري الفجر



داخل كهف غجري



مجموعة من الفجر



عائلة عُجْرِيَّة



عجر يقيمون في العراق



عجبر



عجر يجزون بغلاً



عُجْر



عجبر



رقصة عجرية



داخل موهف دير الكارتوخا



داخل دير الكارتوخا: الموهف (غرفة المقدسات)



داخل كنيسة دير الكارتوخا



سانتو برونو، لألونسو كانو، في دير الكارتوخا بغرناطة



خارج الكنيسة الملكية



باب الغفران وخارج الكاتدرائية



واجهة الكاتدرائية



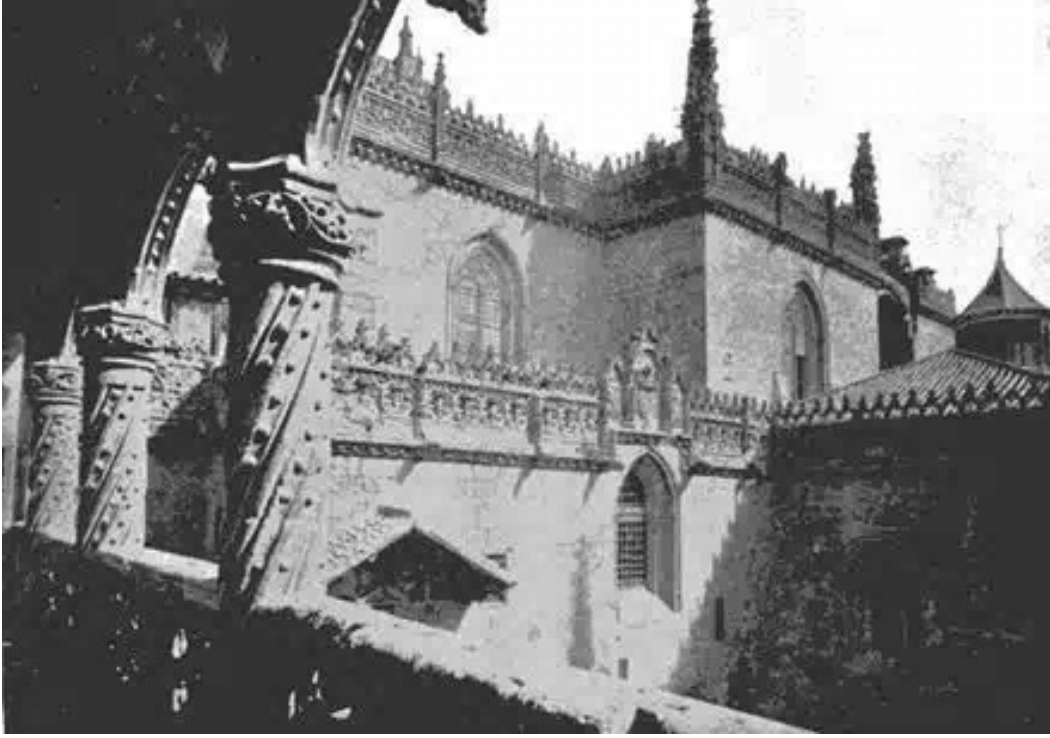
الباب الخارجي للكنيسة الملكة



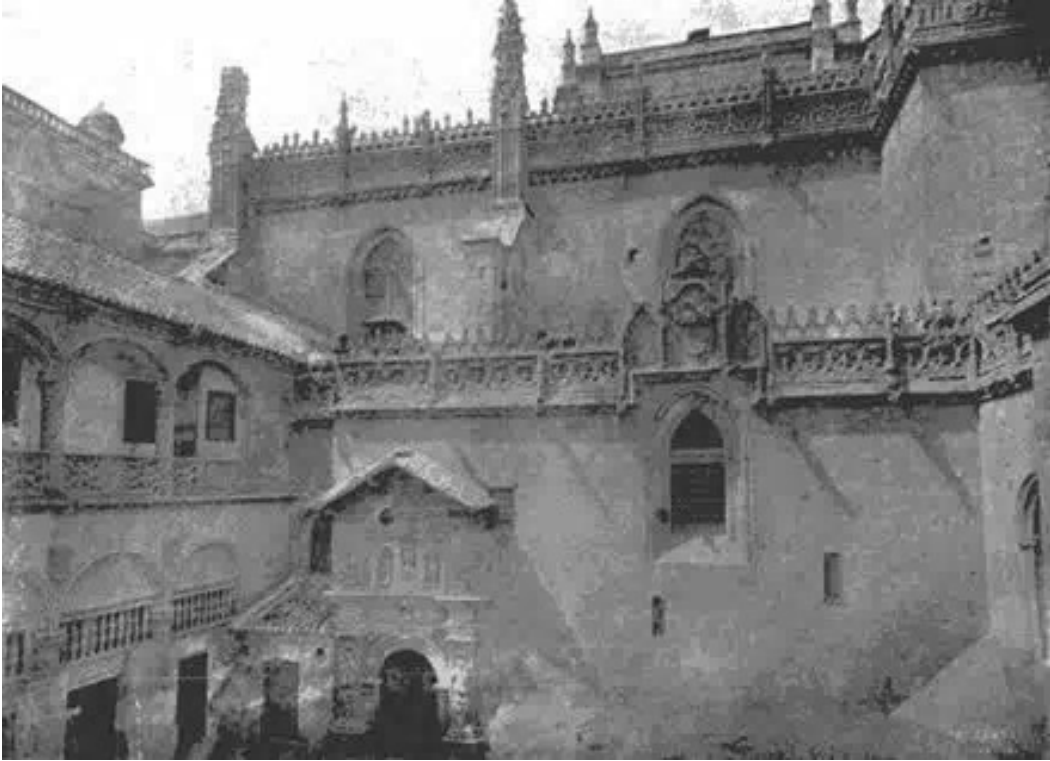
تفصيلة في الكنيسة الملكية



المدخل القوطي العتيق إلى الكنيسة الملكيّة



منظر خارجي عام الكنيسة الملكية، القسم العلوي



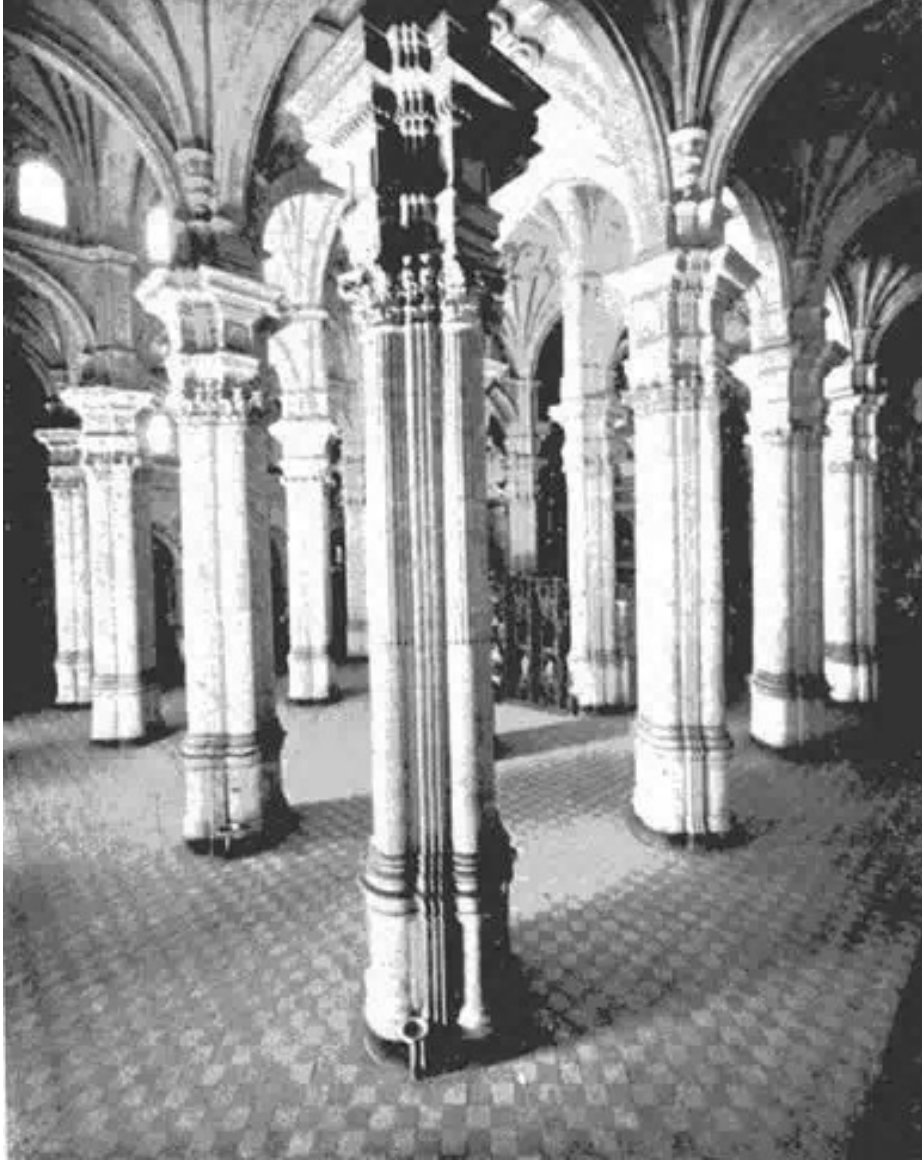
منظر خارجي عام الكنيسة الملكية



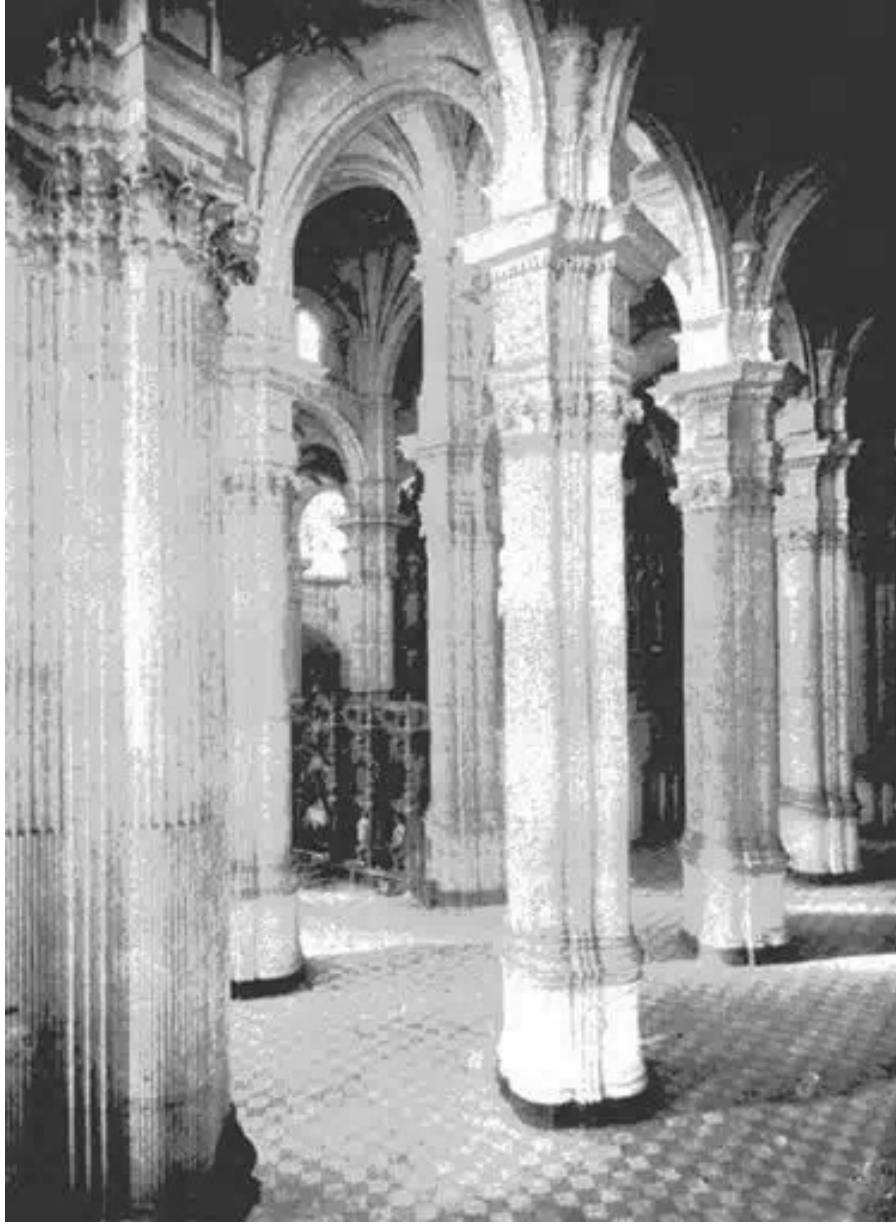
واجهة الكاتدرائية. خارج الكنيسة الملكية



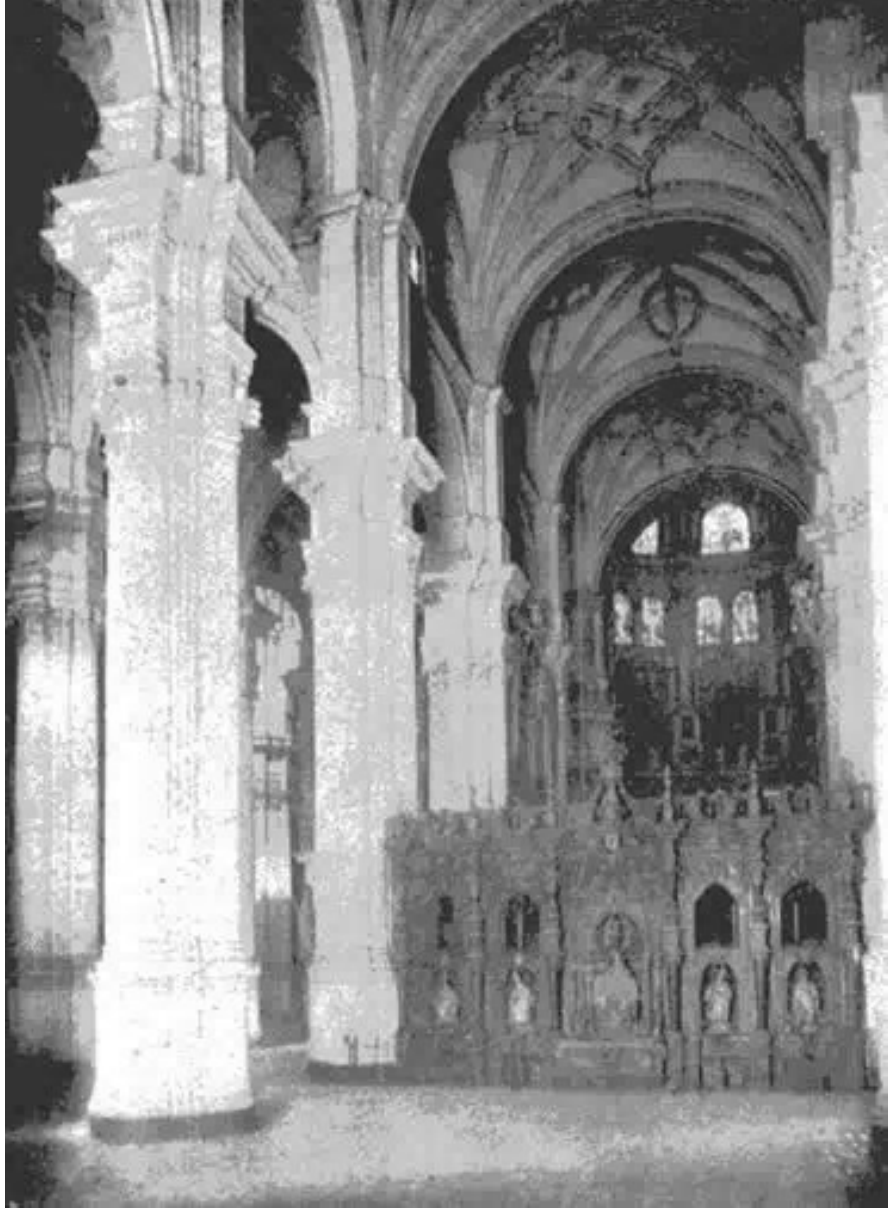
منظر عام لداخل الكاتدرائية



الكاتدرائية. منظر عام لداخلها



الكاتدرائية. منظر للصحن الرئيسي



المذبح العالي في الكاتدرائية



جزء المذبح في الكنيسة الملكيّة، عمل ف. دي بورغونيا

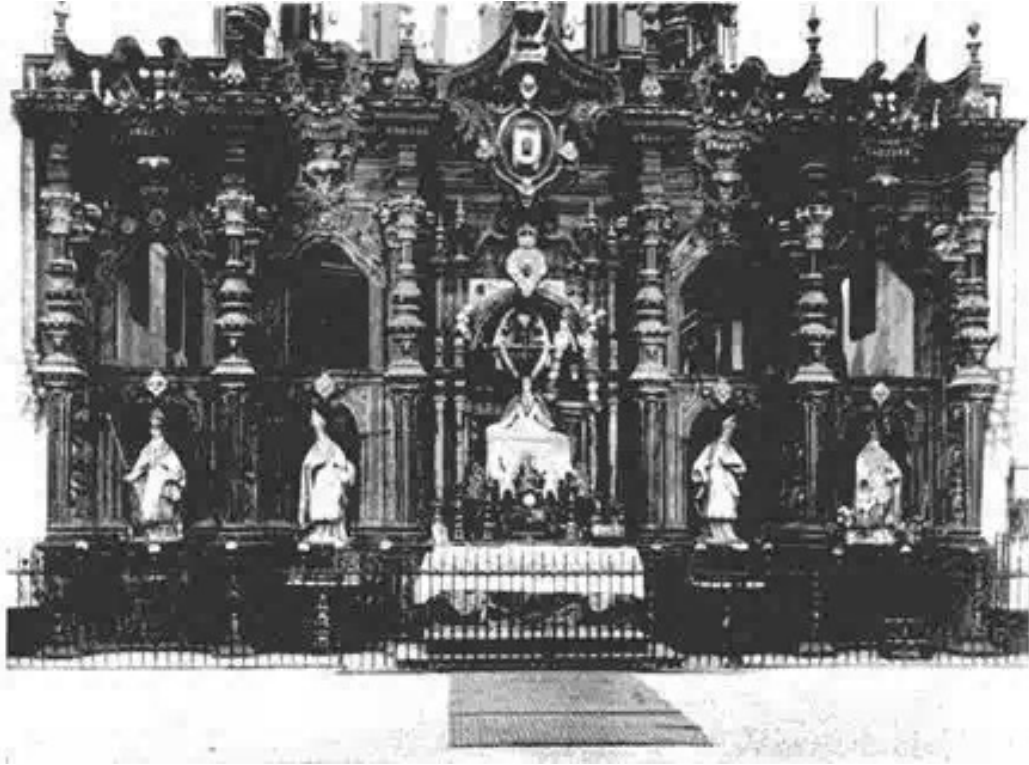


الكاتدرائية. أبو عبدل يسلم مفاتيح غرناطة للملكين الكاثوليكين.

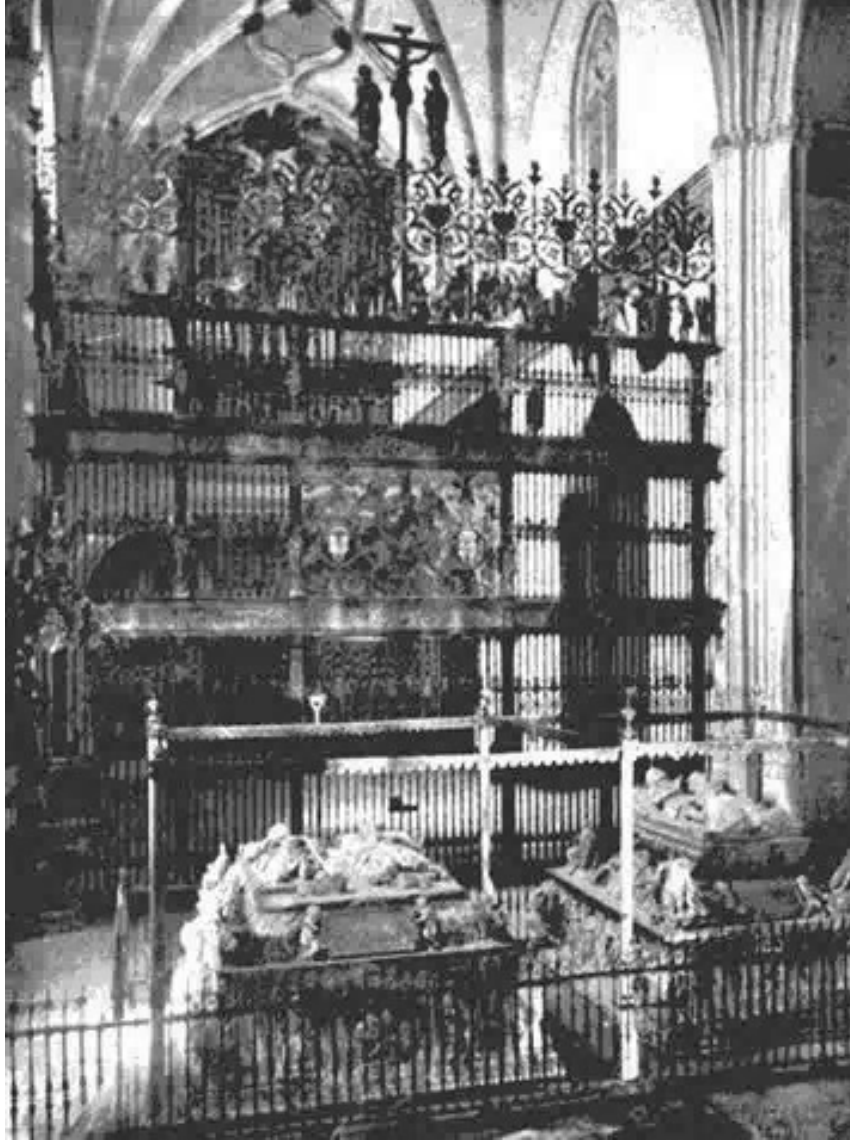
قطعة من جزء المذبح في الكنيسة الملكية



الكورس الداخلي للكاتدرائية



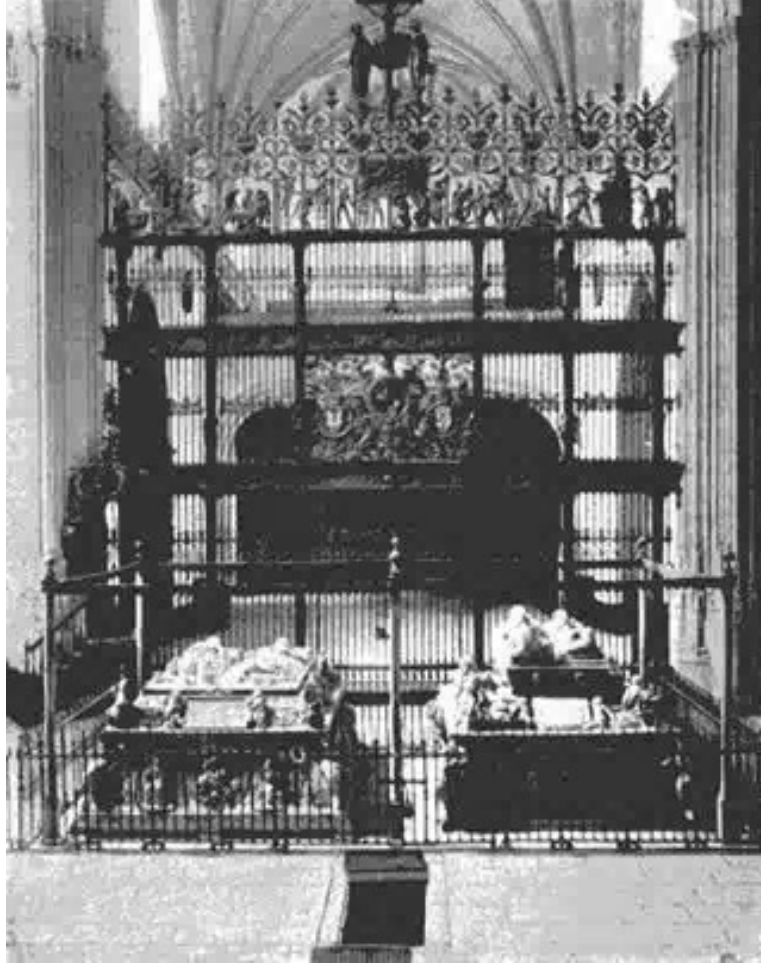
الكاتدرائية. قبرا الملكين الكاثوليكين في الكنيسة الملكية



منظر للكنيسة الملكية وقبري الملكين الكاثوليكين، عمل پ. غونثالفو



الكنيسة الملكيّة. قبرا فرناندو وإيزابيلا



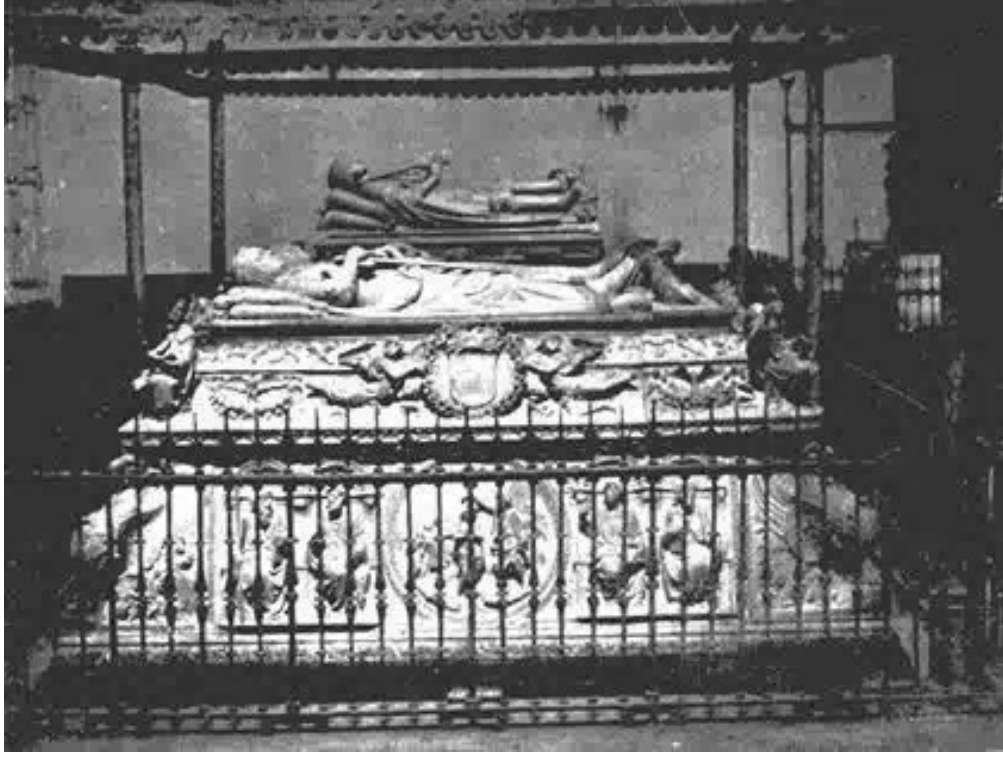
عقد سقف الملكين الكاثوليكين في غرناطة



قبور فرناندو وايزابيلا، ودونيا خوانا وفيليبه الوسيم



قبور فرناندو وايزابيلا، ودونيا خوانا وفيليبه الوسيم



قبر فرناندو وايزابيلا، ودونيا خوانا وفيليبه الوسيم



الصولجان والتاج والسيف وكتاب القُداس وصندوق الملكين الكاثوليكيين



الذخائر المقدسة للملكين الكاثوليكين



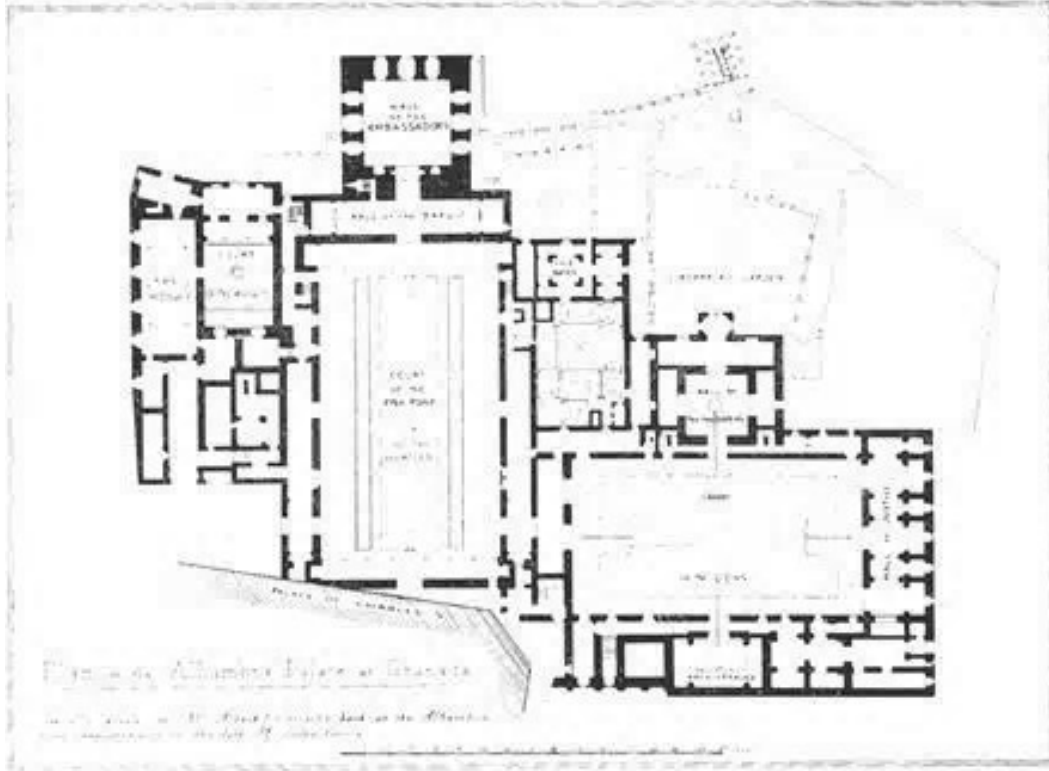
الكنيسة الملكية: تمثال الملكة إيزابيلا الكاثوليكية



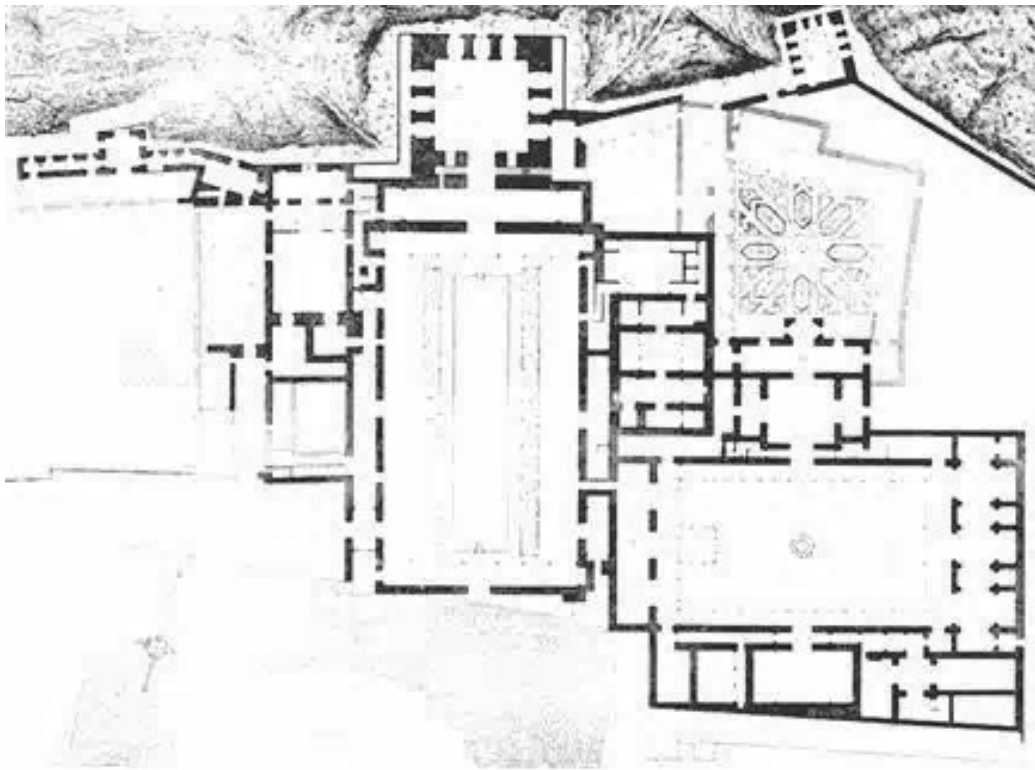
تمثال إيزابيلا الكاثوليكية



كنيسة سان ميغيل في الكاتدرائية، ضريح رخامي



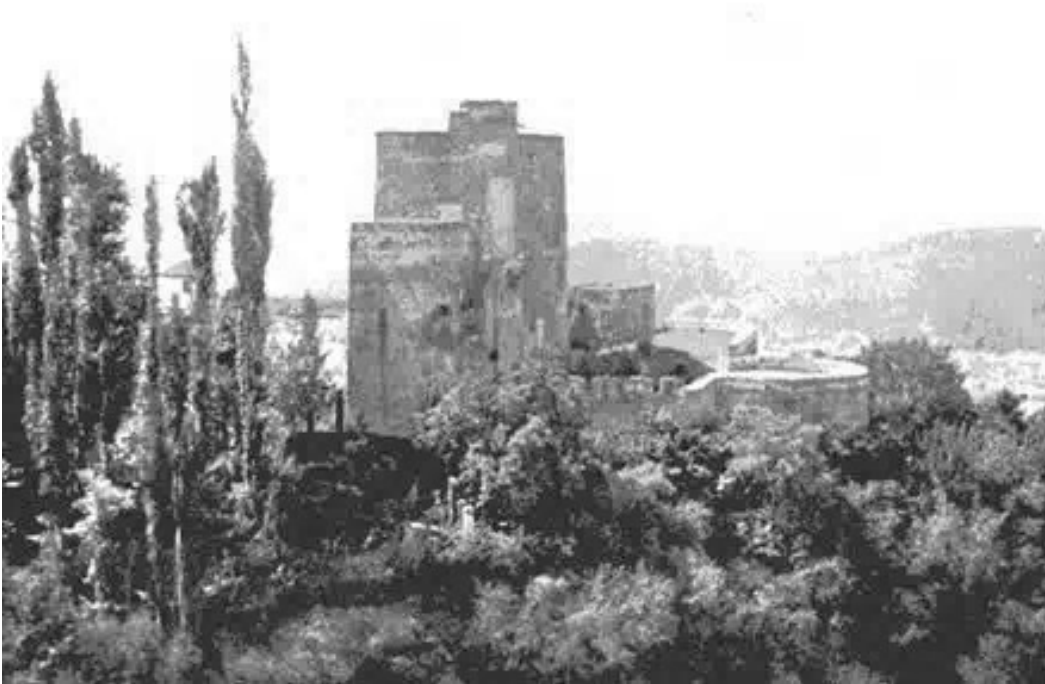
مسقط أفقي لقصر الحمراء في غرناطة



المسقط الأفقي العام لقصر الحمراء



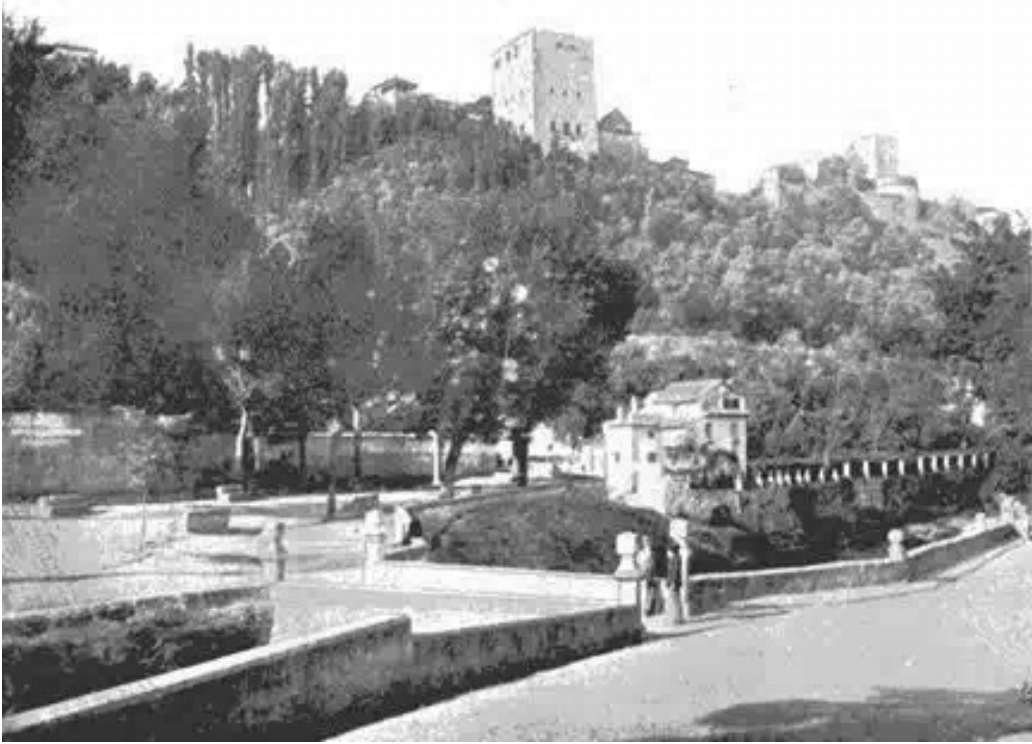
منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



الأبراج الحمراء من التحصينات



منظر لقصر الحمراء من جبل ساكرومونتِه



منظر عام لقصر الحمراء ونزهة ألغيبّيو Algibillo



منظر لقصر الحمراء من كويستا دِلِ چاپيث Cuesta del Chapiz



الأبراج الحمراء



منظر عام لقصر الحمراء



برج الآكام (الدُّرى)



برج الأميرات و برج الأسيرة



منظر لبرج الحراسة وغرناطة



منظر للتحصينات وبرج الحراسة



برج السقيية والسقيية ذاتها



باب الشريعة. تفصيلة لباب في فناء الآس



قصر الحمراء وجبال سييرا نيفادا



غرناطة، من برج العرفان (أوميناخه)



«غرفة لباس الملكة»، في قمة برج المحراب، وتُرى جنة العريف



باب الشريعة، شئده يوسف الأول



برج الآكام (الثرى)



برج الأسيرة



خارج المسجد، ملكية خاصة



برج السقية



الدرج الصاعد إلى الحمراء عبر كويستا ديل ري چيكو *Cuesta del Rey Chico*



برج السيدات



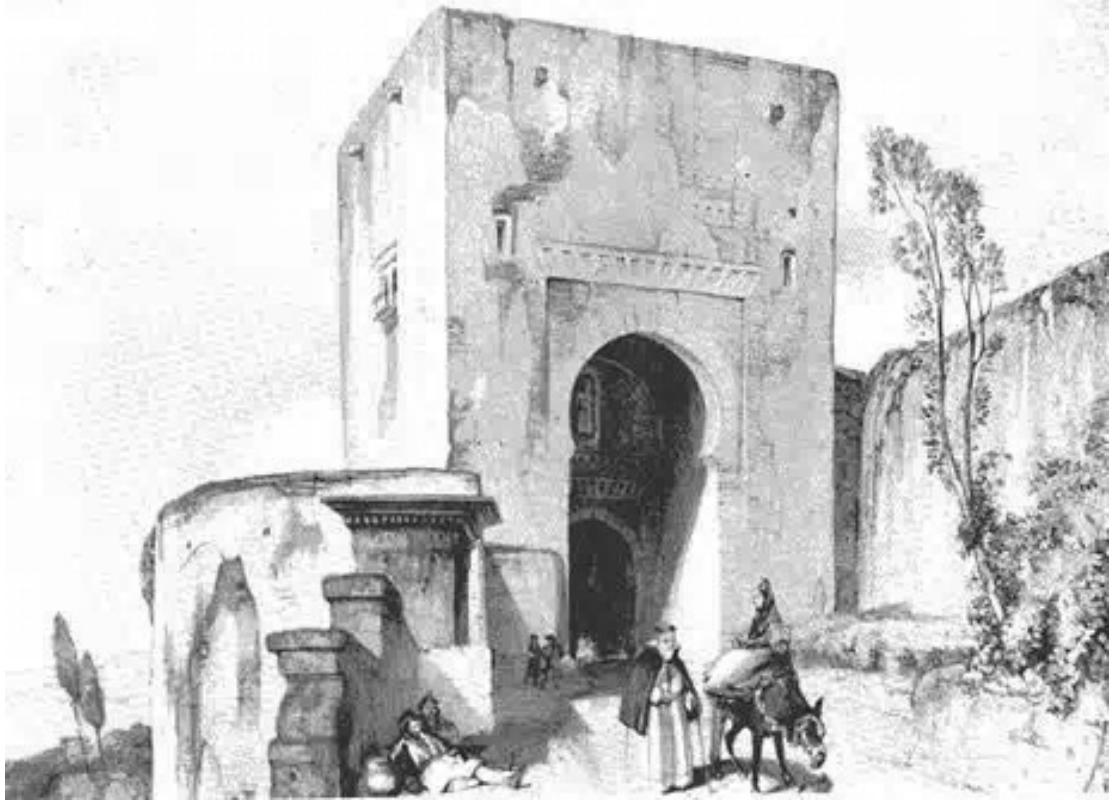
جزء من الحمراء، في خارجها



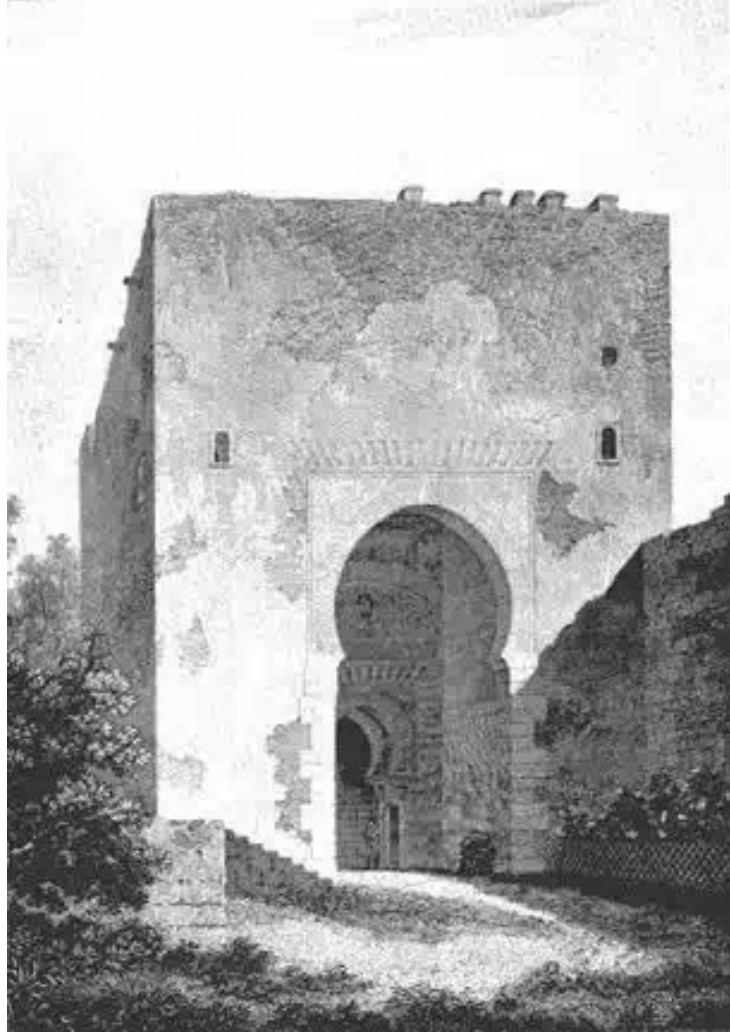
برج العرفان (أوميناخه). أطلال عربيّة قديمة في القصبة



باب الشريعة، قصر الحمراء



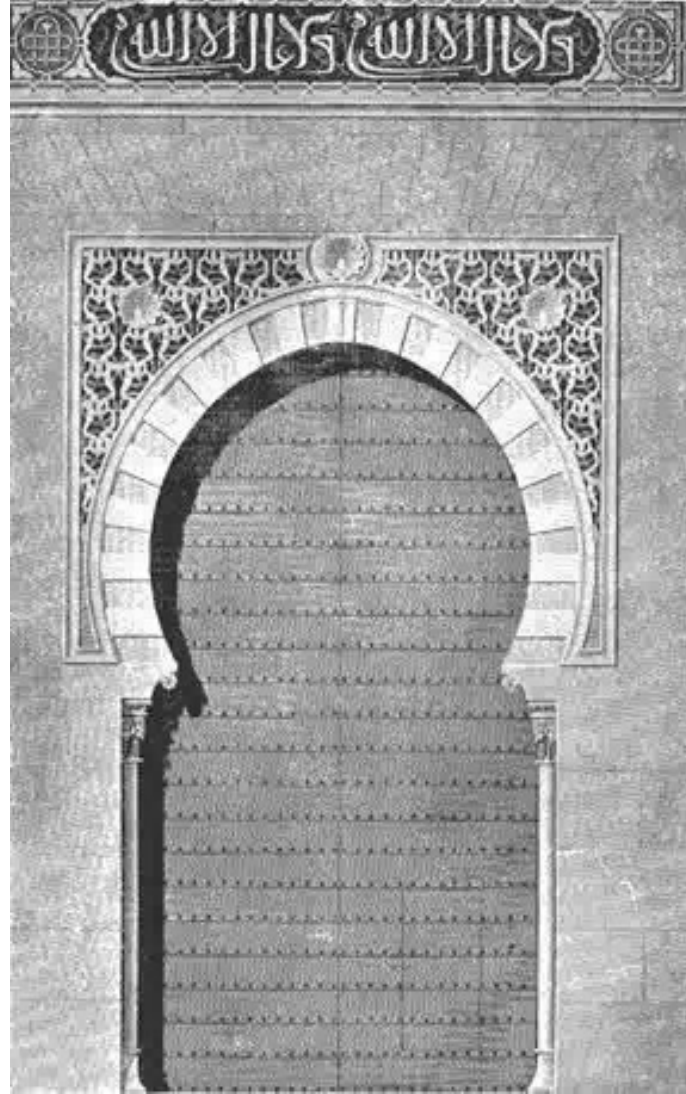
باب الشريعة (رسم)



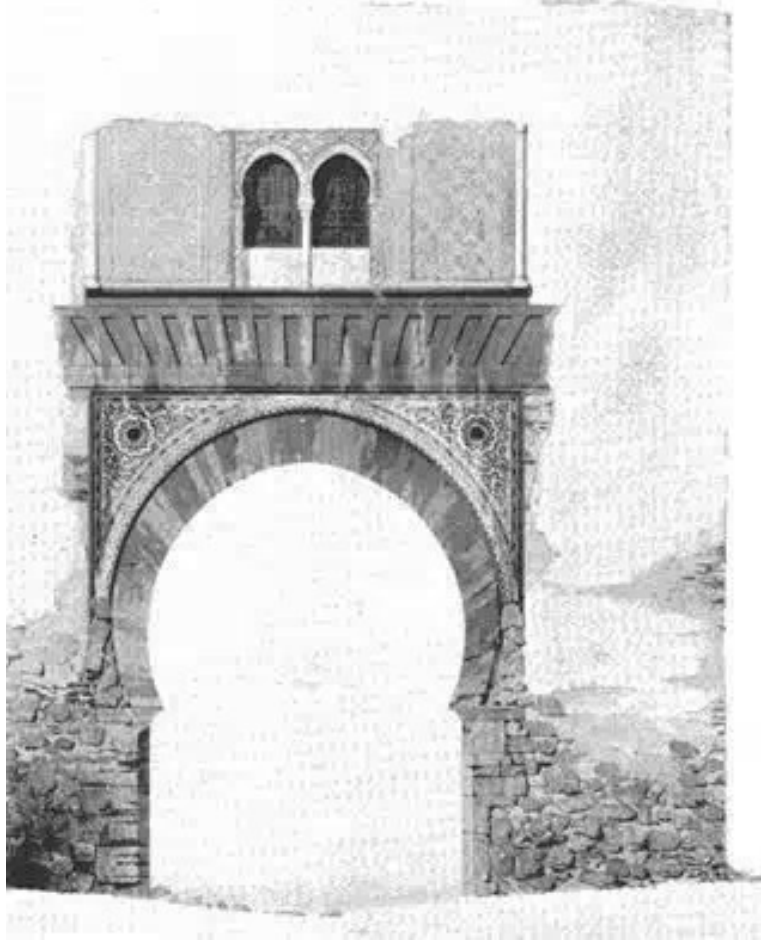
باب الشريعة



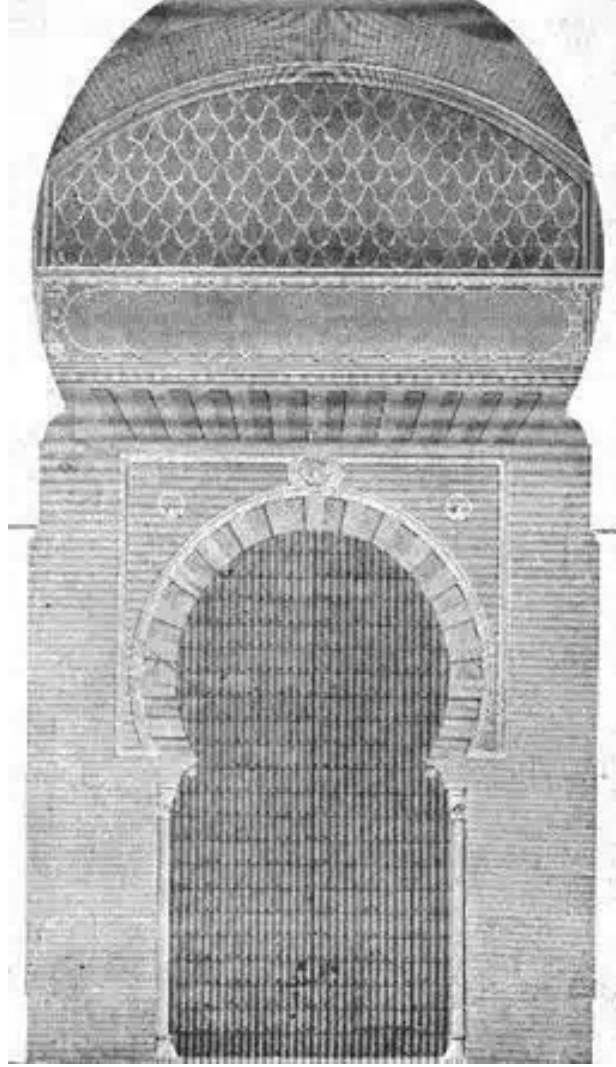
مخطّط وارتفاع وتفاصيل باب الشريعة (لاخوستيا)



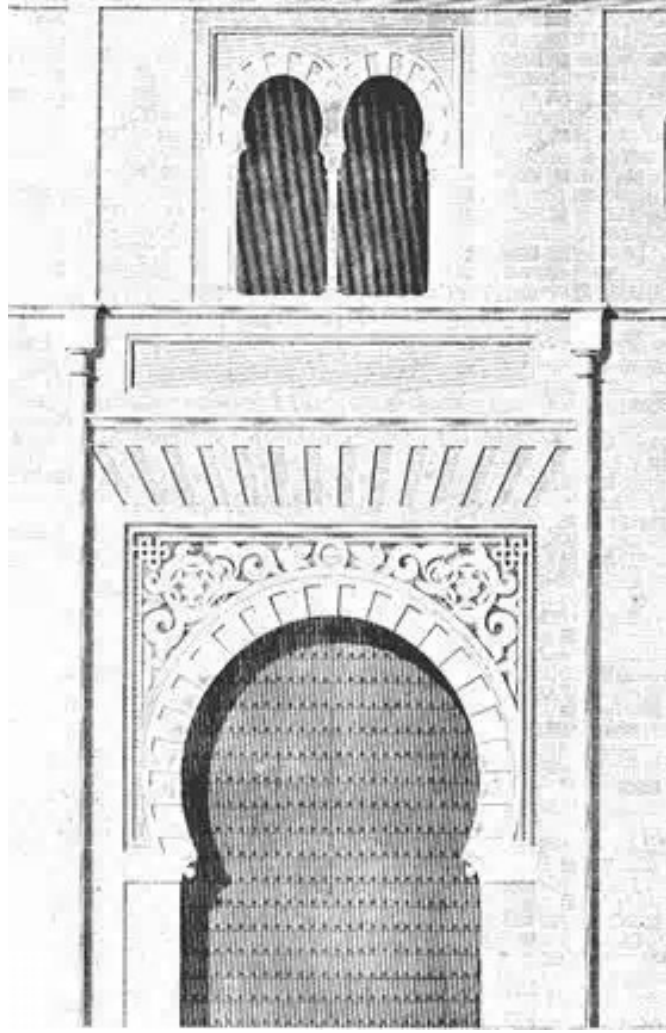
ارتفاع باب الشريعة القديم



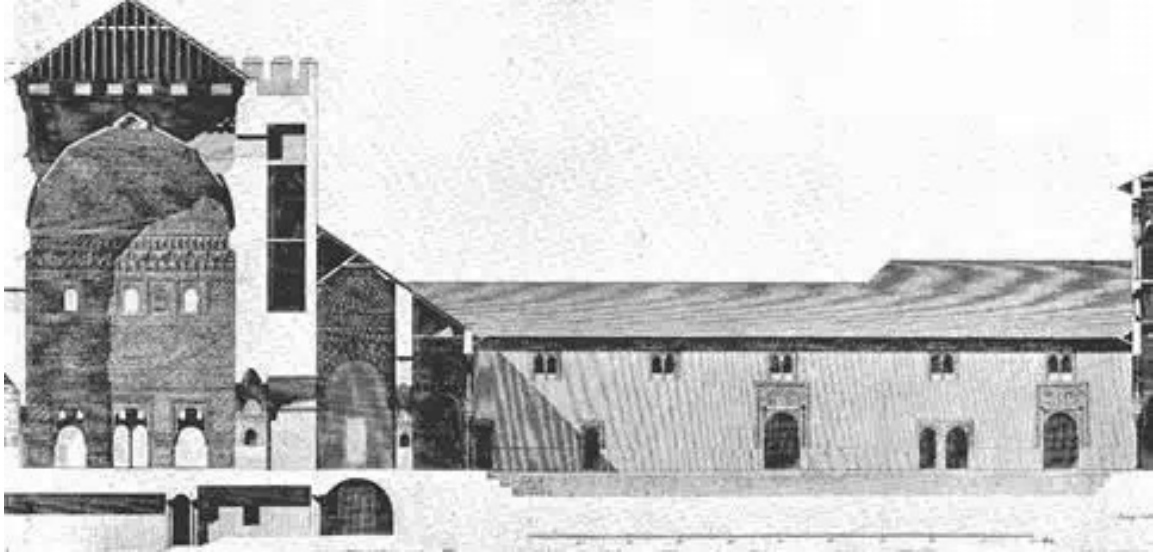
بَوَابَةٌ تَدْعَى بِالتَّعْبِيرِ الدَّارِجِ بَابُ التَّيْبِذِ



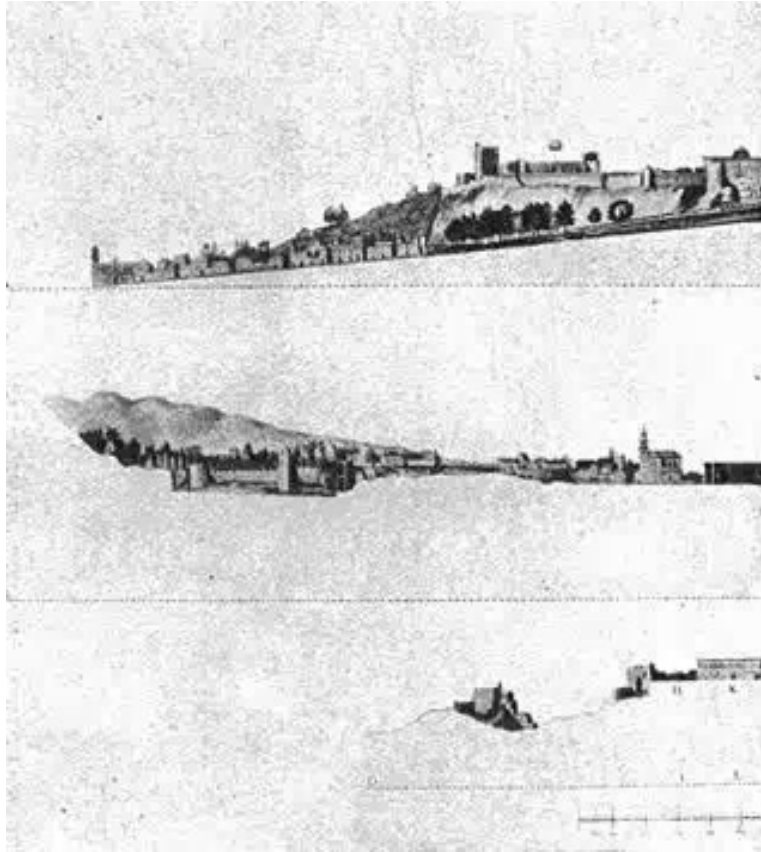
مدخل مرّوق لباب القضاء



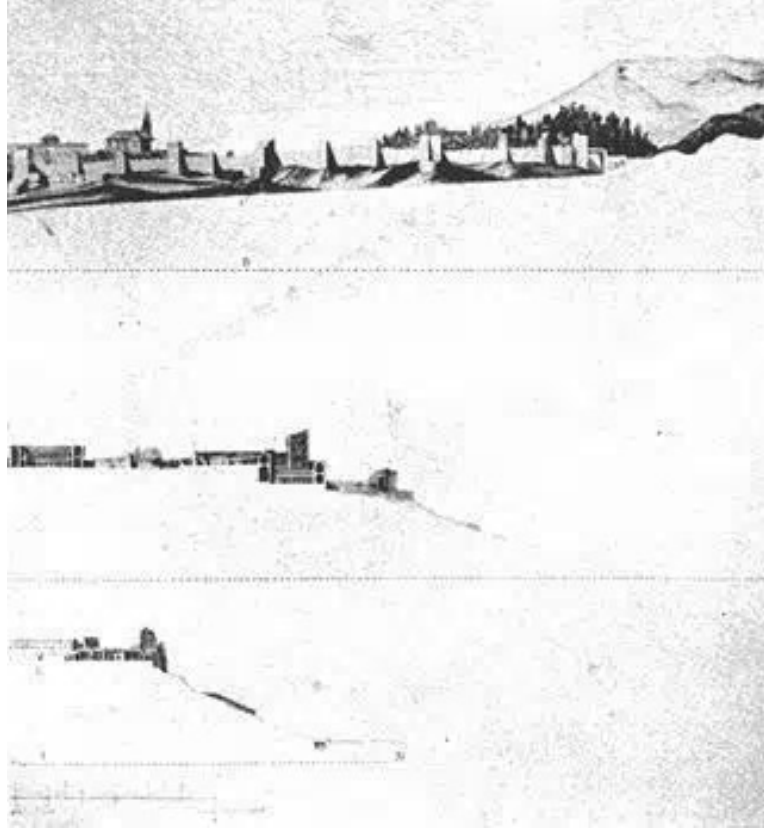
ارتفاع باب النبيذ



مقطع عرضي لقسم من قصر الحمراء



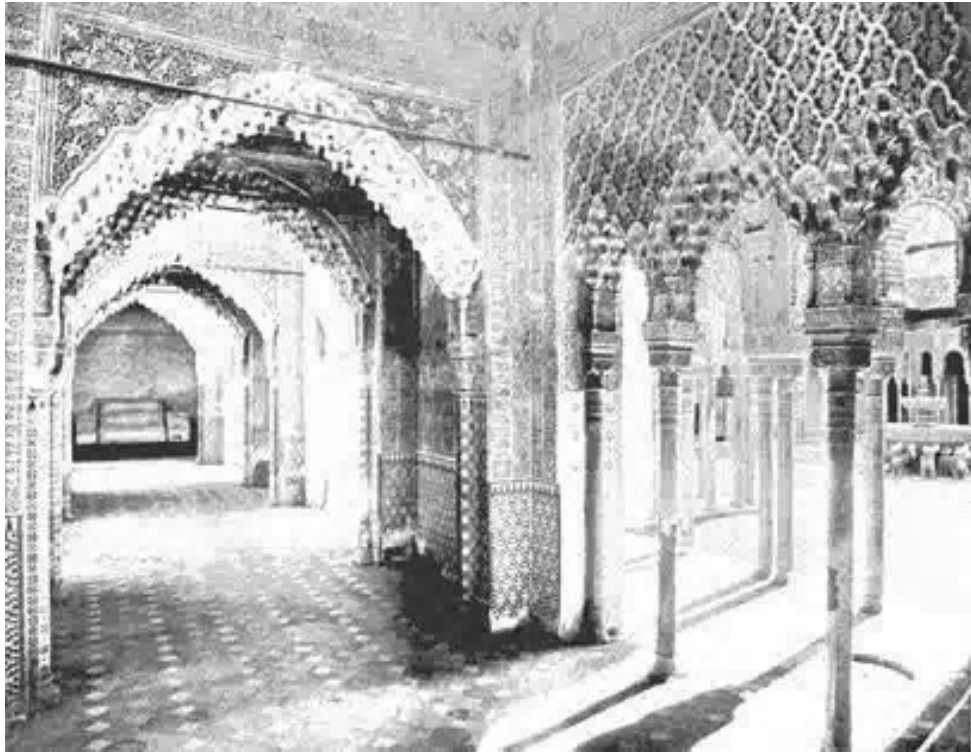
مقطع يظهر ارتفاعات قصر الحمراء



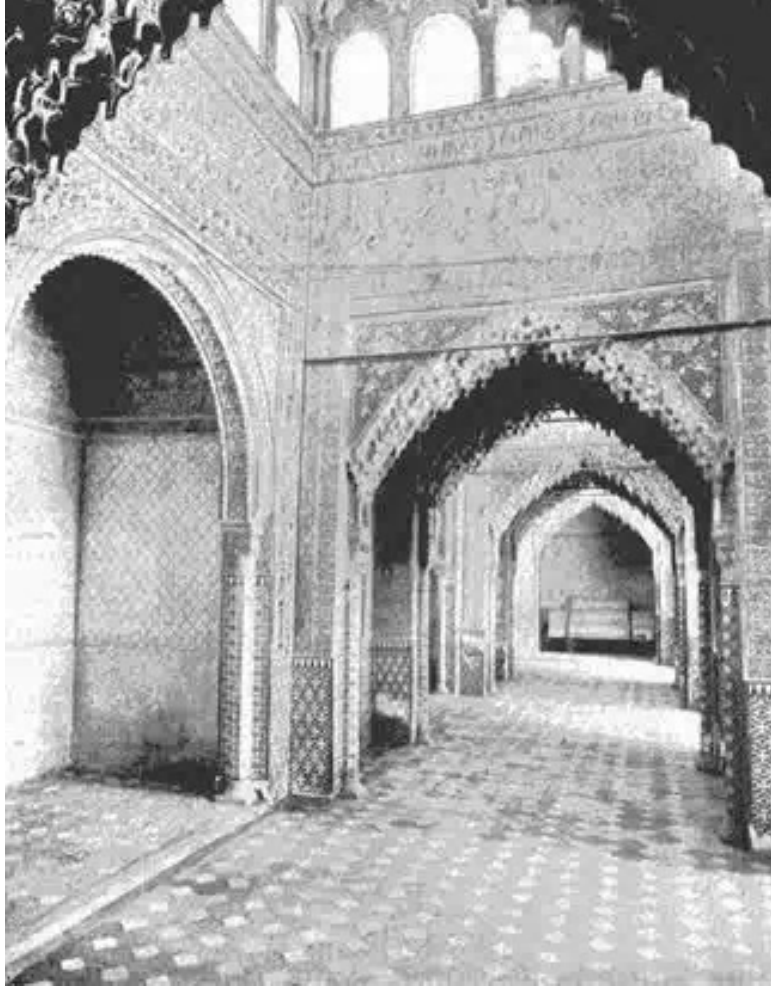
مقطع يظهر ارتفاعات قصر الحمراء



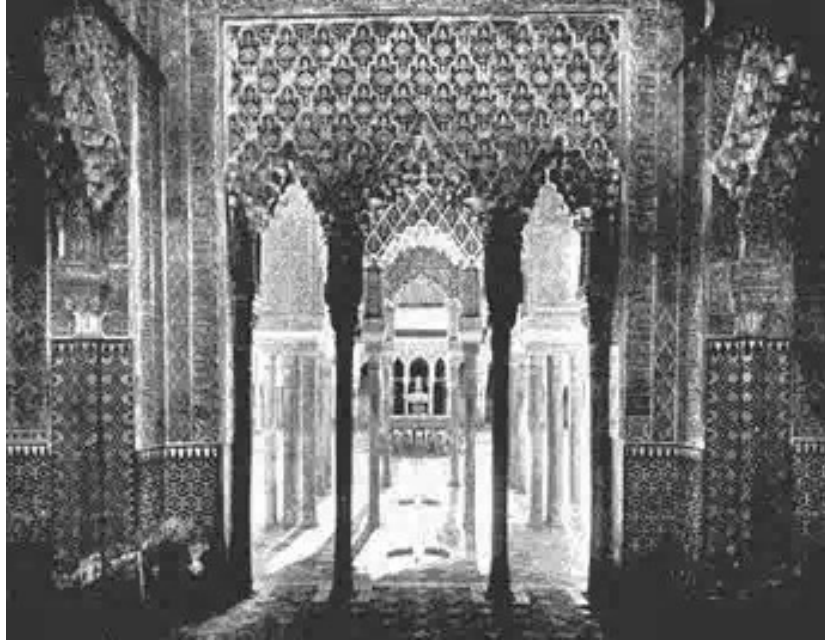
نزهات عند مدخل قصر الحمراء



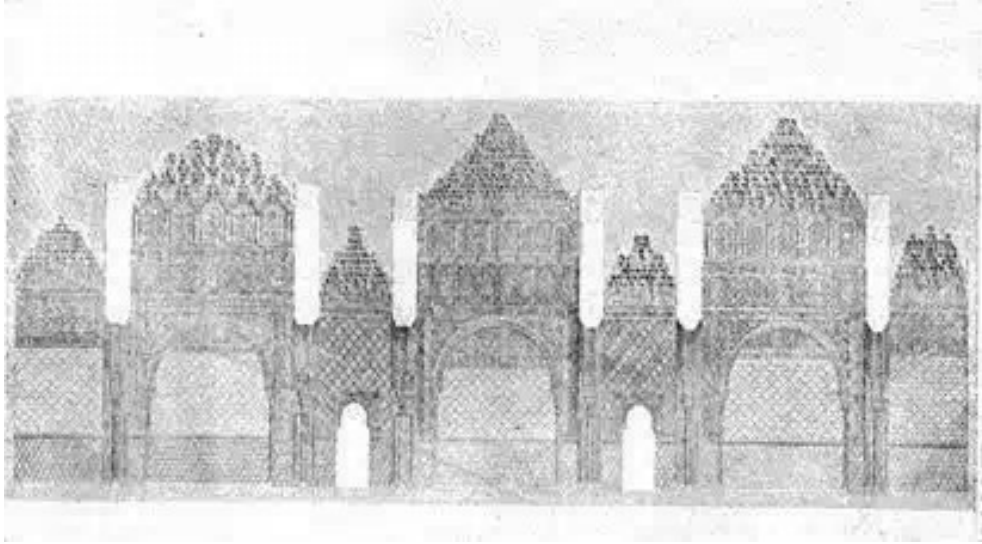
قاعة الشريعة وبهو السباع



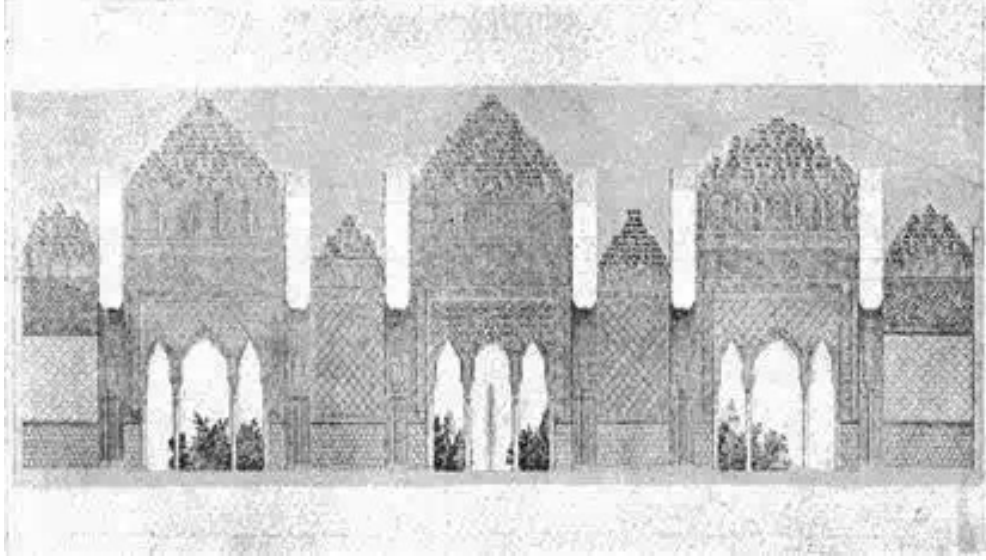
قاعة الشريعة. الجانب الأيسر



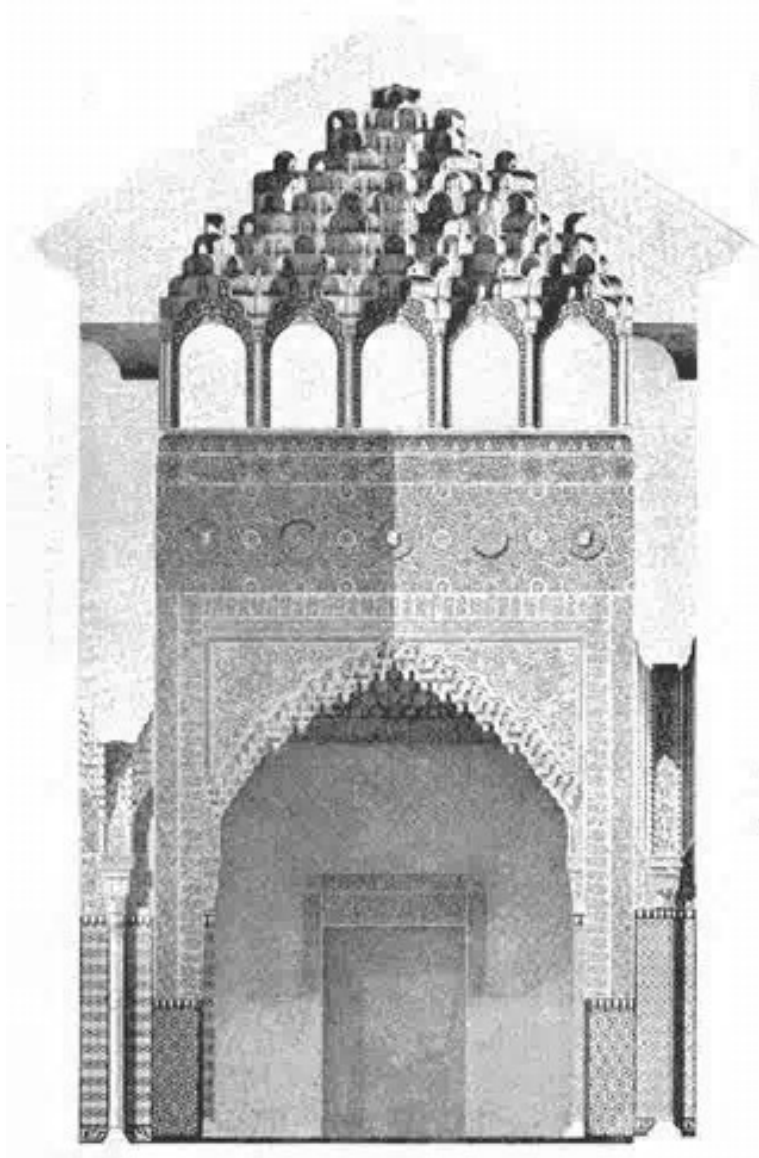
قاعة الشريعة، وتظهر نافورة بهو السباع



مقطع لقاعة الشريعة، (إلى جهة الشرق)



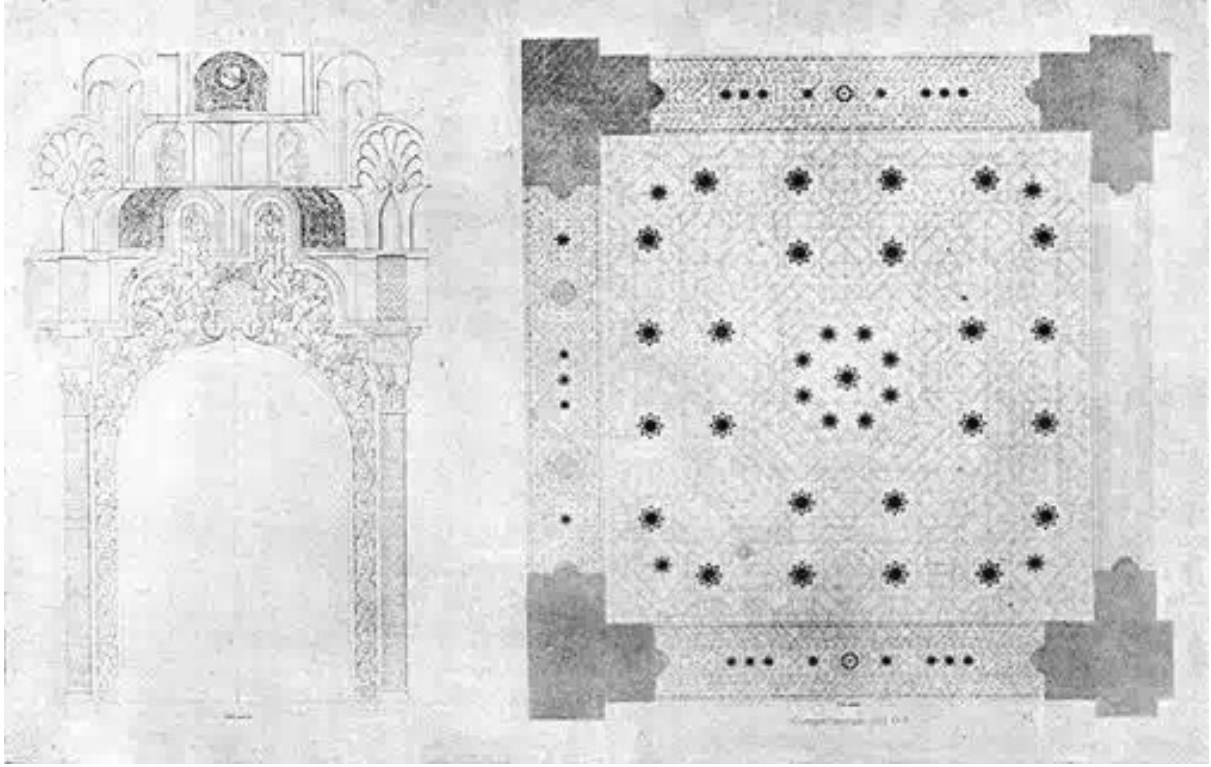
مقطع لقاعة الشريعة، (إلى جهة بهو السباع)



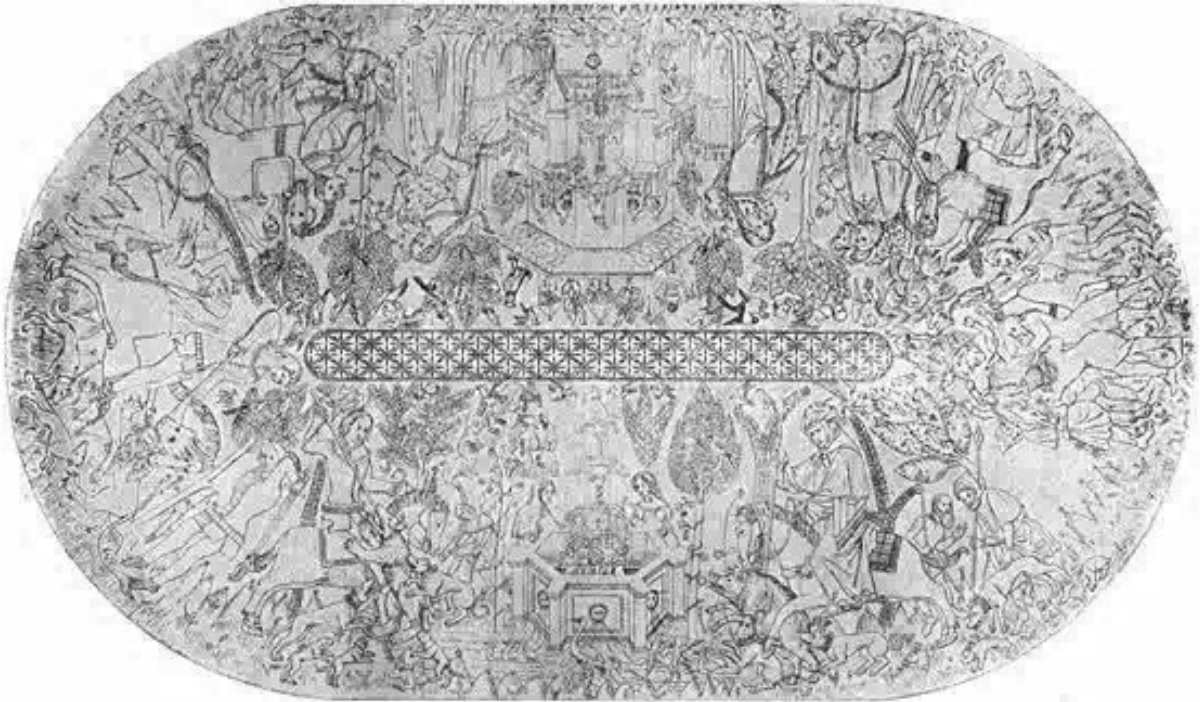
مقطع عمودي لقاعة الشريعة



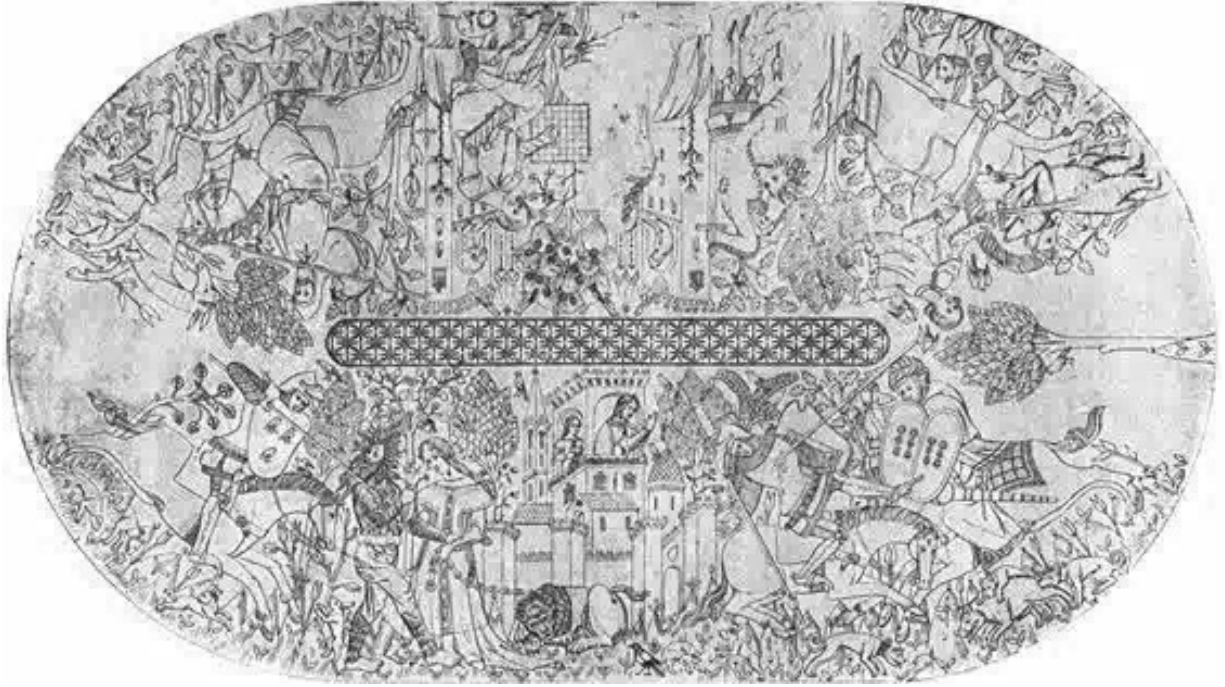
تفاصيل من قاعة الشريعة



مخطط ونوافذ قاعة الشريعة



رسوم على سقف قاعة الشريعة. رقم 1



رسوم على سقف قاعة الشريعة. رقم 3



جزء من لوحة في قاعة الشريعة: المسلم عائداً من الصيد



قاعة الشريعة: مقتل الأسد على يد فارس مسيحي



جزء من لوحة في قاعة الشريعة تمثل فارساً مسيحياً ينفذ فتاة من ساحر شرير،
أو رجل البر المتوحش



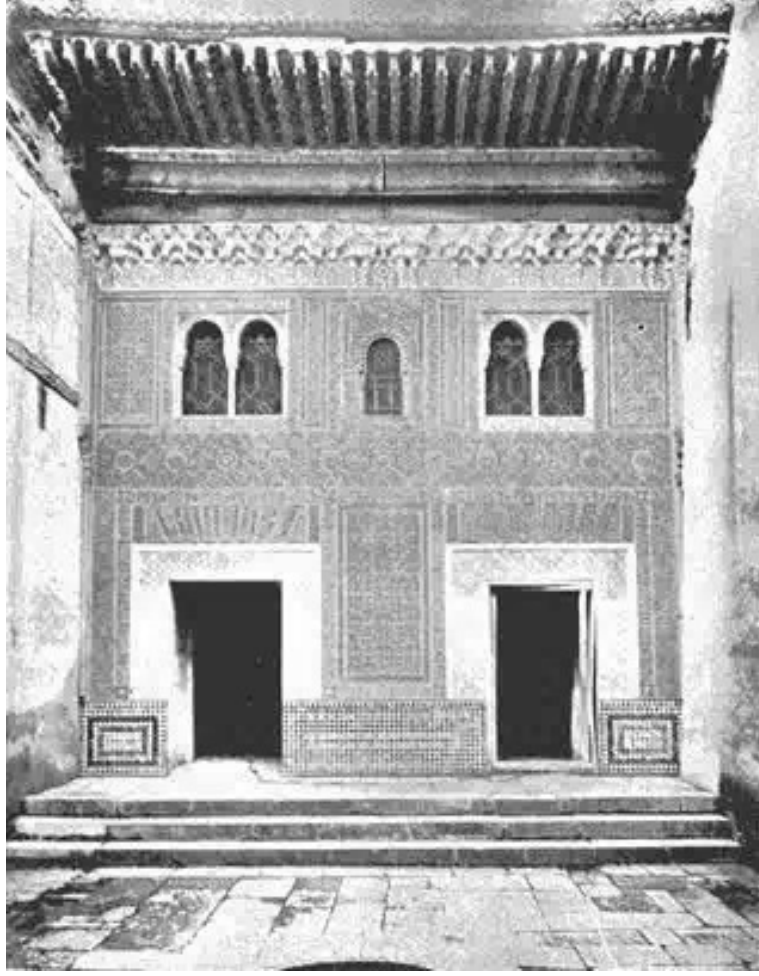
جزء من لوحة في قاعة الشريعة: صياد مسلم يقتل الخنزير البري



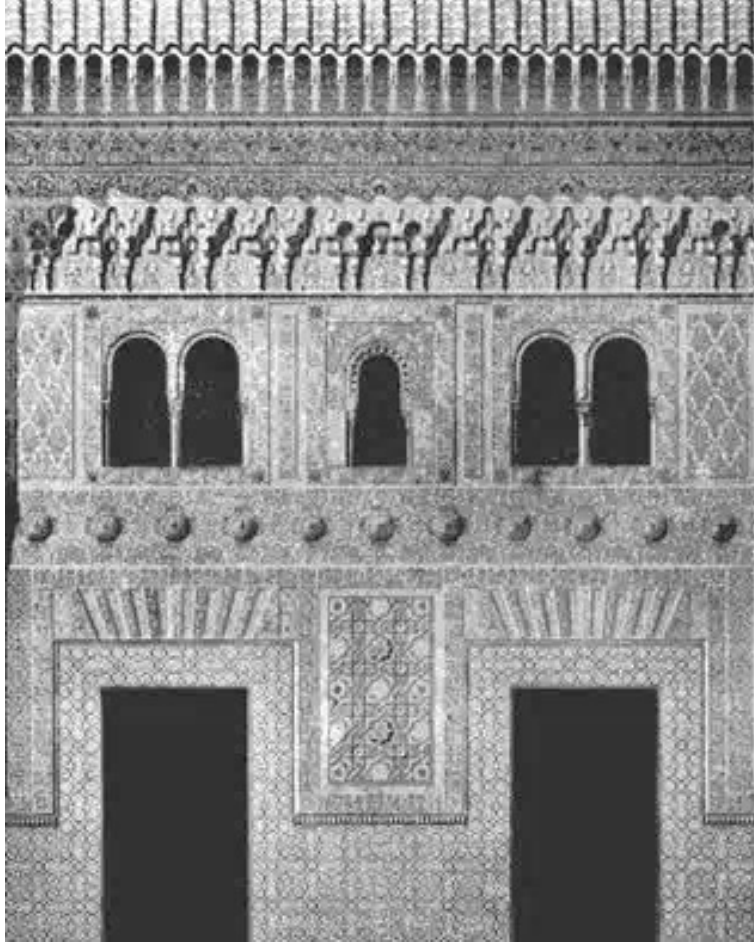
قاعة الشريعة: ثلاثة أشخاص من لوحة المحكمة الإسلامية



المسجد وجنة العريف



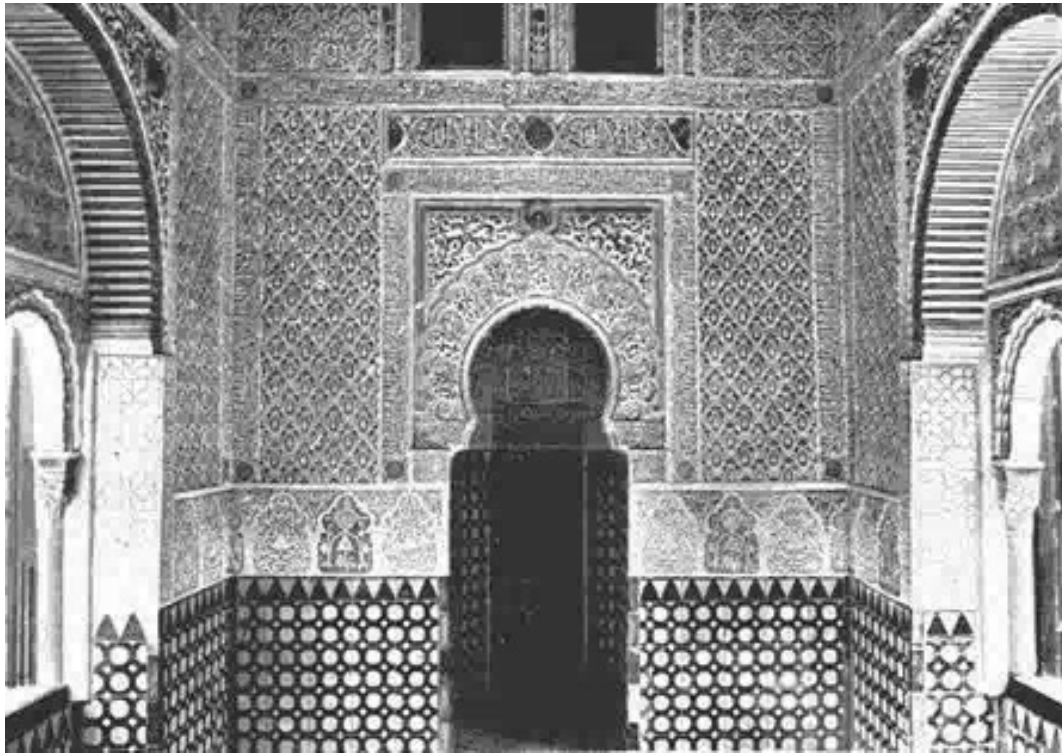
صحن المسجد



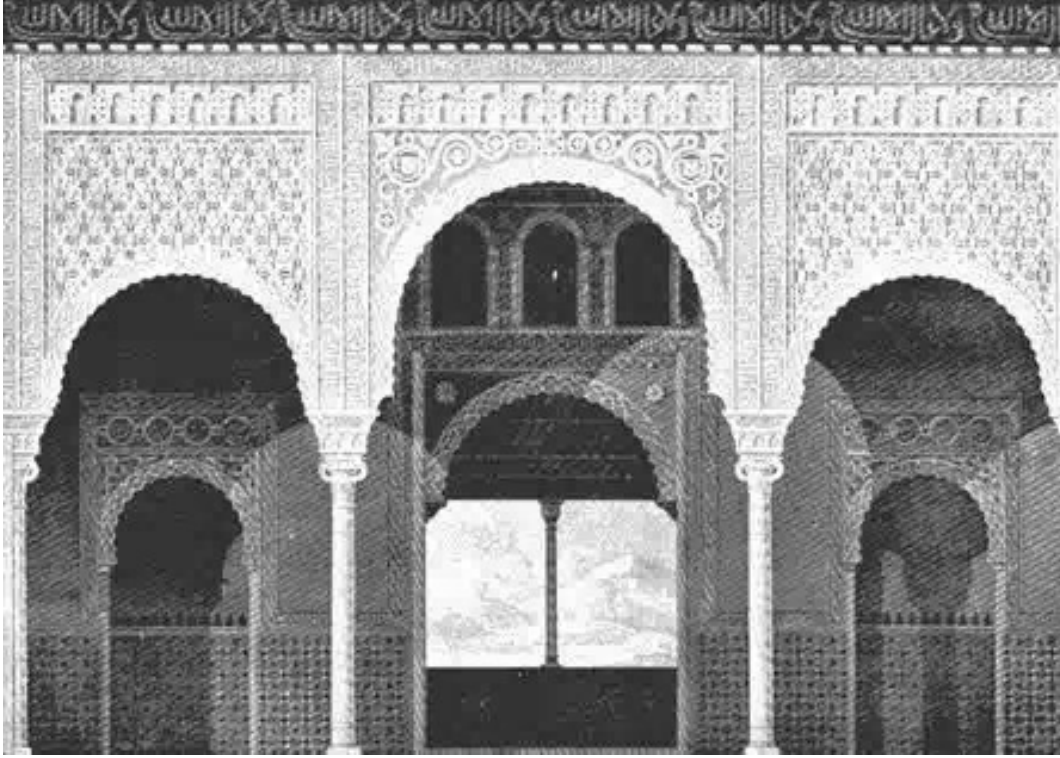
واجهة المسجد



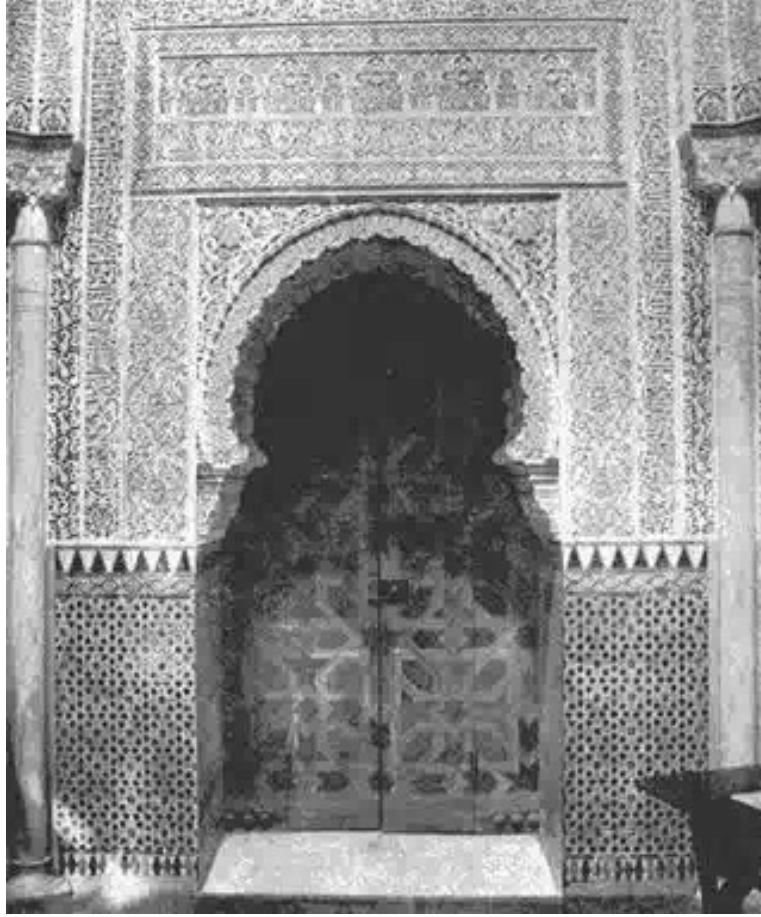
داخل المسجد في قصر الحمراء



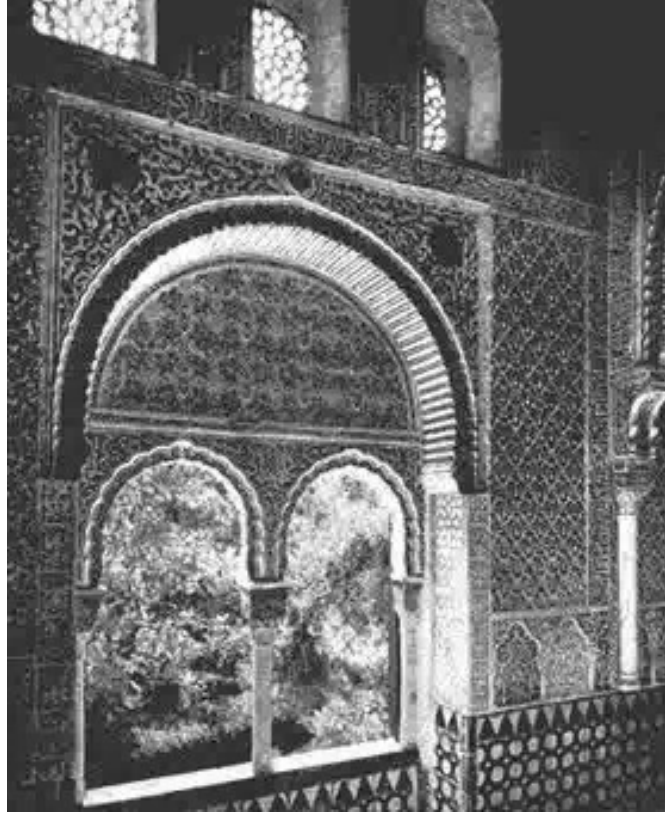
داخل المسجد



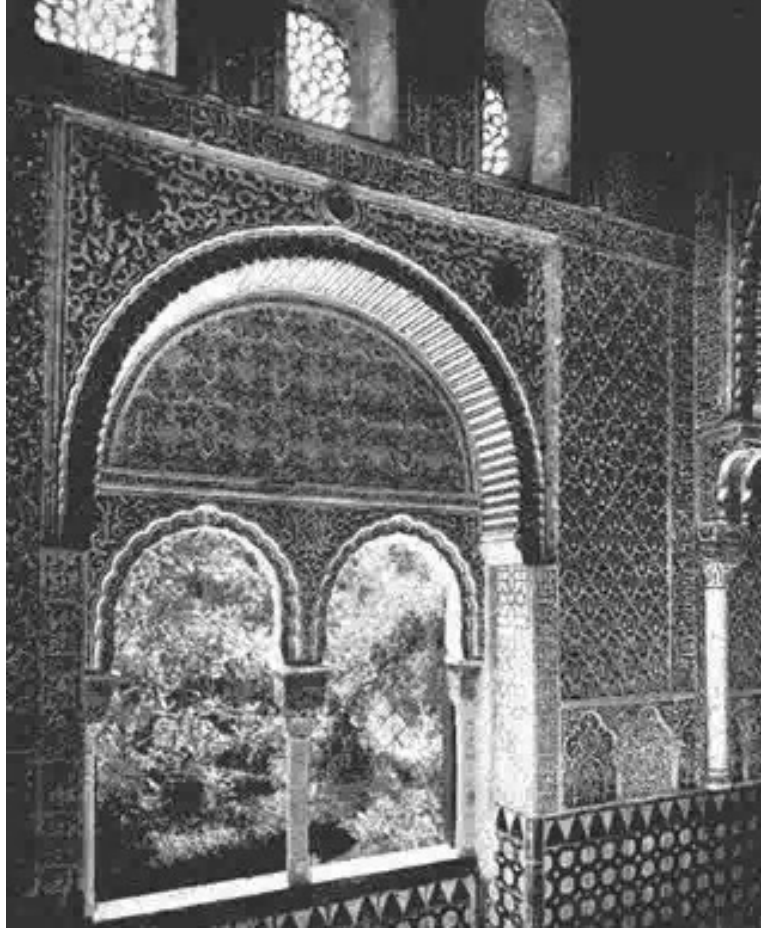
ارتفاع الترواق المحاذي للمسجد



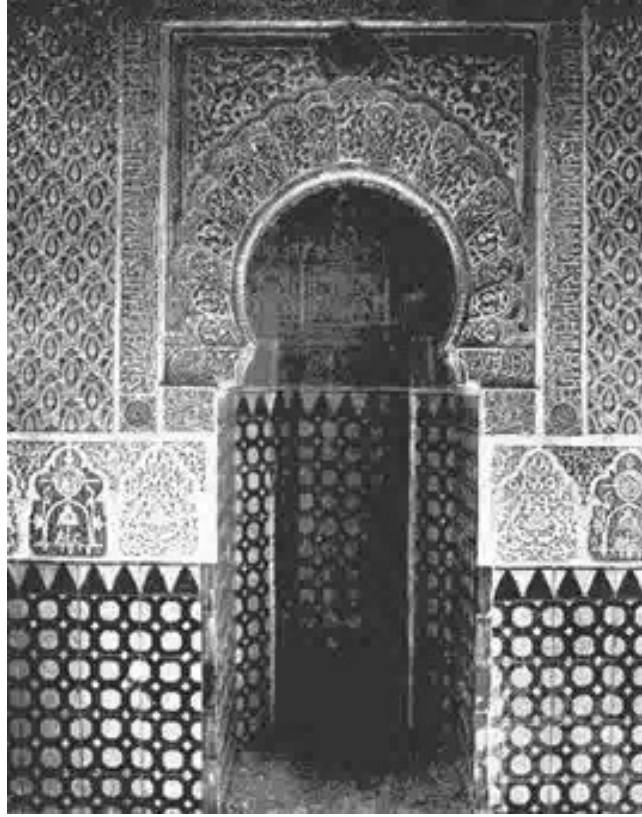
تفصيل لباب الدخول إلى المسجد



نافذة مقوسنة في المسجد



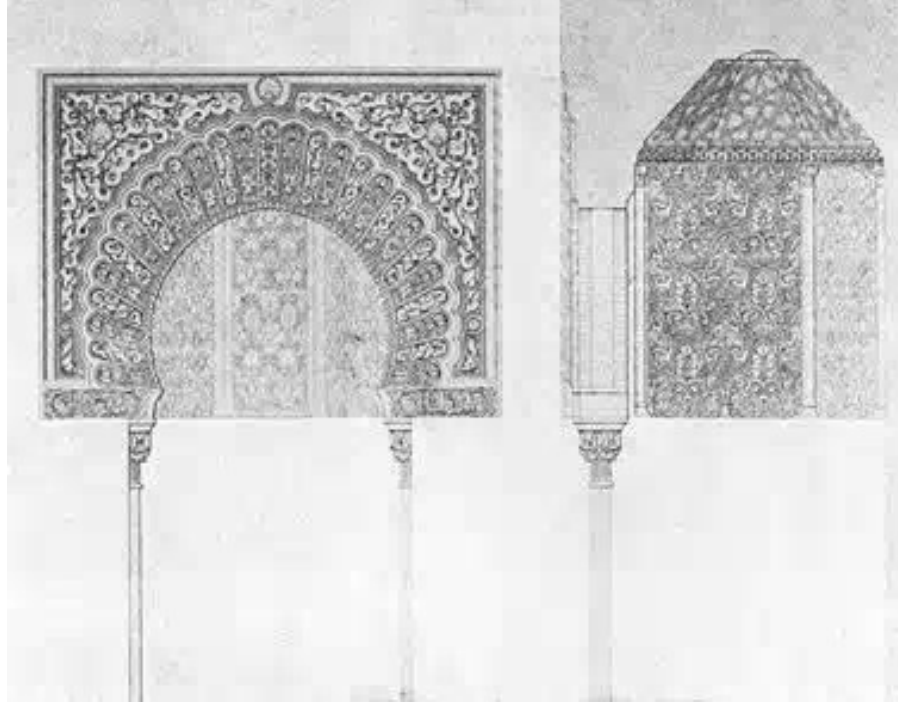
نافذة مقوسنة في المسجد



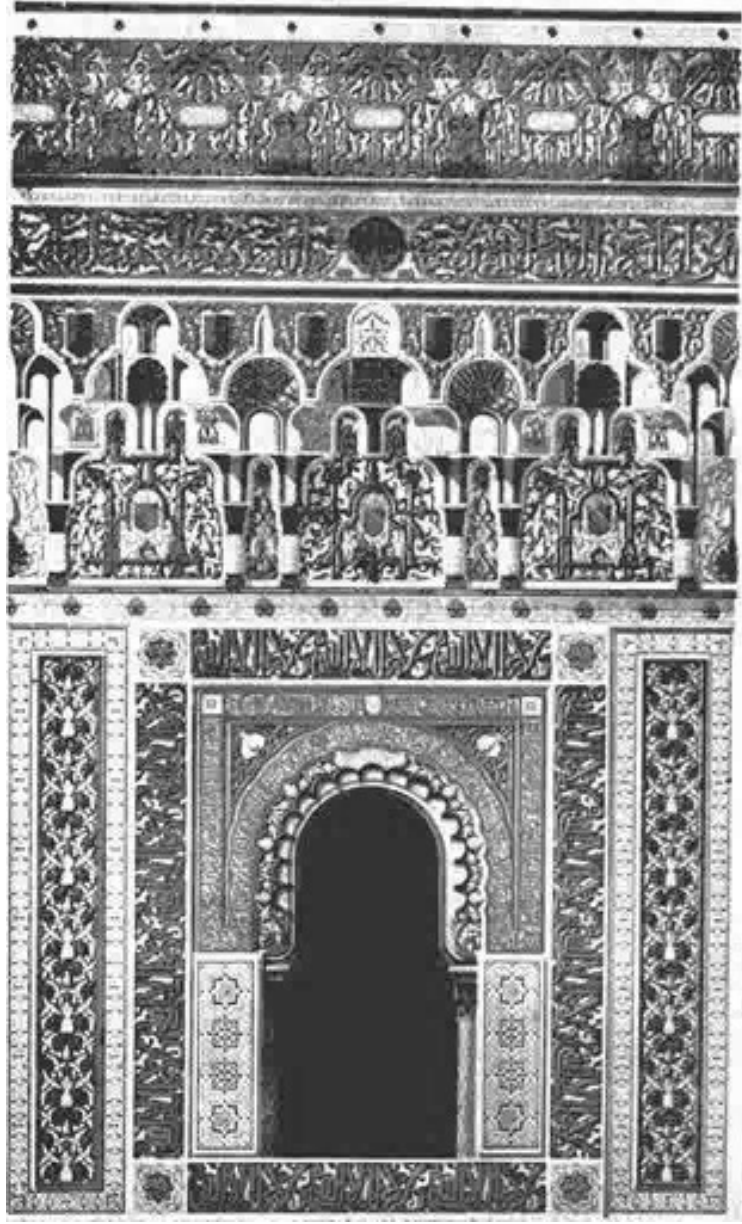
حنية المحراب في المسجد، مكان اغتيال يوسف



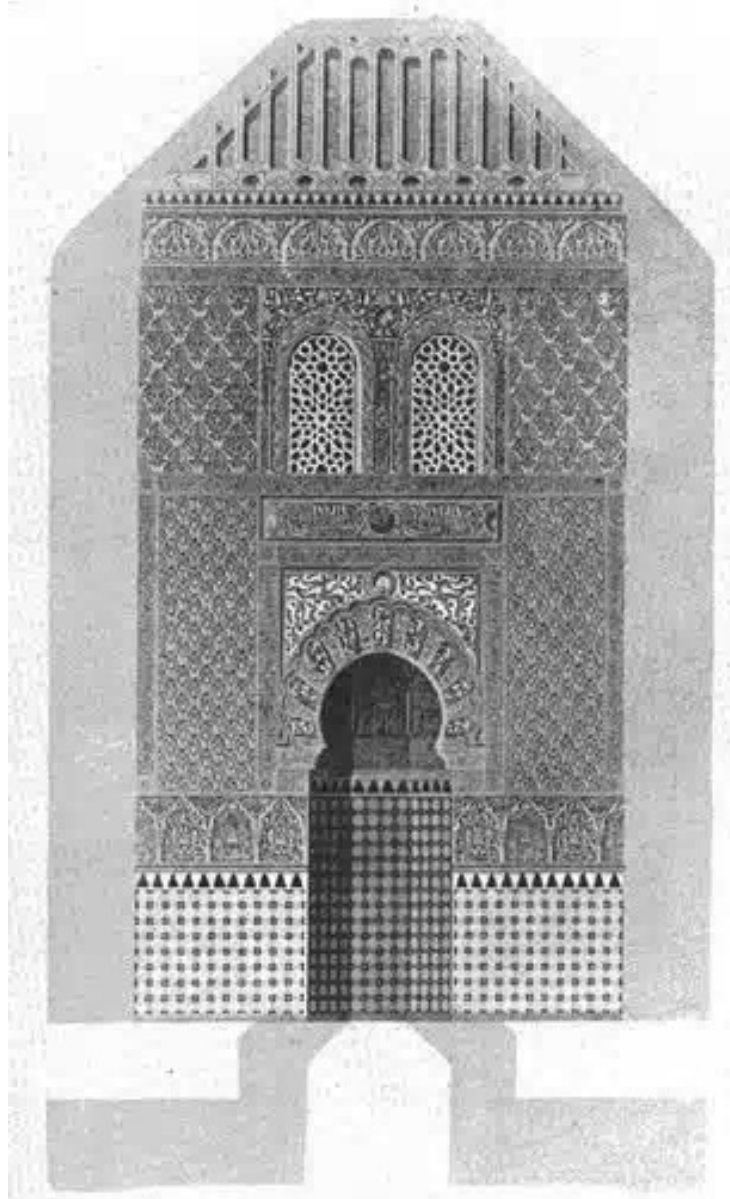
المسجد من حنية المحراب



تفاصيل زخرقية لحنية المحراب قرب باب الدخول إلى المسجد



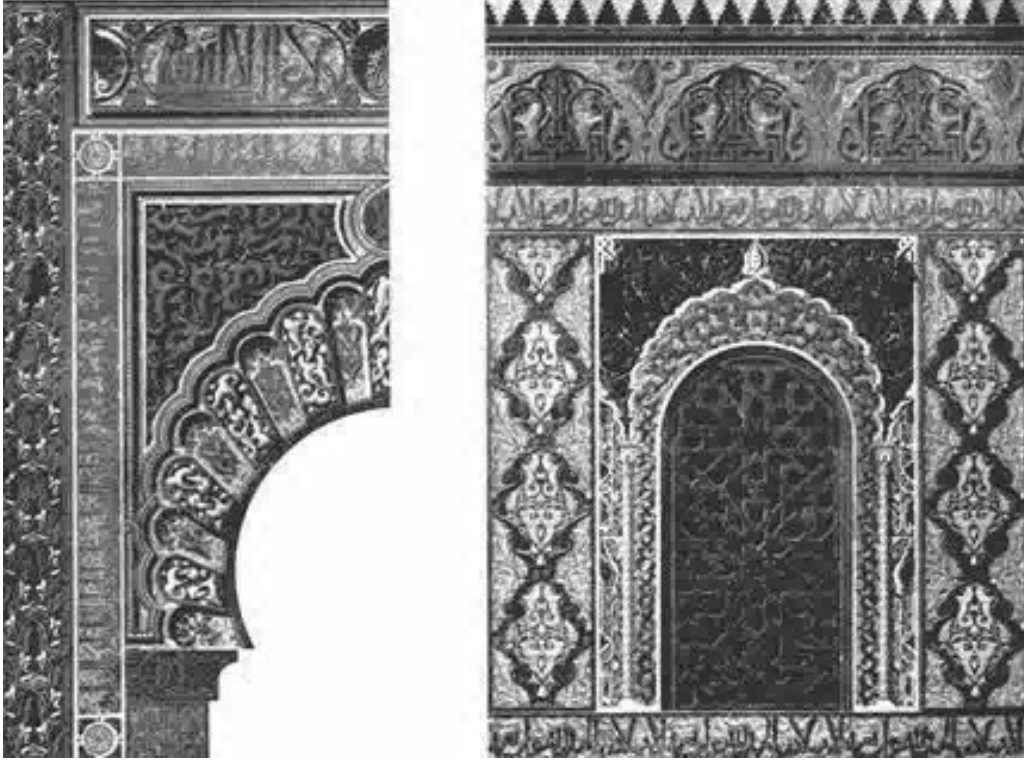
طنف زخرفي ونافذة في واجهة المسجد



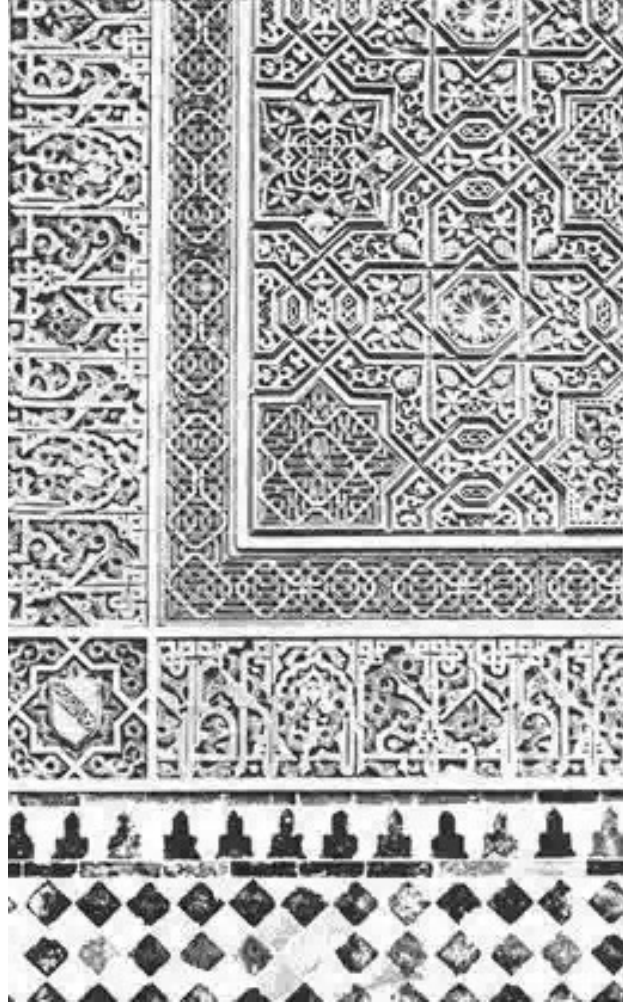
مقطع عمودي للمسجد



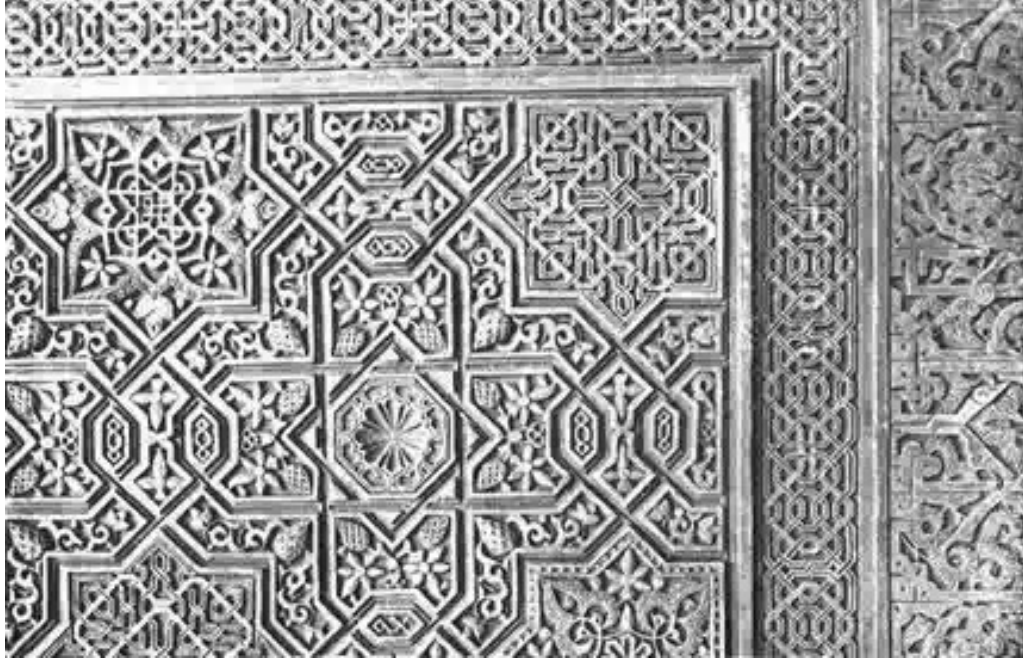
ثريا عربية في المسجد



تفاصيل لجهة مسجد الحرم



تفاصيل لزخرفة في صحن المسجد



تفاصيل في صحن المسجد، الواجهة الشرقية



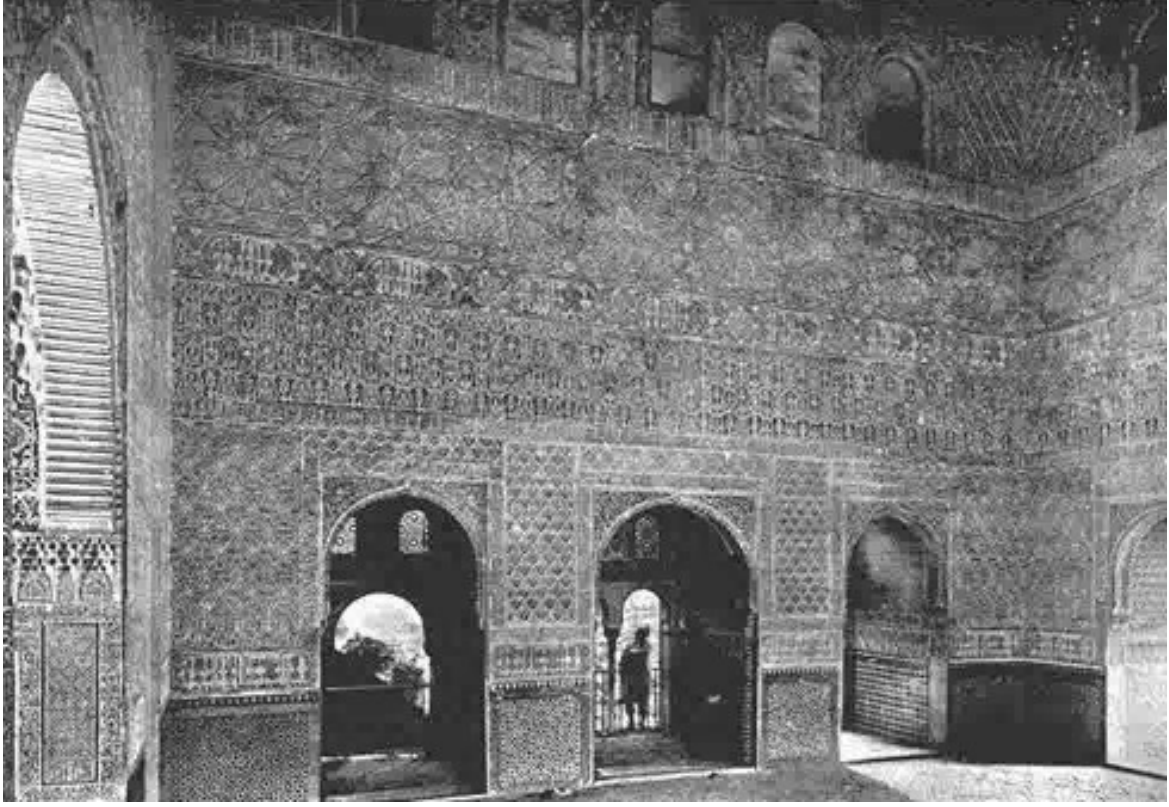
زخرفة في لوح، صحن المسجد



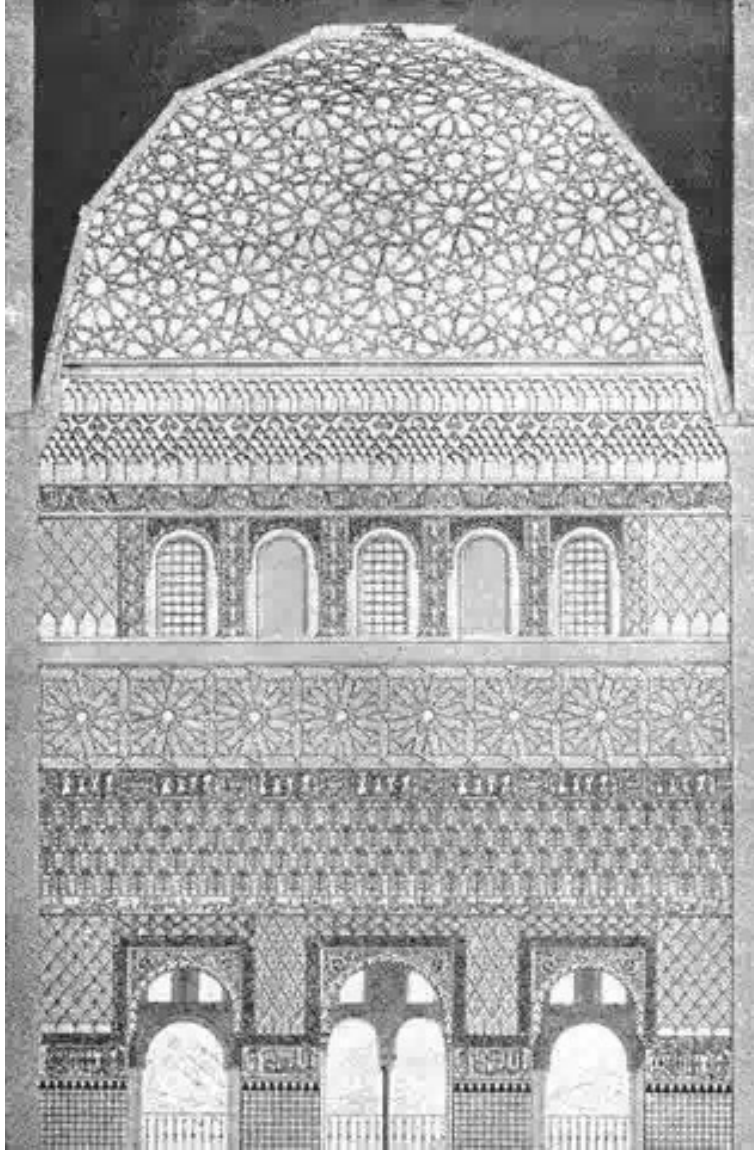
نافذة في قاعة السُّفراء



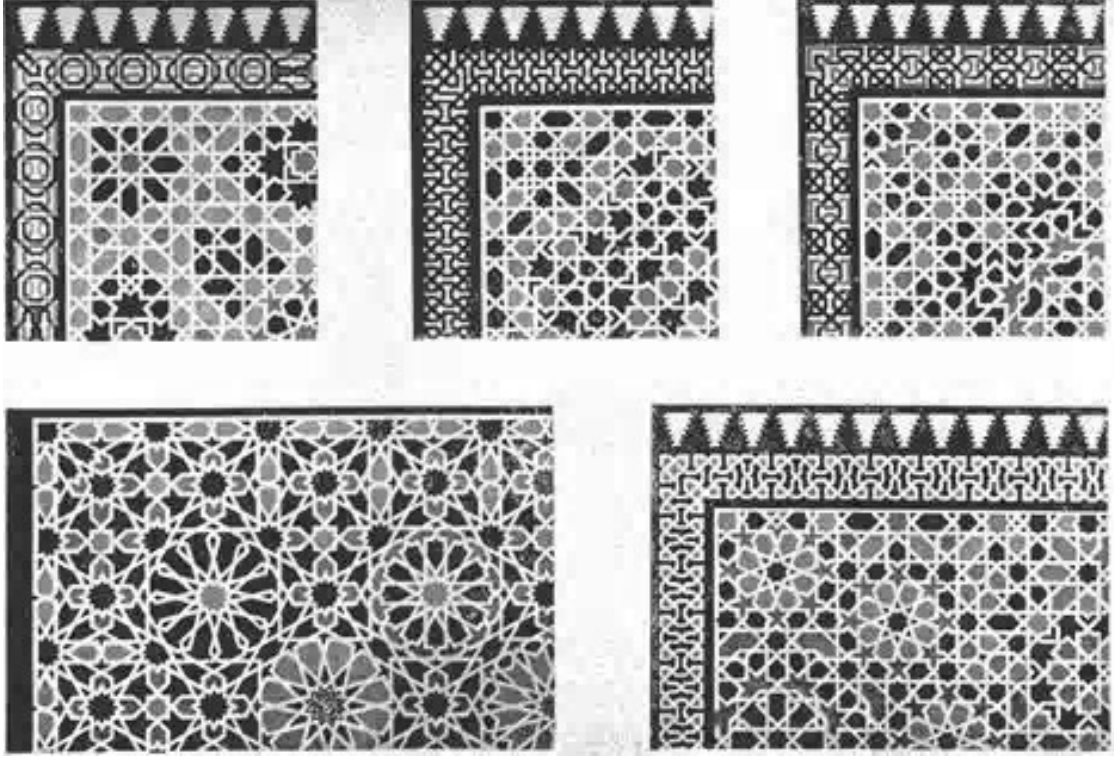
المدخل إلى قاعة السفراء



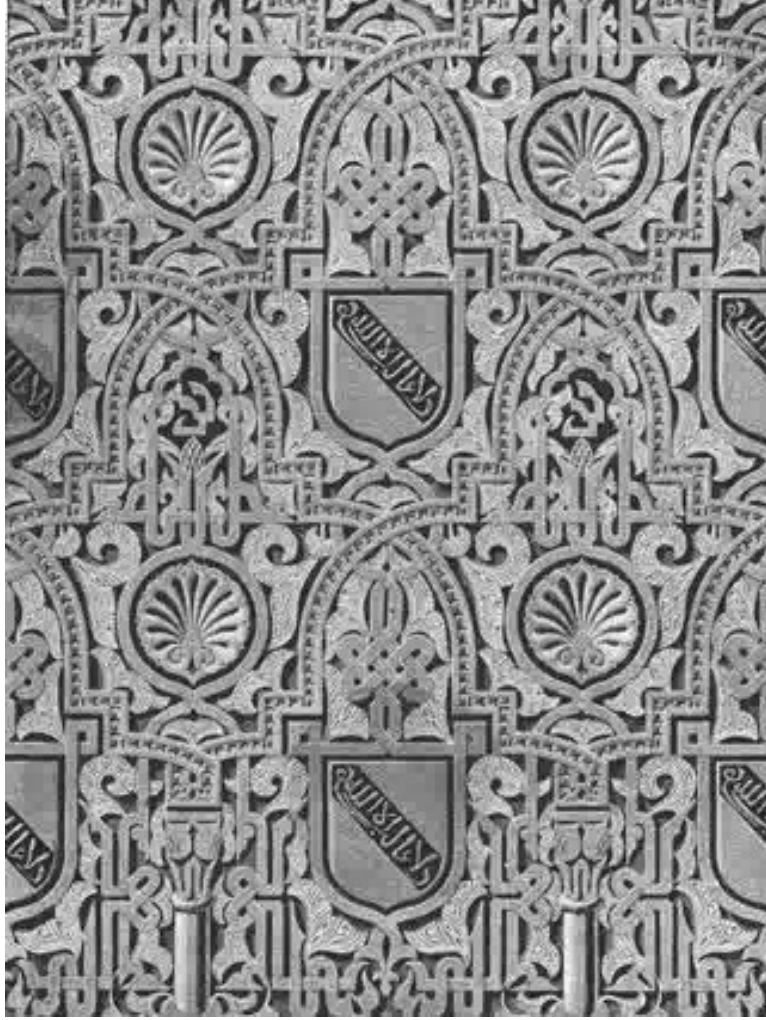
قاعة السُّفراء



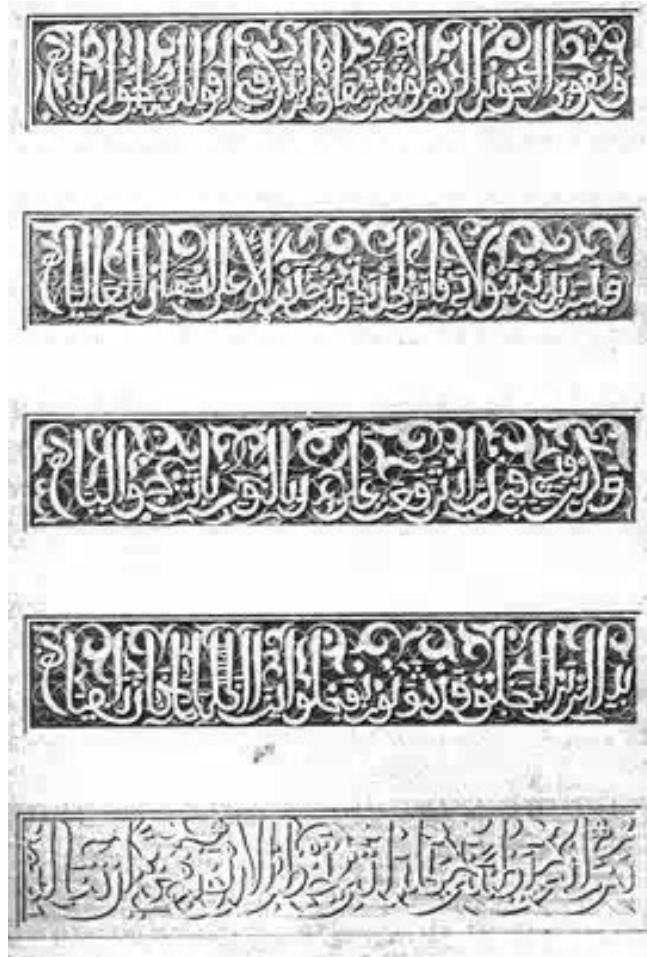
مقطع وارتفاع داخل قاعة السفراء



أعمال اللوحات المرسومة بألوان شمعية في قاعة السفراء



زخرفة في لوح، قاعة السفراء



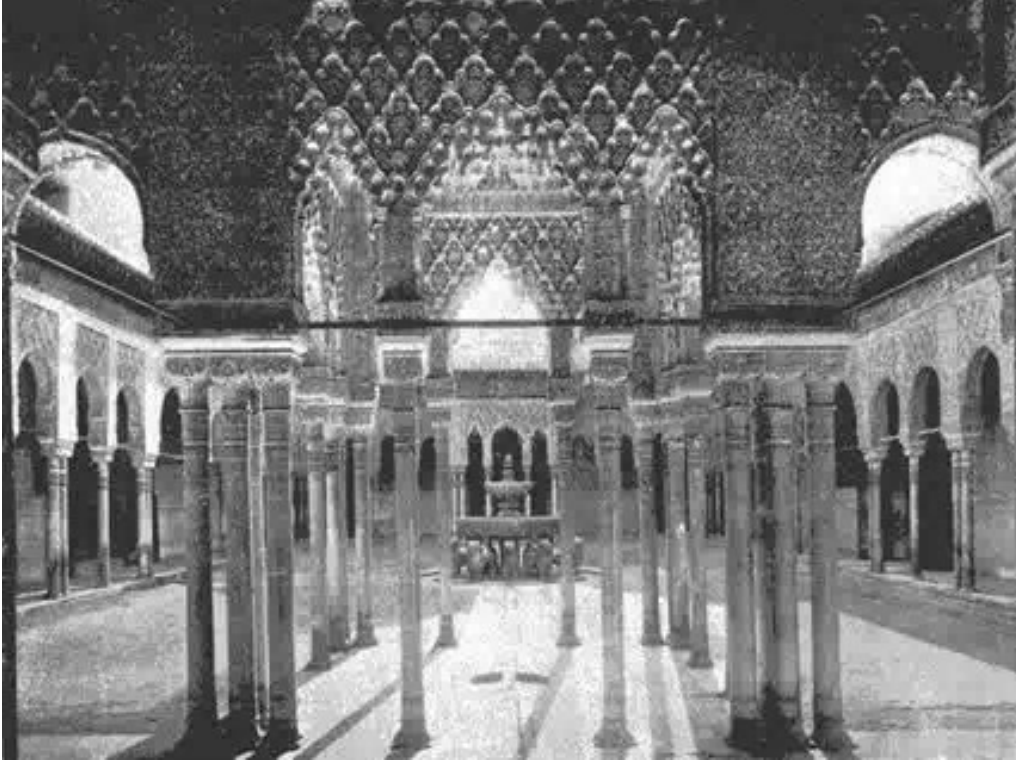
نقوش كتابية في قاعة السفراء



نقوش كتابية كوفية، قاعة السفراء

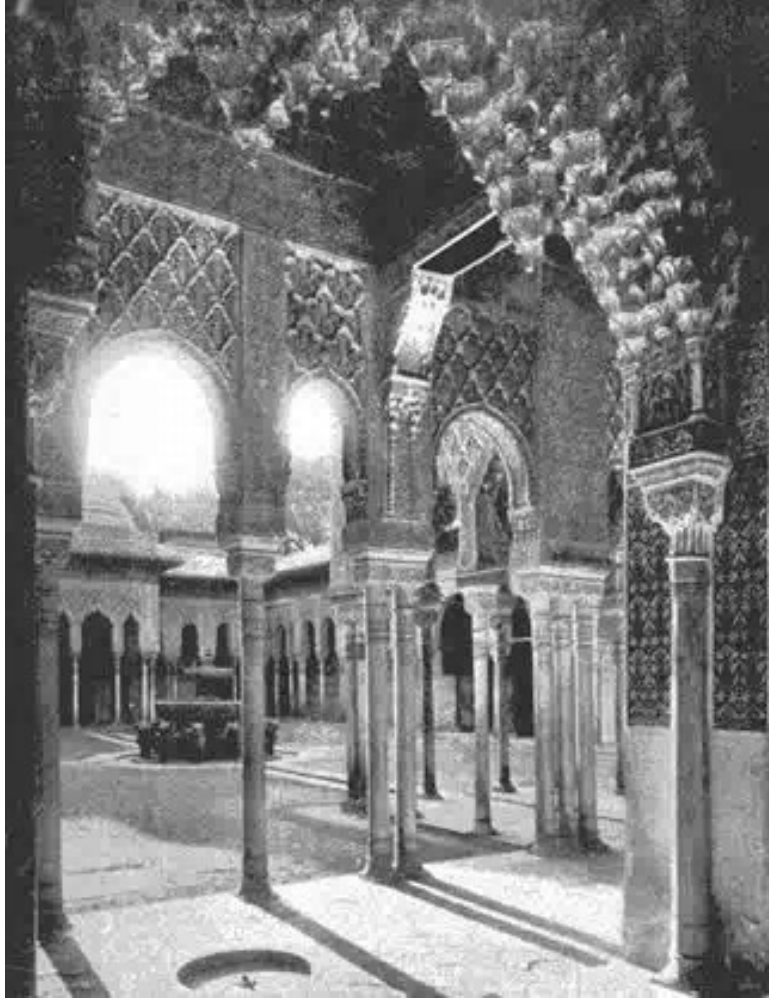


«ولا غالب إلا الله»، الشّعار الشّهير لمحمّد الأول
ومن خَلّفه في الحكم. مثال من قاعة الشّفراء



بجو السّباع من زاوية الكاردينال

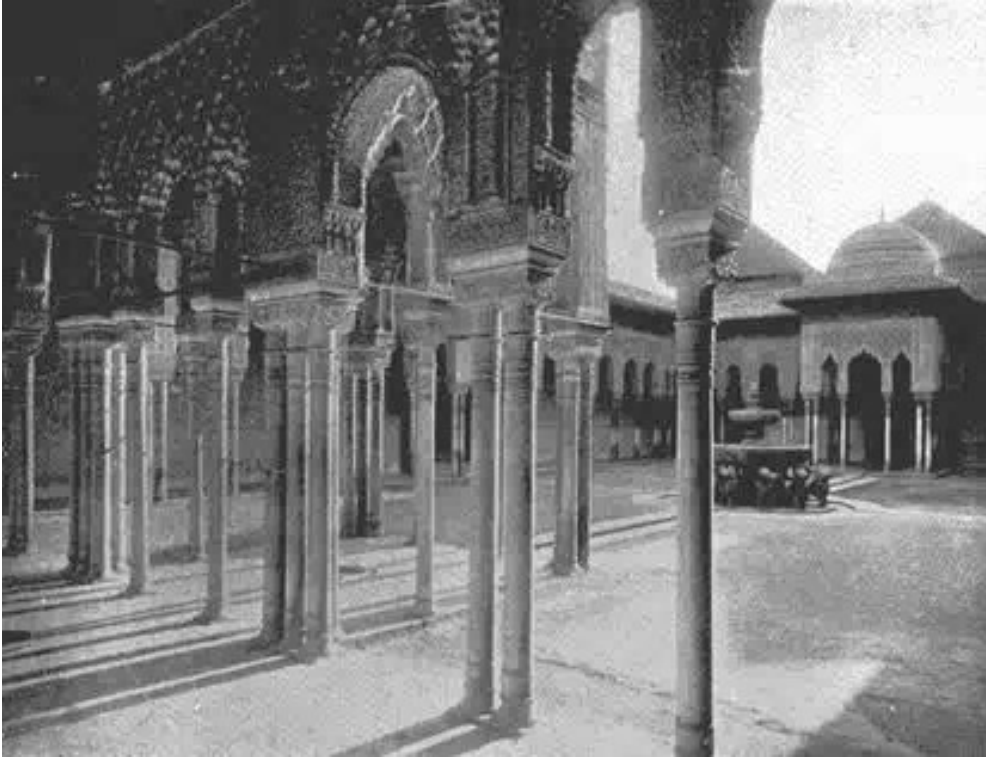
Templete Pomiente



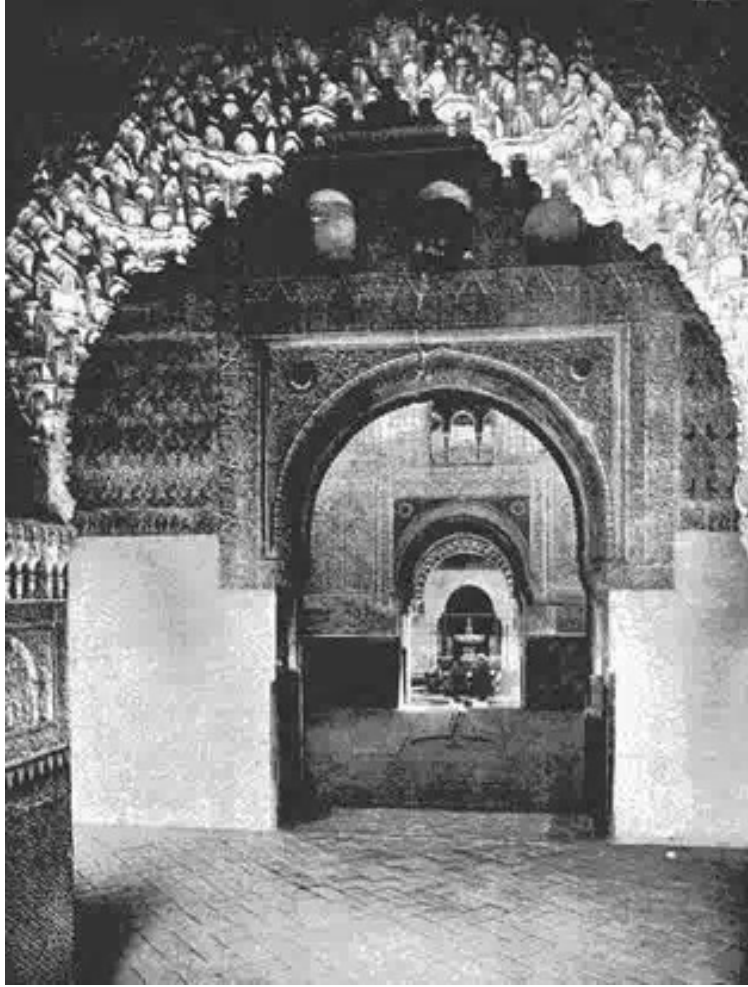
المدخل إلى بهو السباع من خلال زاوية الپوميبيته



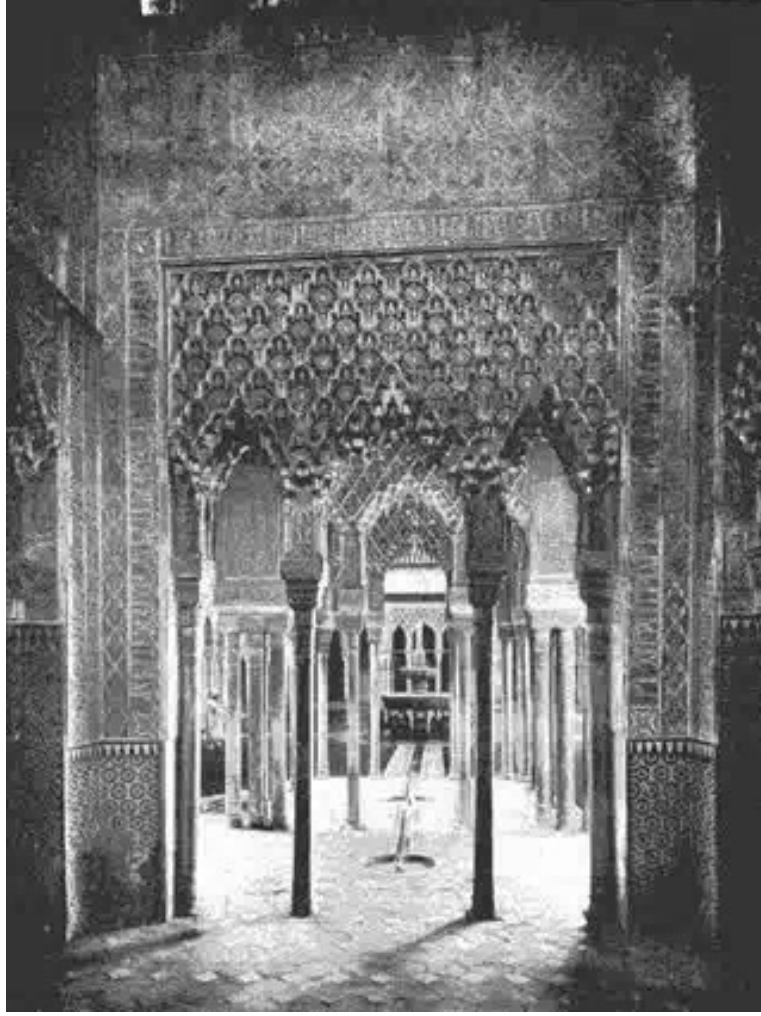
الترواق الشّمالي وواجهة قاعة بني سراج



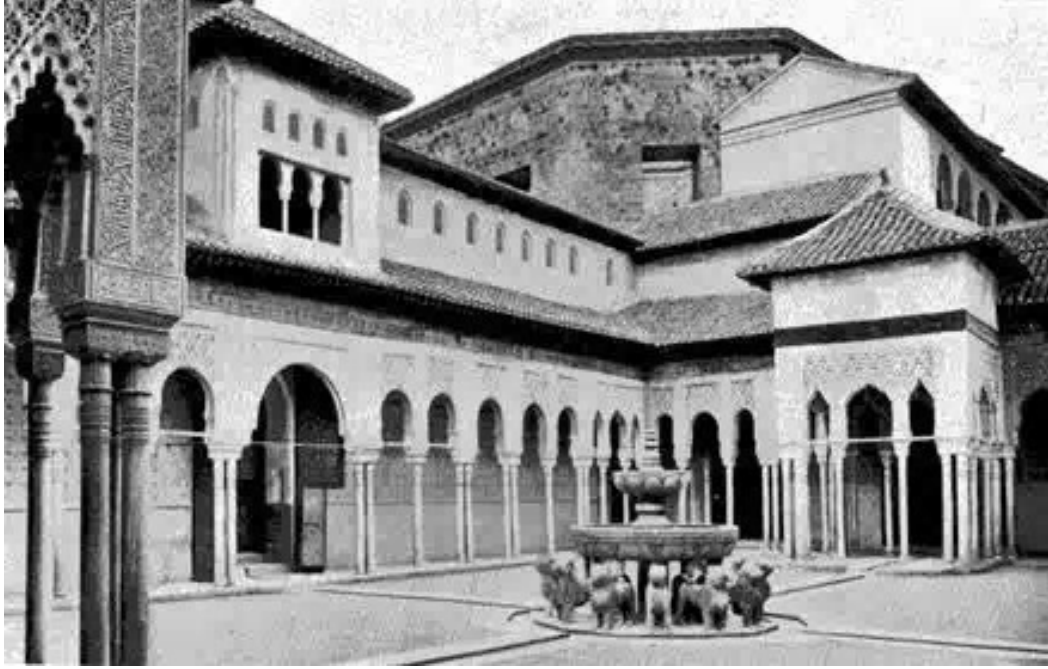
بھو السباع من زاوية الپومینتہ



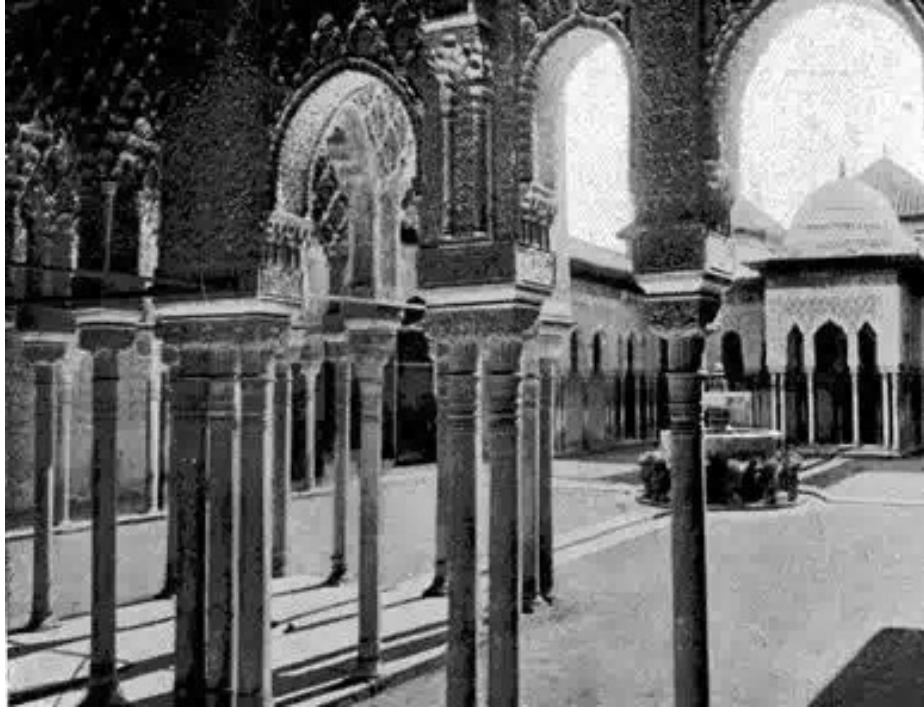
منظر في بھو السباع



منظر في بهو السباع من قاعة الشريعة



بهو السّباع



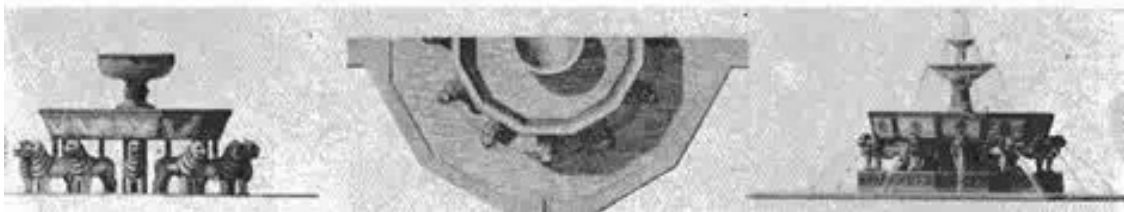
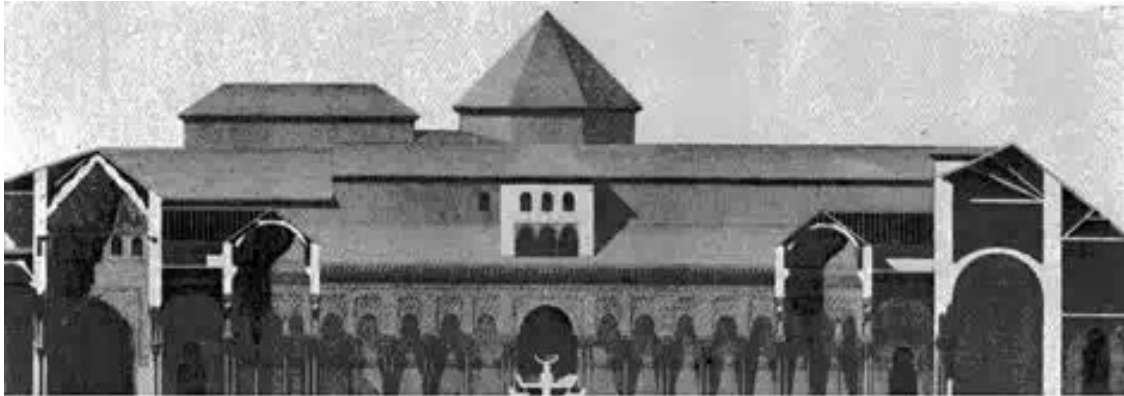
منظر عام لبهو السّباع



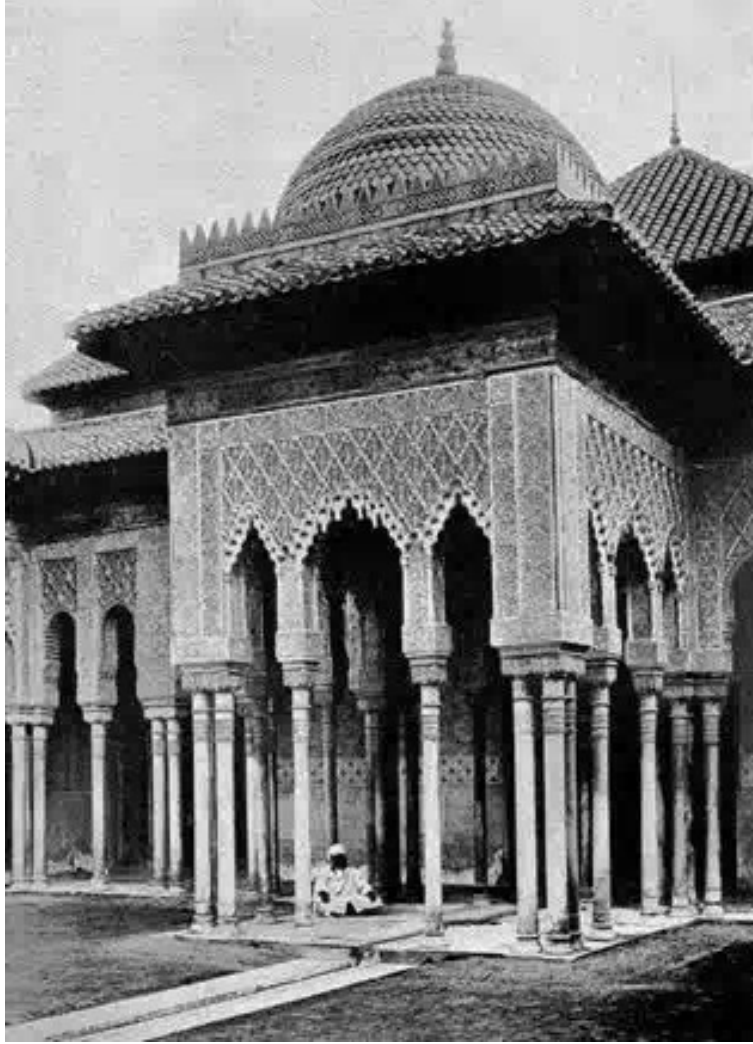
بھو السباع



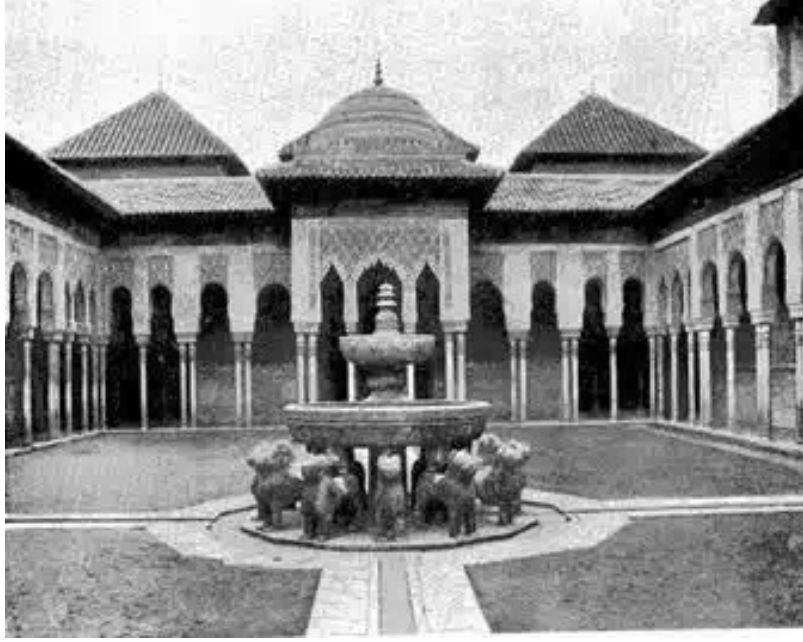
الترواق الشمالي لبهو السباع



مقطع، بهو السباع



فُسطاط في بهو السباع



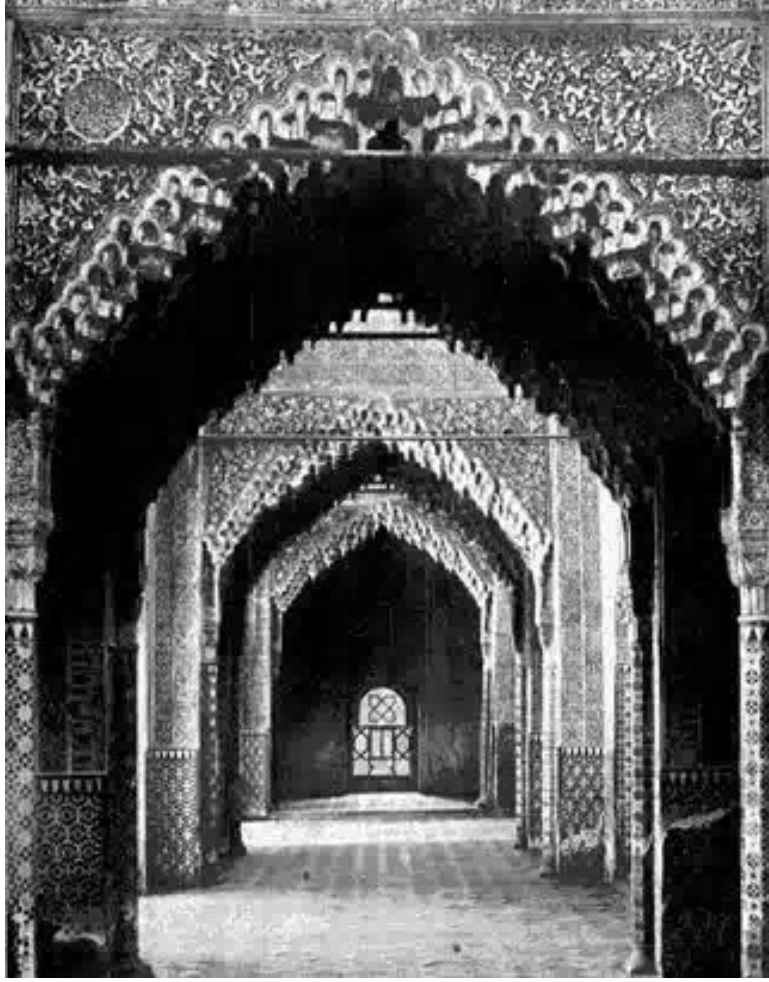
النافورة والهيكَل الشَّرقي في بهو السَّبَاع



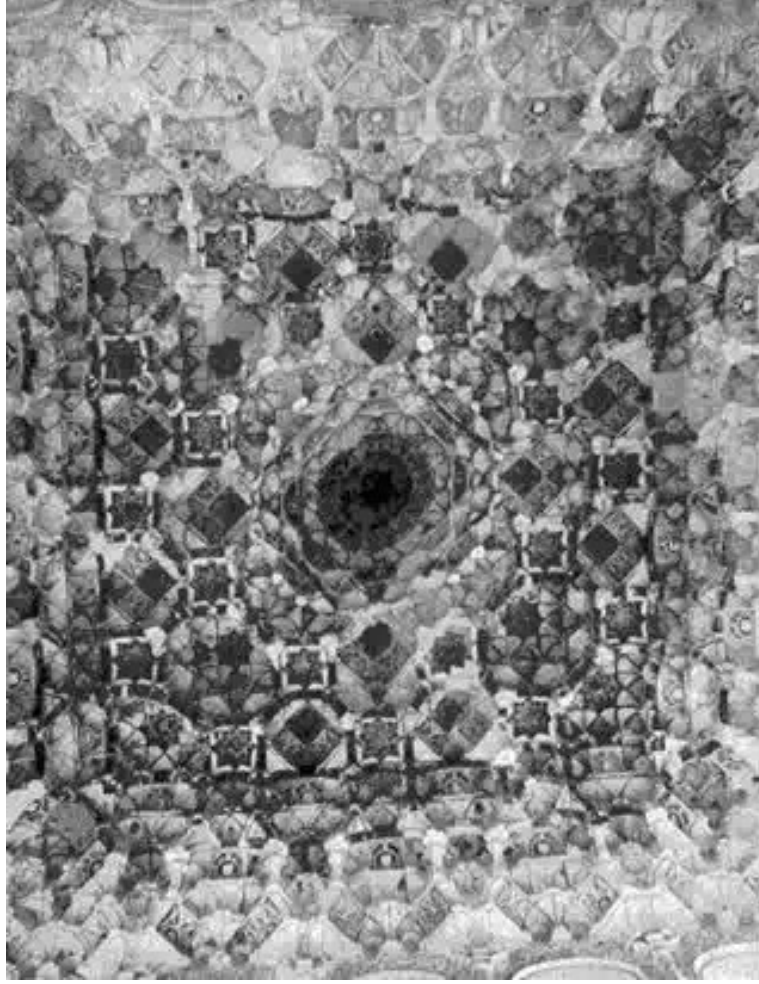
قاعة الشَّرعية و بهو السَّبَاع



زاوية في قاعة الشريعة



قاعة الشريعة



سقف قاعة الشريعة



المسجد، ومنظر لجنة العريف



خارج نافذة من نوافذ المسجد



المسجد، ومنظر لجنّة العريف



داخل المسجد



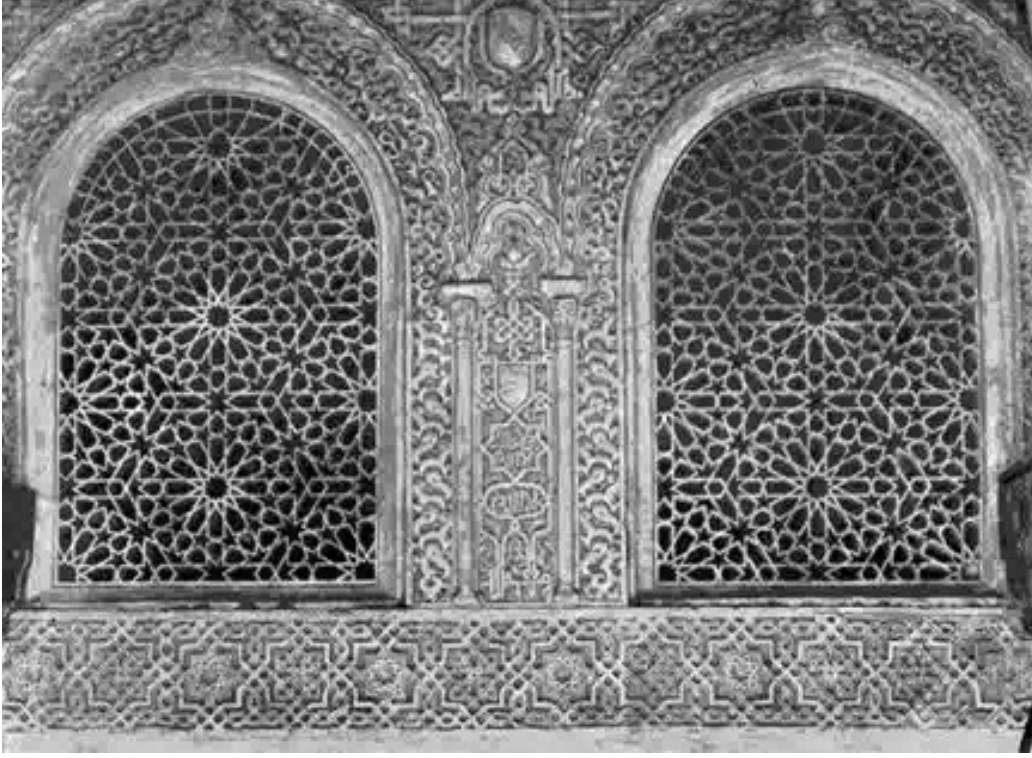
صحن المسجد، الواجهة الغربية



داخل المسجد، المحوّل إلى كنيسة رومانية كاثوليكية



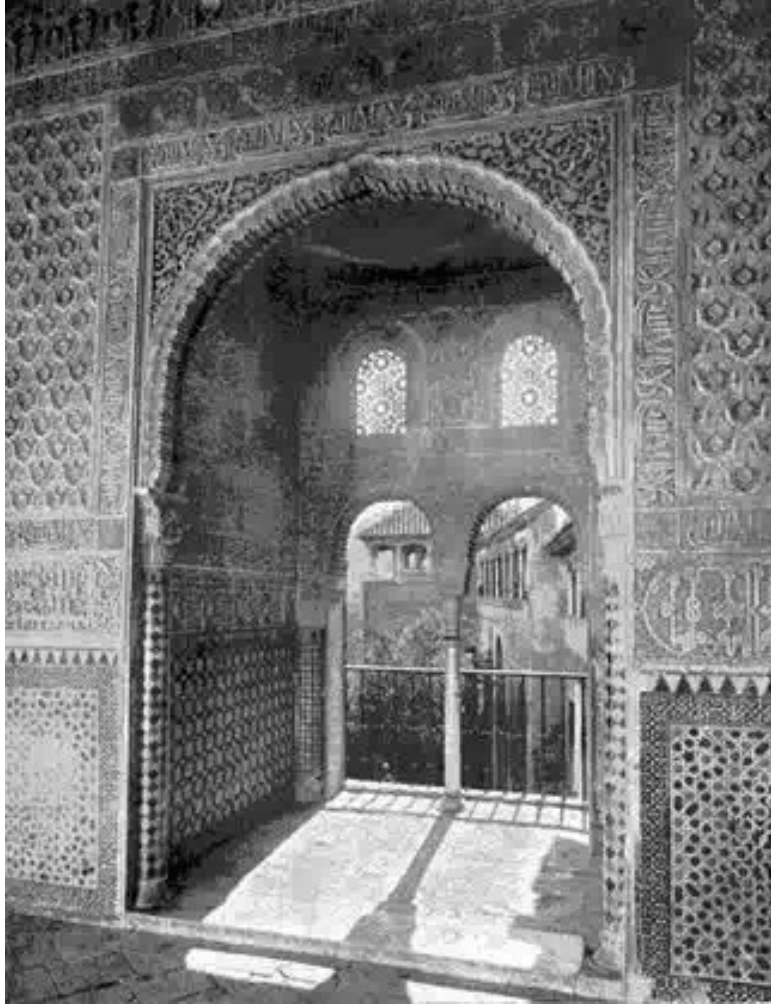
داخل المسجد، المحوّل إلى كنيسة رومانية كاثوليكية



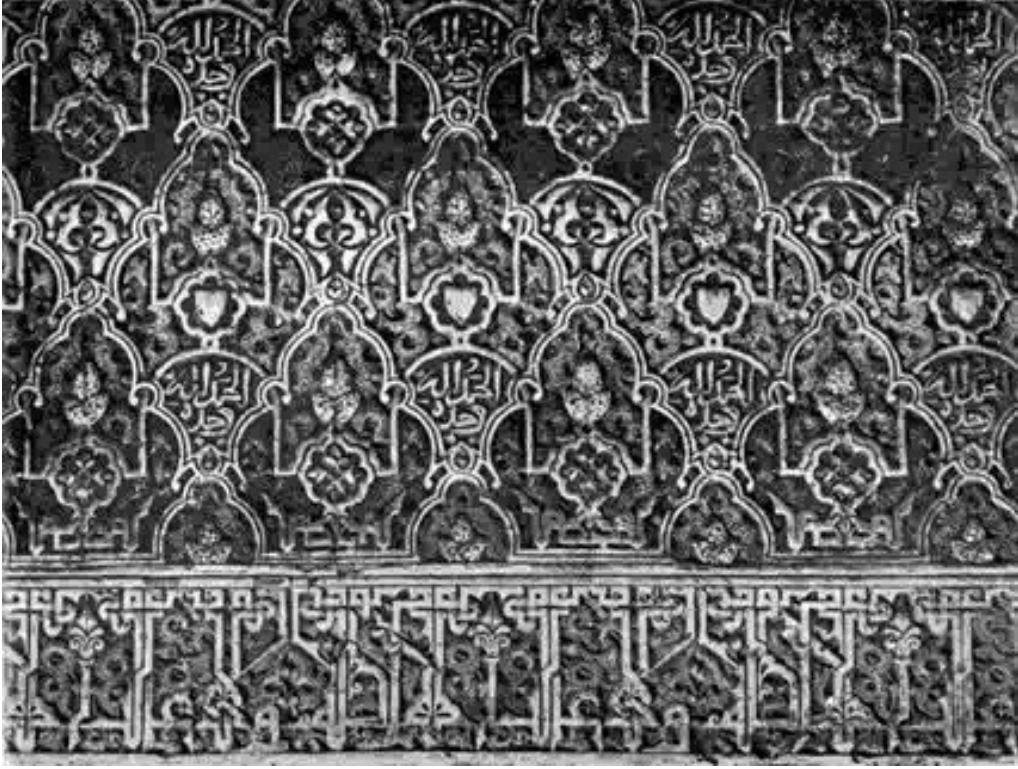
حصيرة النافذة في صحن المسجد



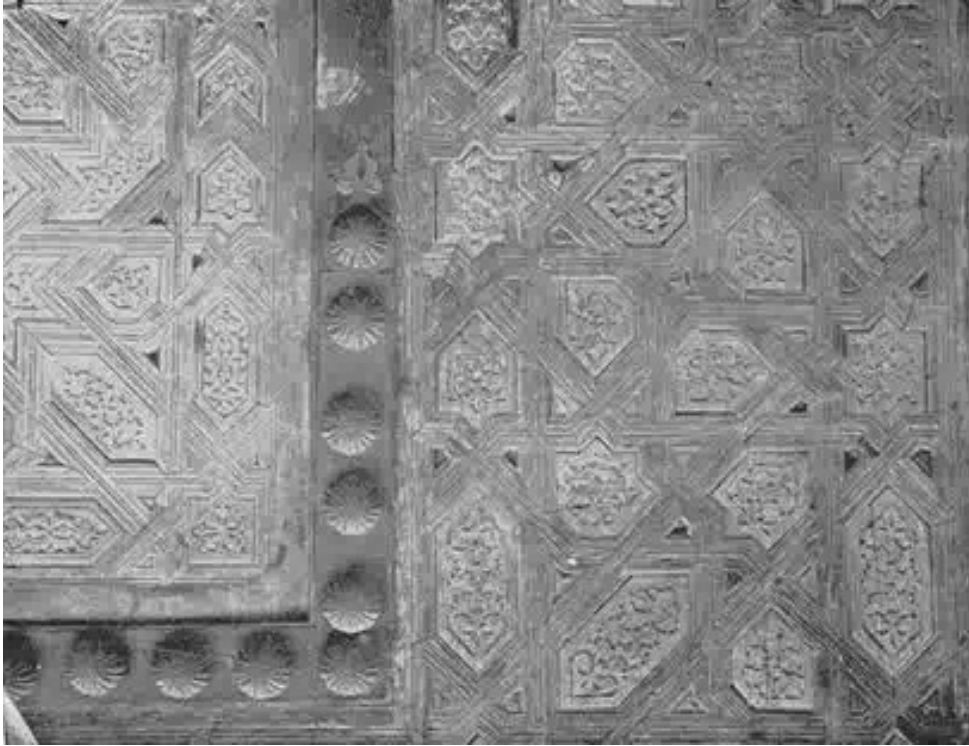
المدخل إلى قاعة السُّفراء



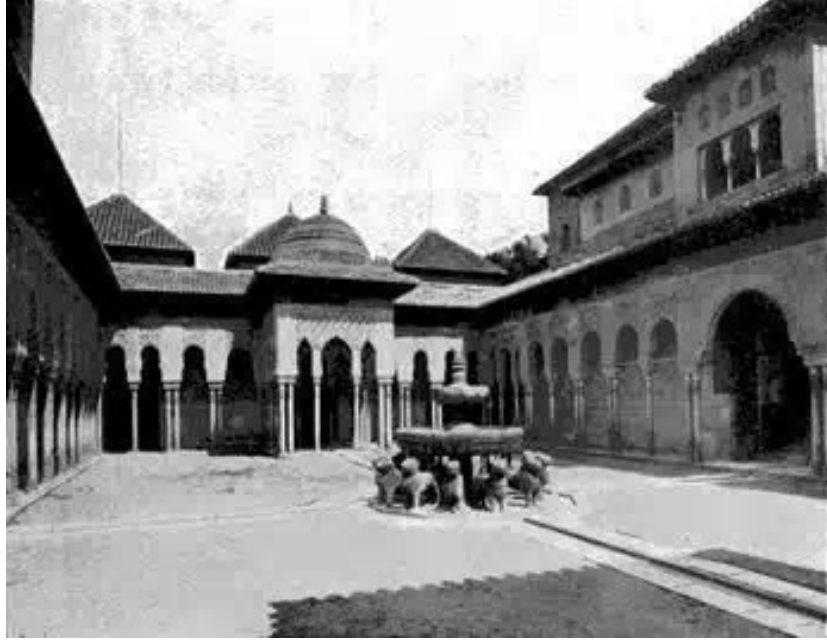
شرفة في قاعة السُفراء



تفصيل في قاعة التوافذ المقوسنة



تفصيل في قاعة بني سراج



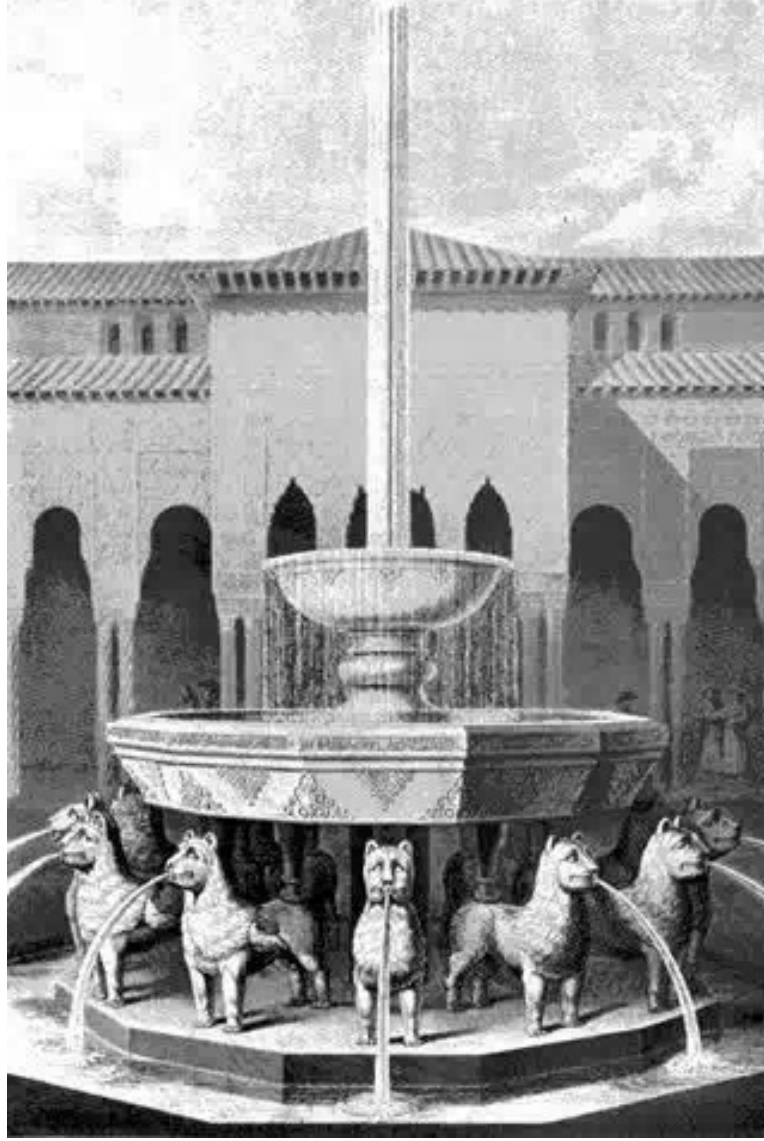
بهو السبّاع



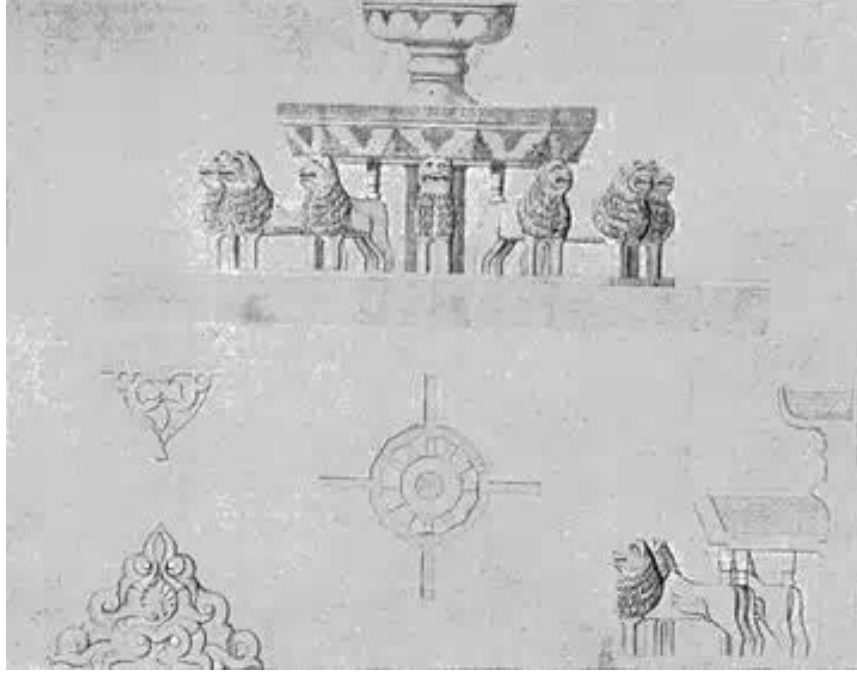
منظر عام لبهو السبّاع



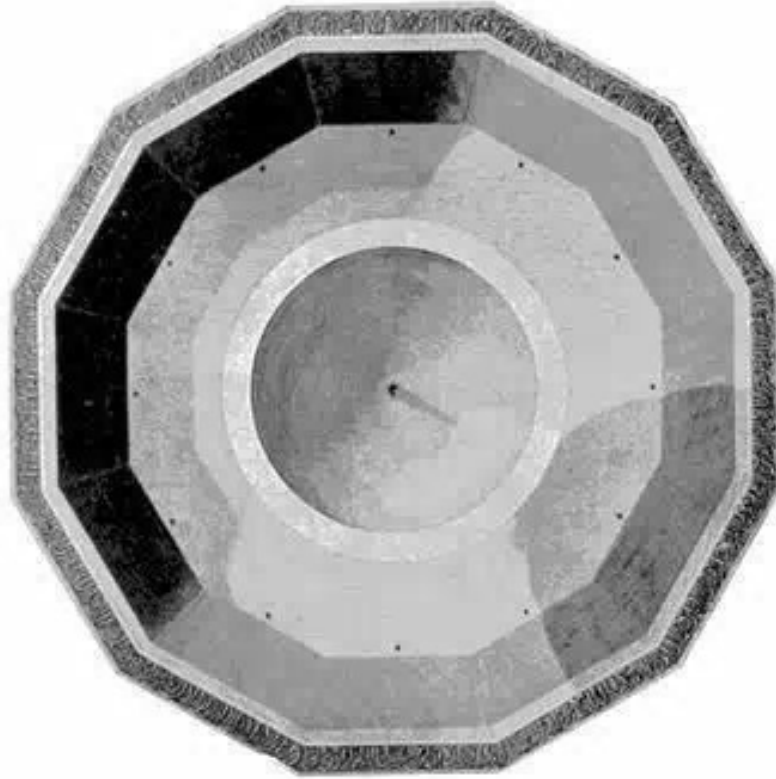
النافورة والهيكل الشرقي في بهو السباع



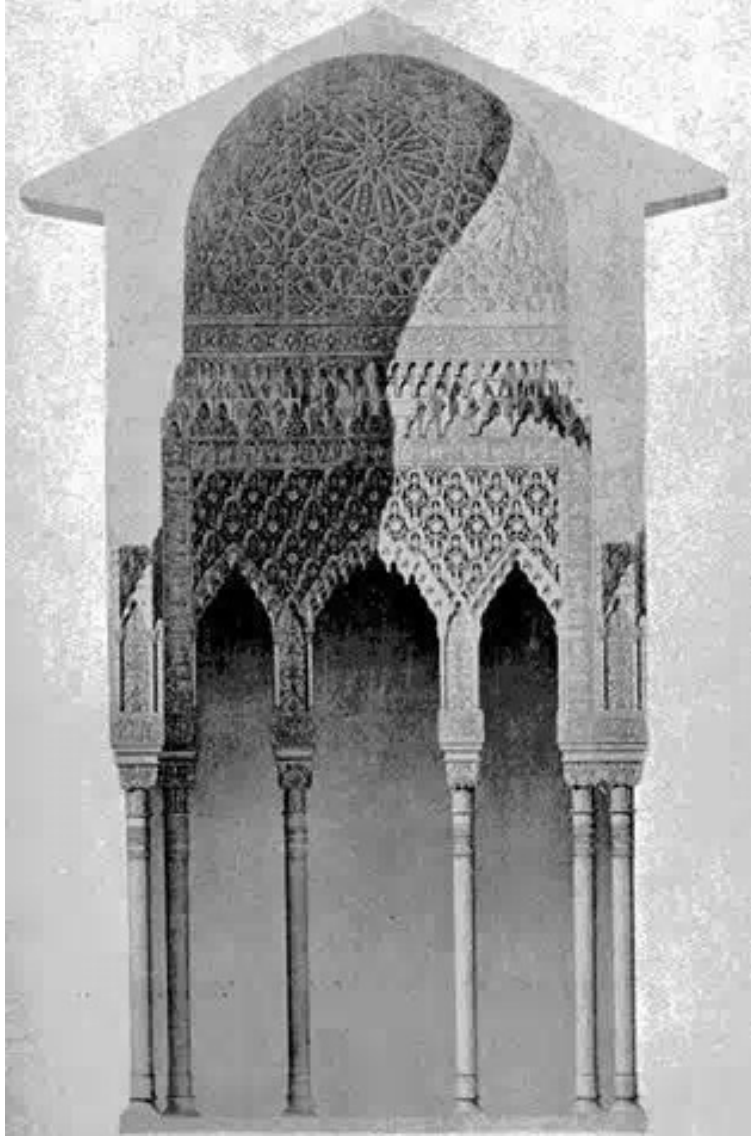
ارتفاع نافورة بهو السباع



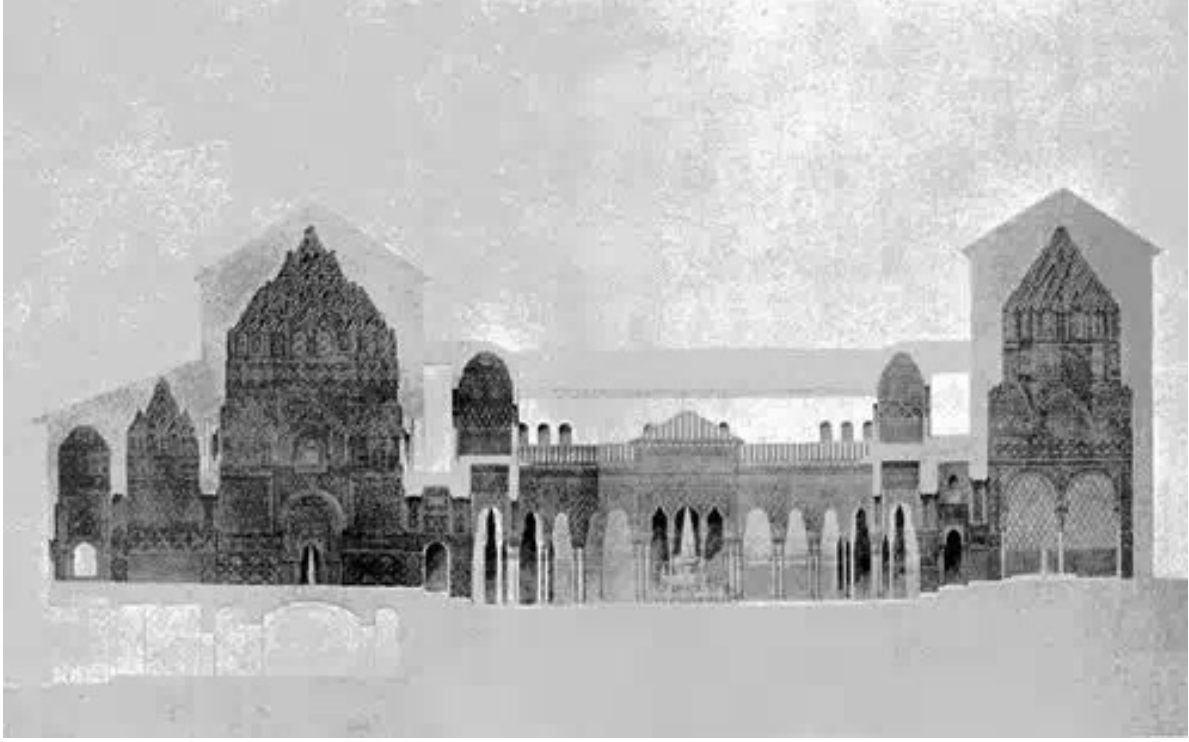
نافورة بهو السباع، مع تفاصيل الزخرفة



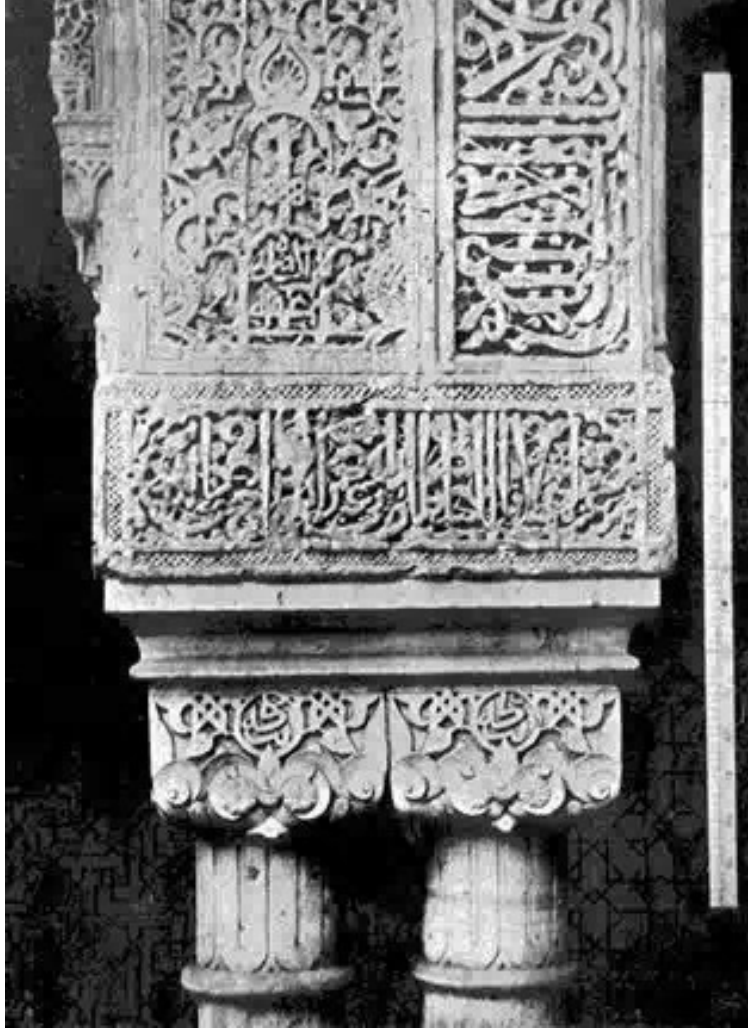
مسقط أفقي لحوض النافورة في بهو السباع



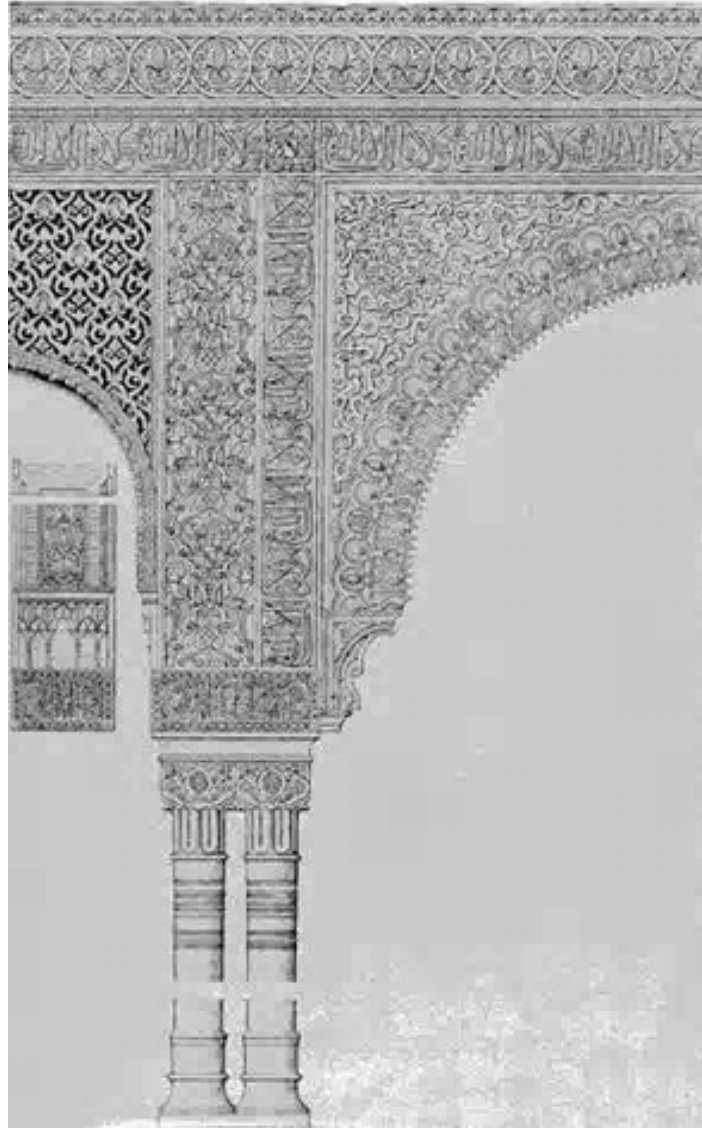
مقطع للفسطاط في بهو السباع



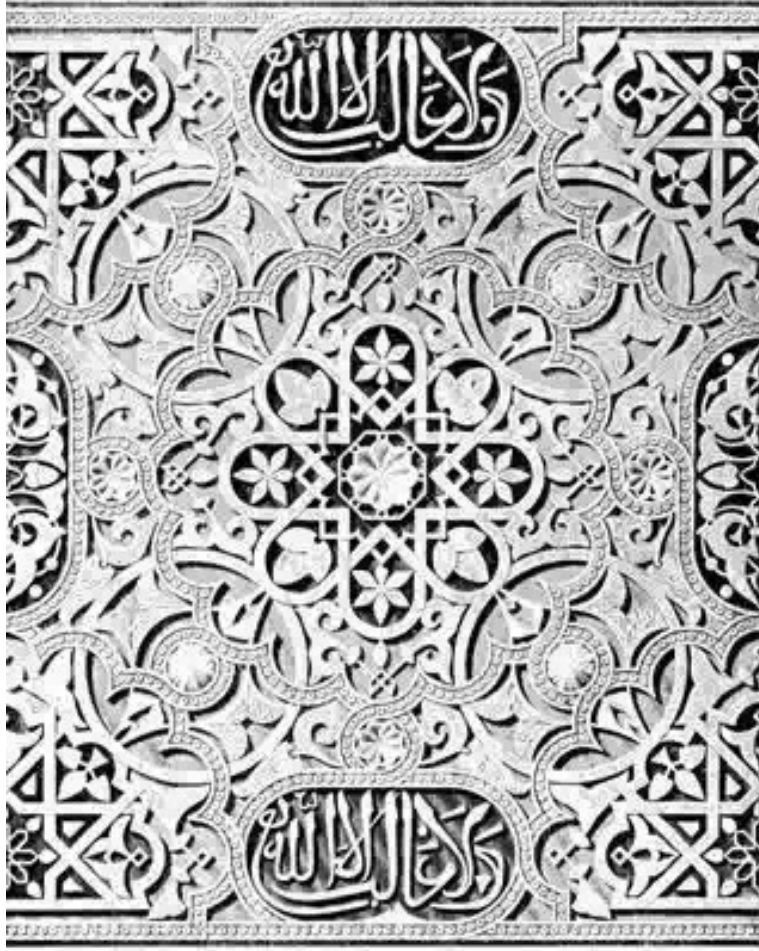
مقطع لقاعة الأختين، ومقطع لقسم من بهو السباع



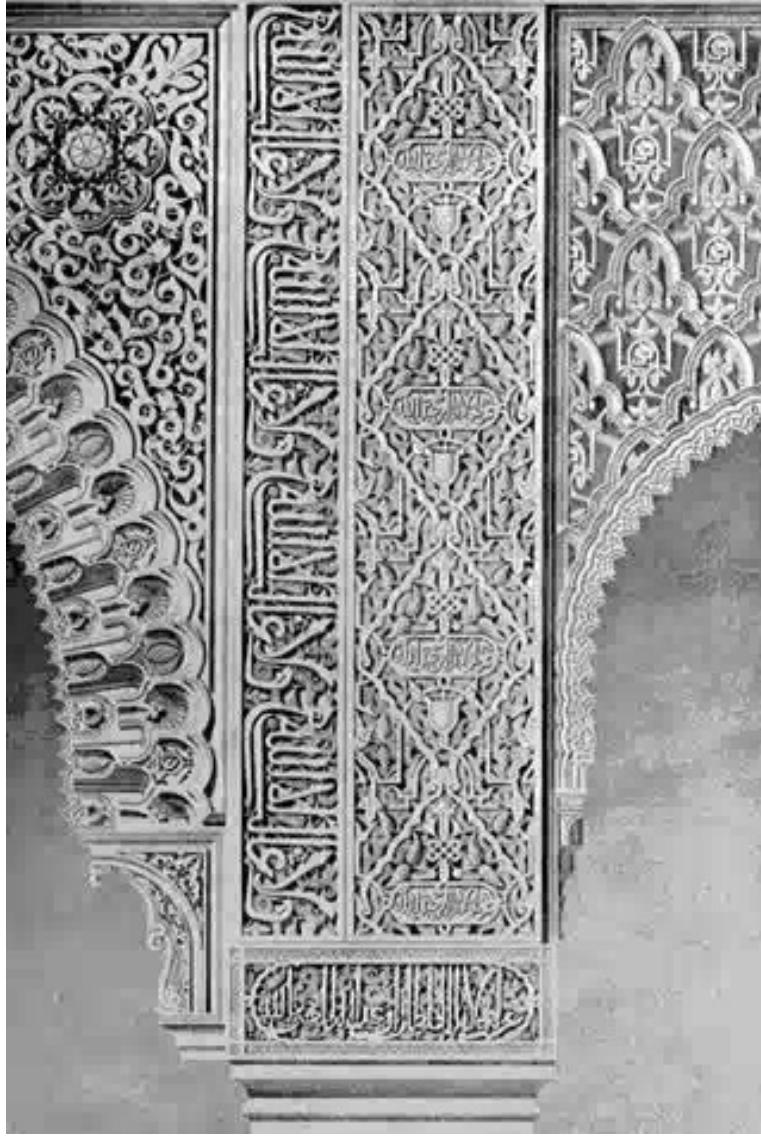
تاج عمود في بهو السباع، مع مقياس يبلغ متراً واحداً



تفاصيل للرواق المركزي لبهو السباع



طنف بأعلى الأعمدة، بهو السباع



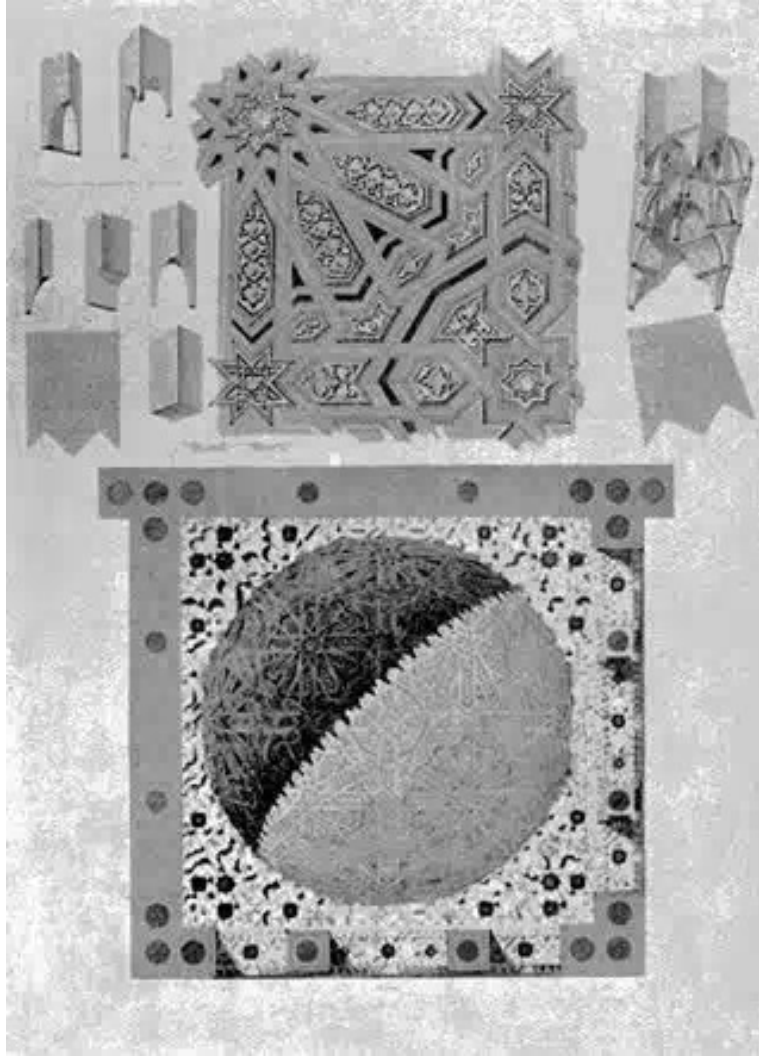
تفصيل للقوس المركزي في بهو السباع



المقاطع الستة الأولى من النقش الكتابي حول حوض نافورة بهو السباع



المدماك العلوي في بهو السباع



قبة الفسطاط في بهو التسباع



المدخل إلى بهو السباع. الصائغ الصغير، بهو السباع



بهو السباع

2-48

المدخل إلى بهو السباع. الهيكل الصغير، بهو السباع



بهو السباع



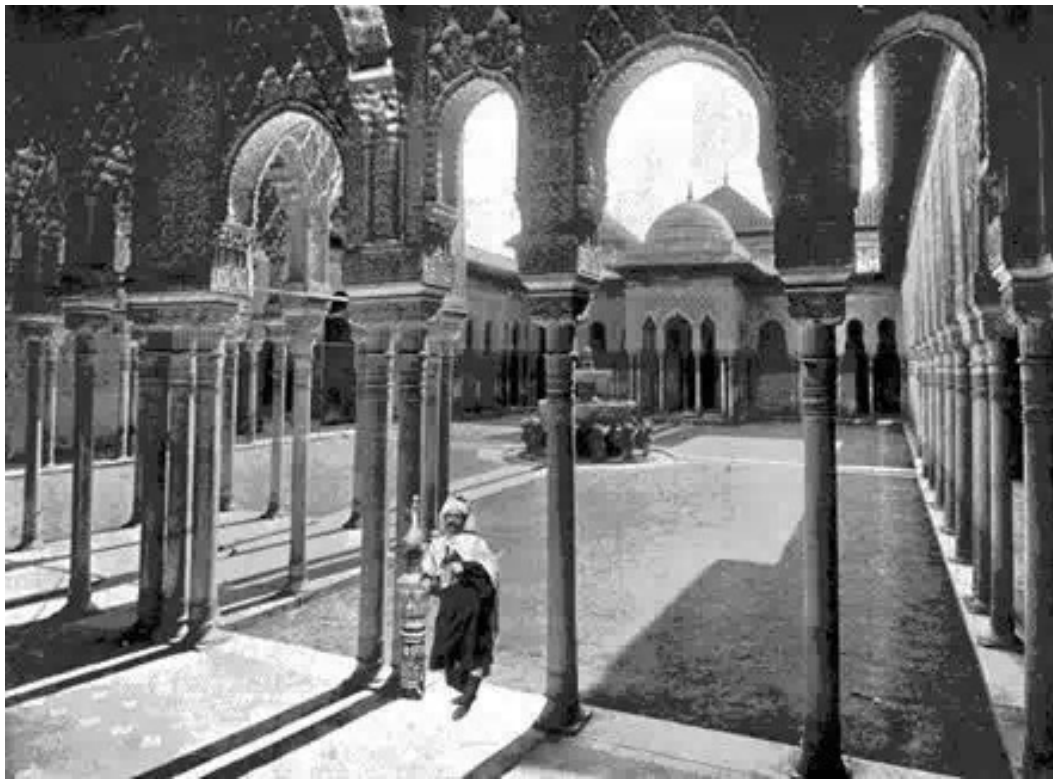
الهيكل الصغير، والنافورة، بهو السباع



بهو السباع

2-49

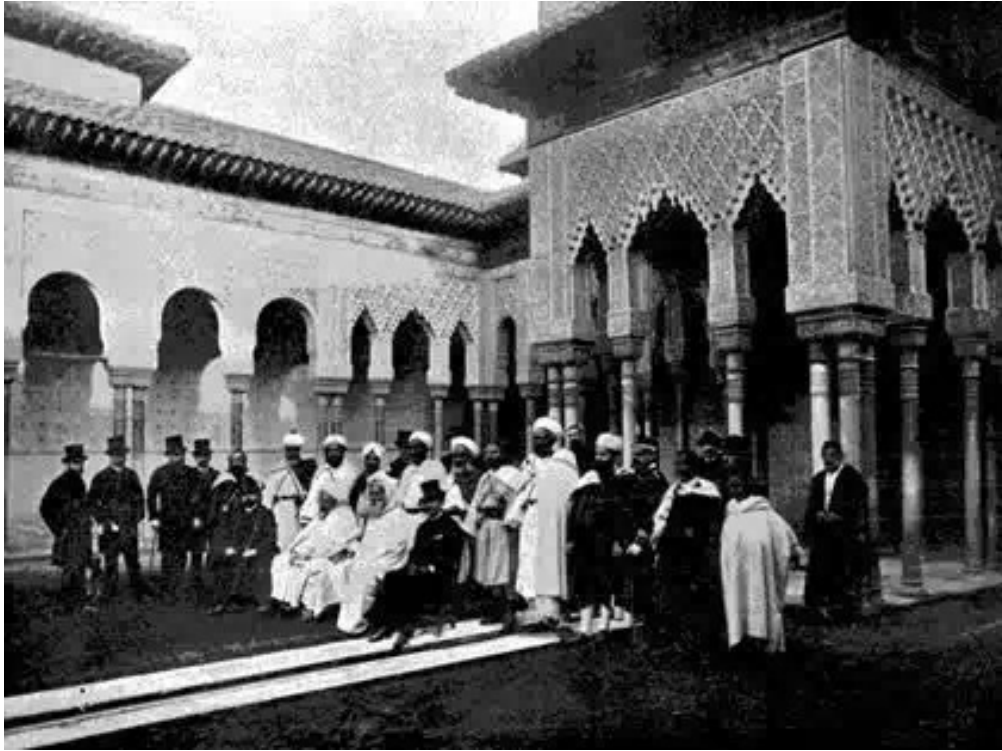
الهيكل الصغير، والنافورة، بهو السباع



بهو السباع



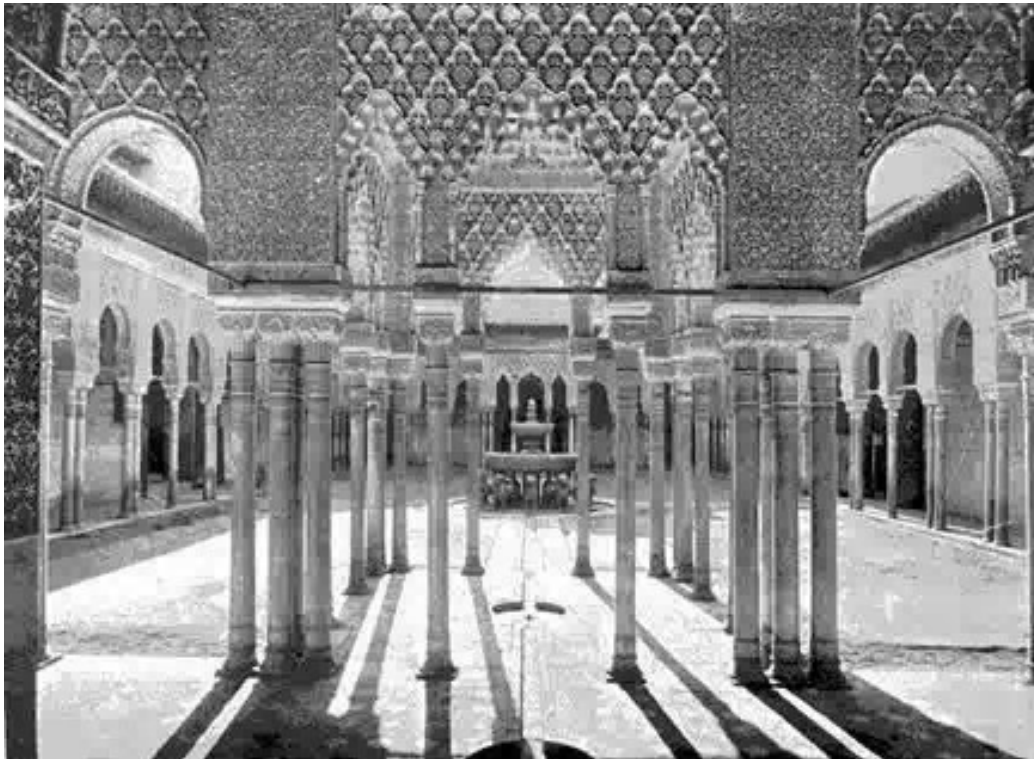
بهو السباع، الزاوية الغربية



سفارة المغرب، ديسمبر 1885



بهو السباع من الهيكل الغربي



بهو السباع من الهيكل الغربي



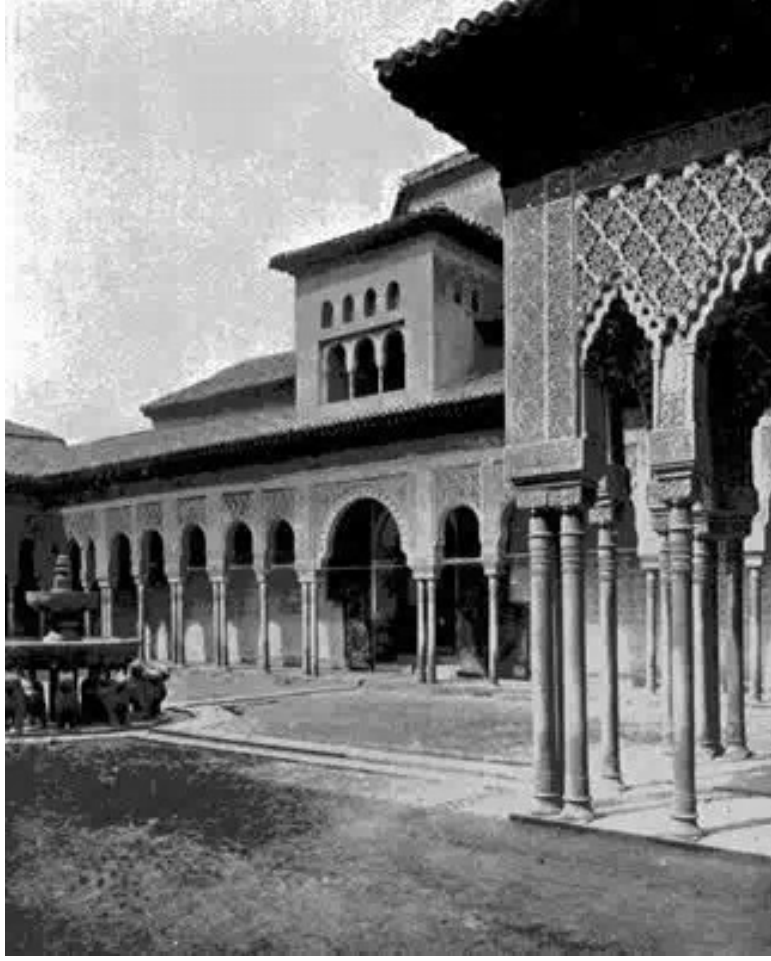
الترواق الغربي في بهو السّباع



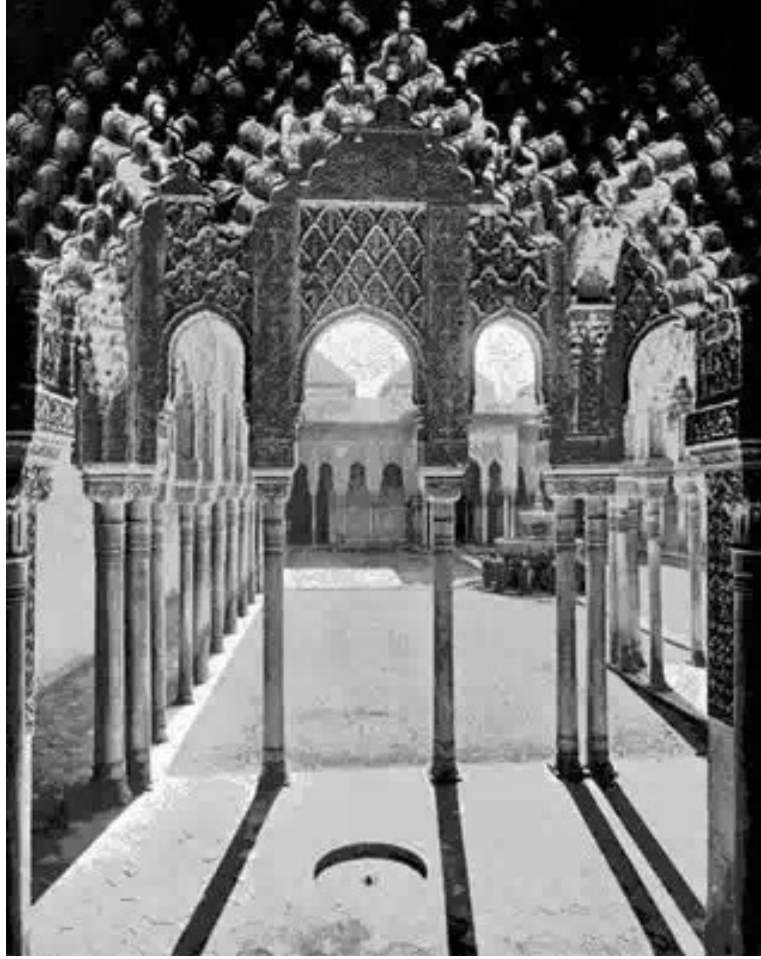
بهو السّباع، واجهة قاعة الأختين



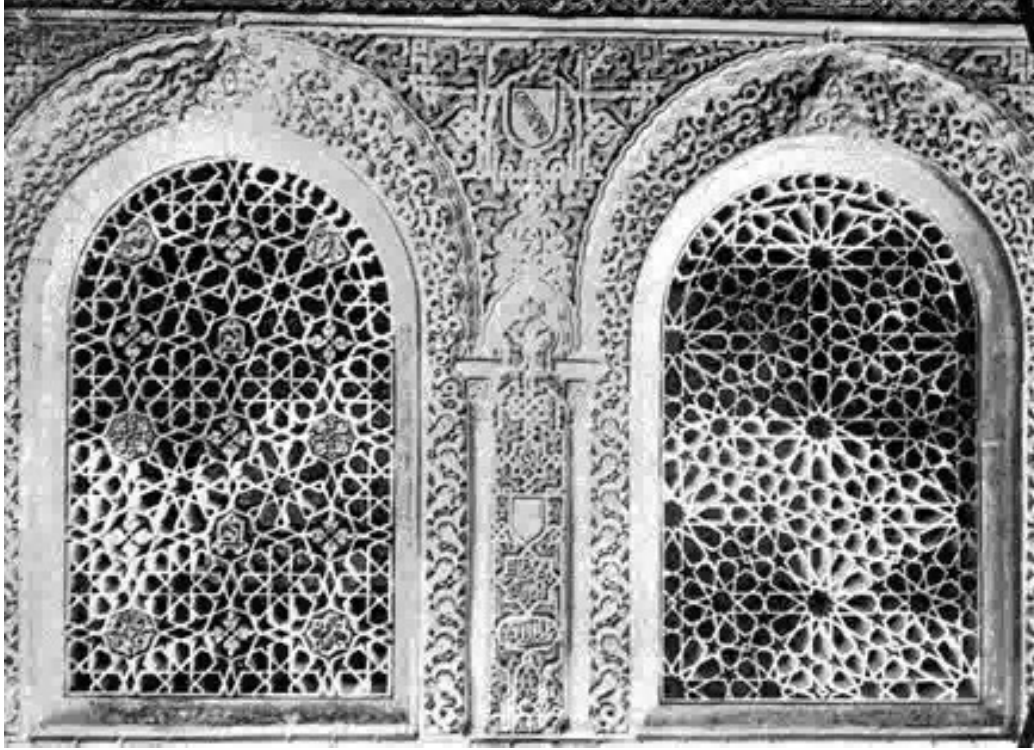
بهو السباع، الزاوية اليسرى



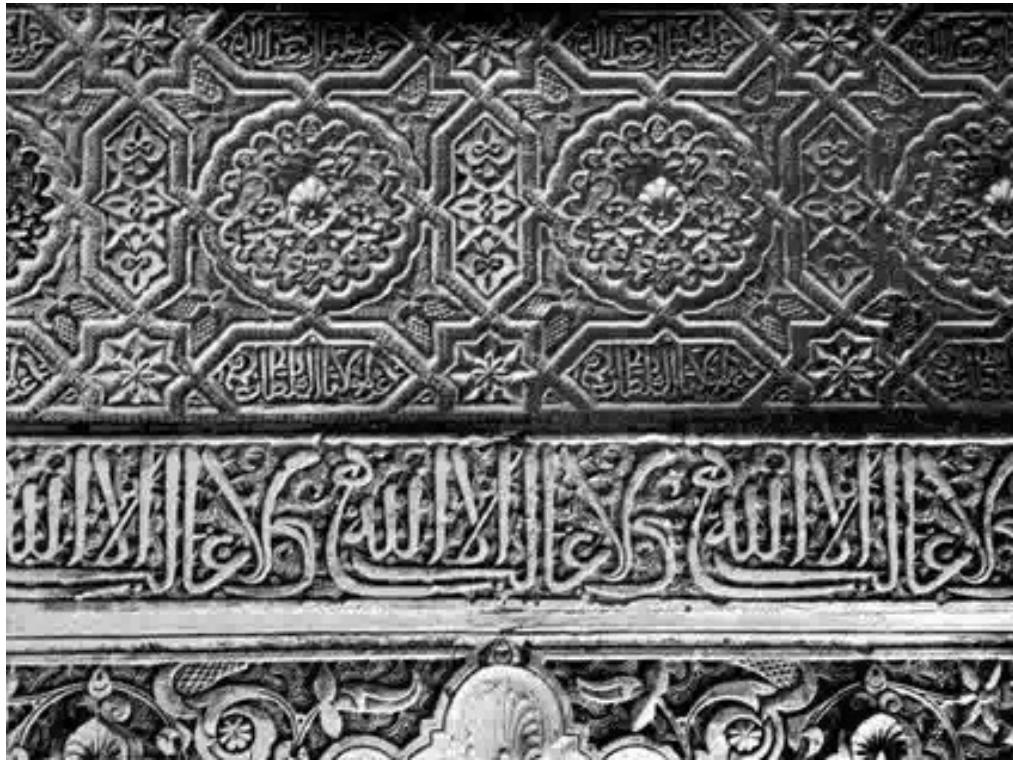
بهو السّباع، واجهة قاعة الأختين



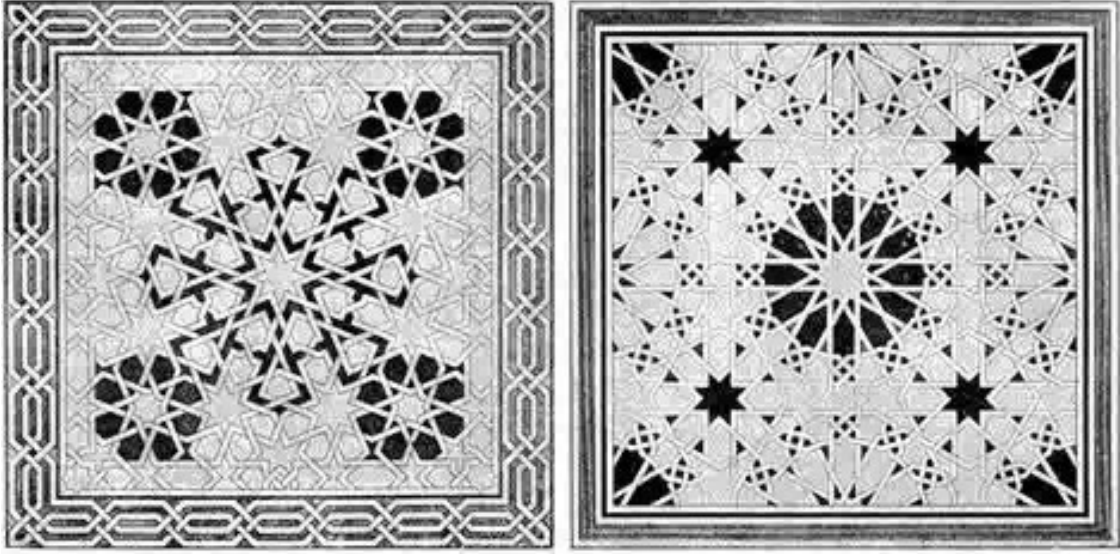
بجو السباع من المدخل



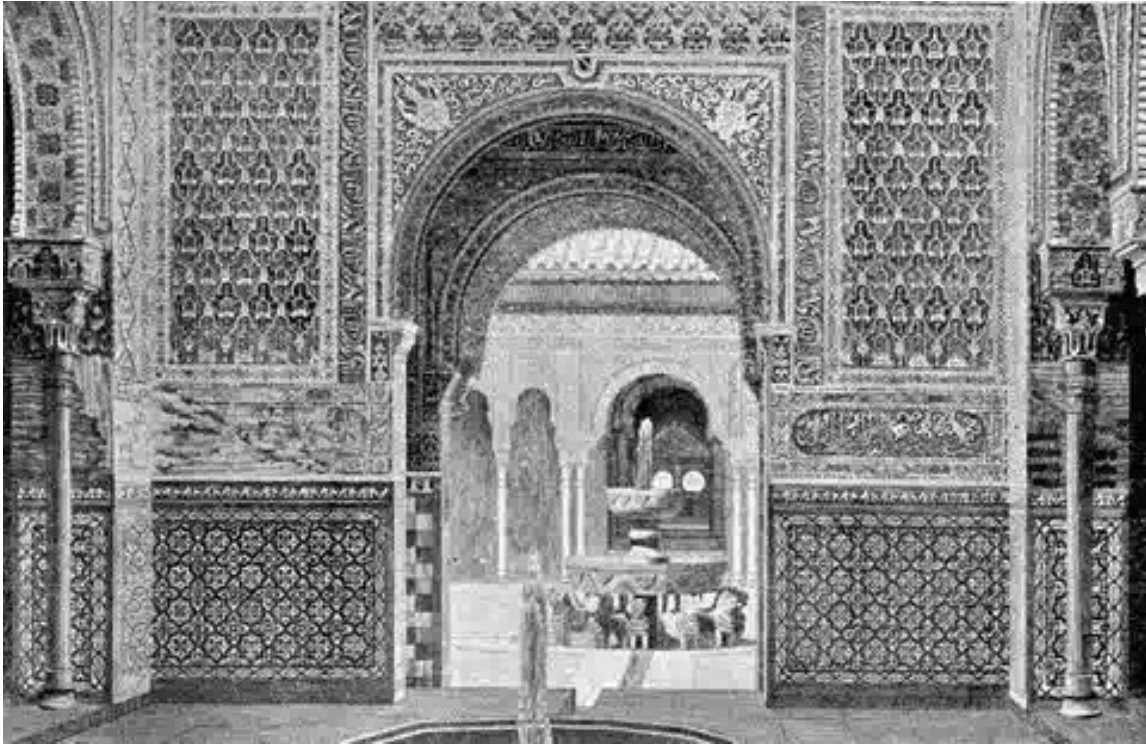
تفصيل لمدخل بهو السباع



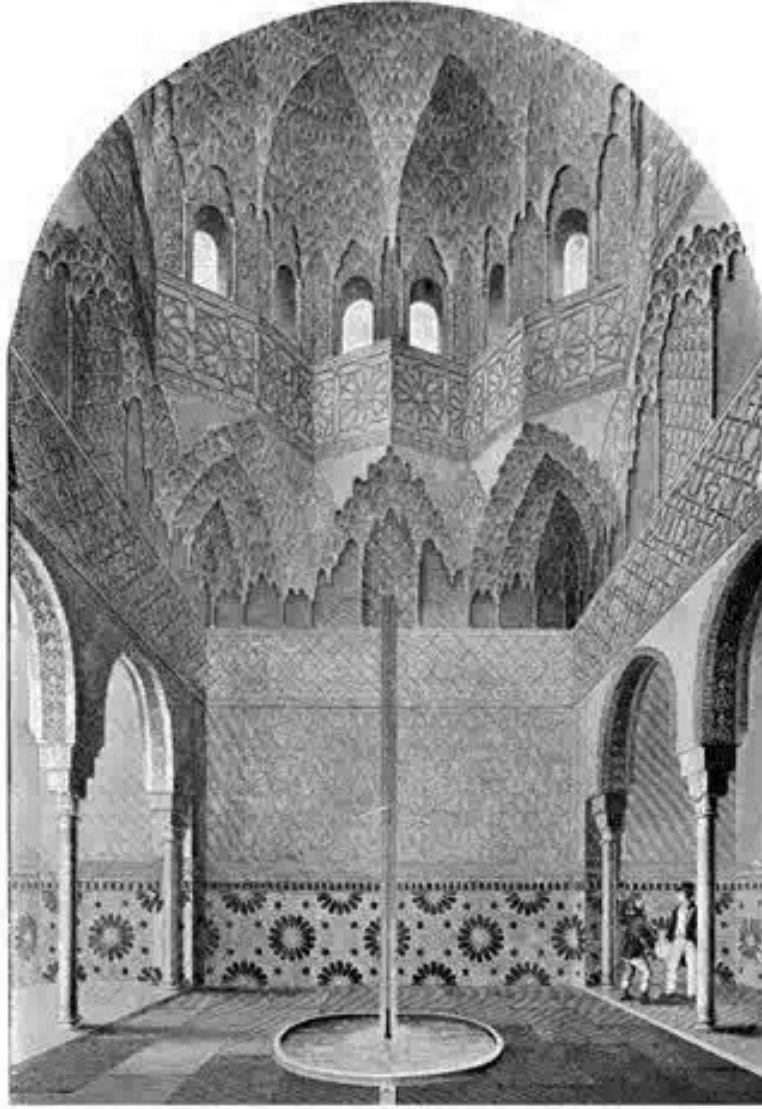
تفصيل في بهو السباع



فسيفساء في الجهتين الشماليّة والجنوبيّة، بهو السّباع



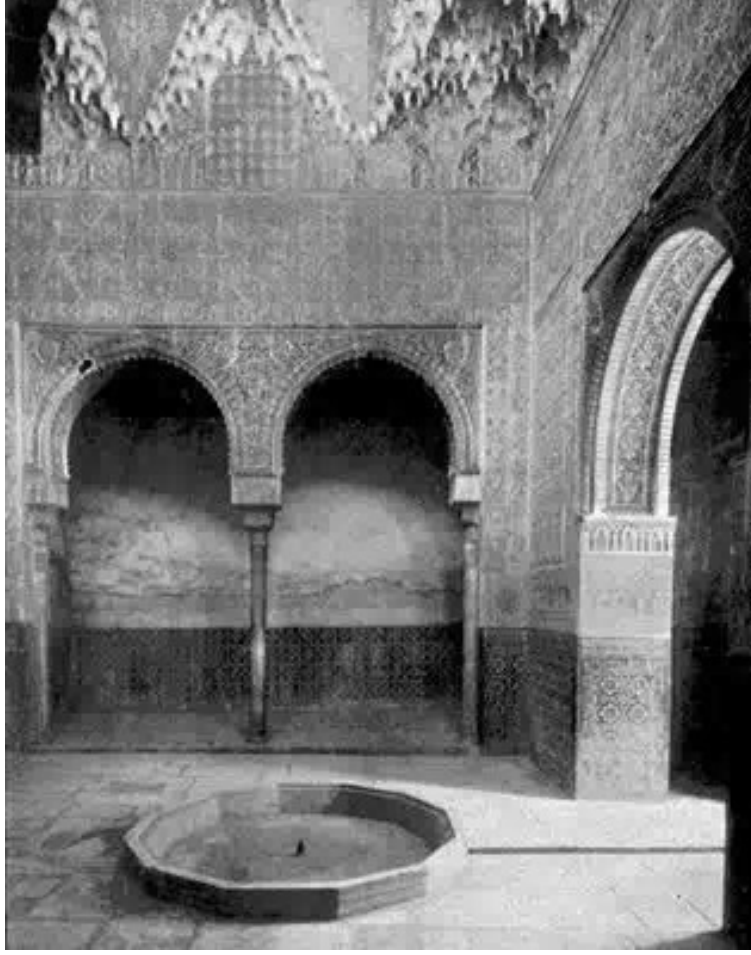
قاعة بني سّراج



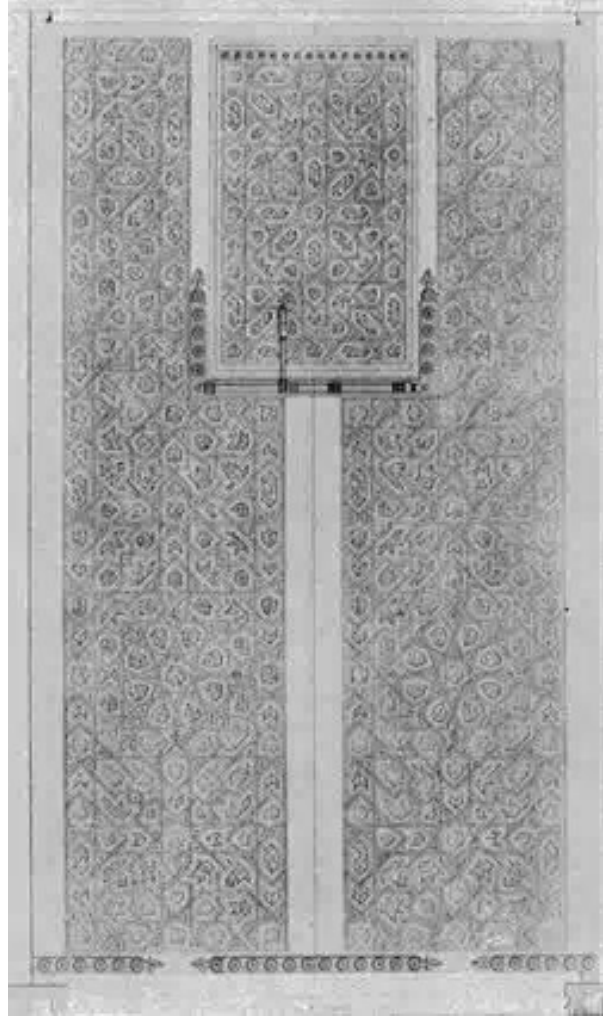
قاعة بني سراج



قاعة بني سراج



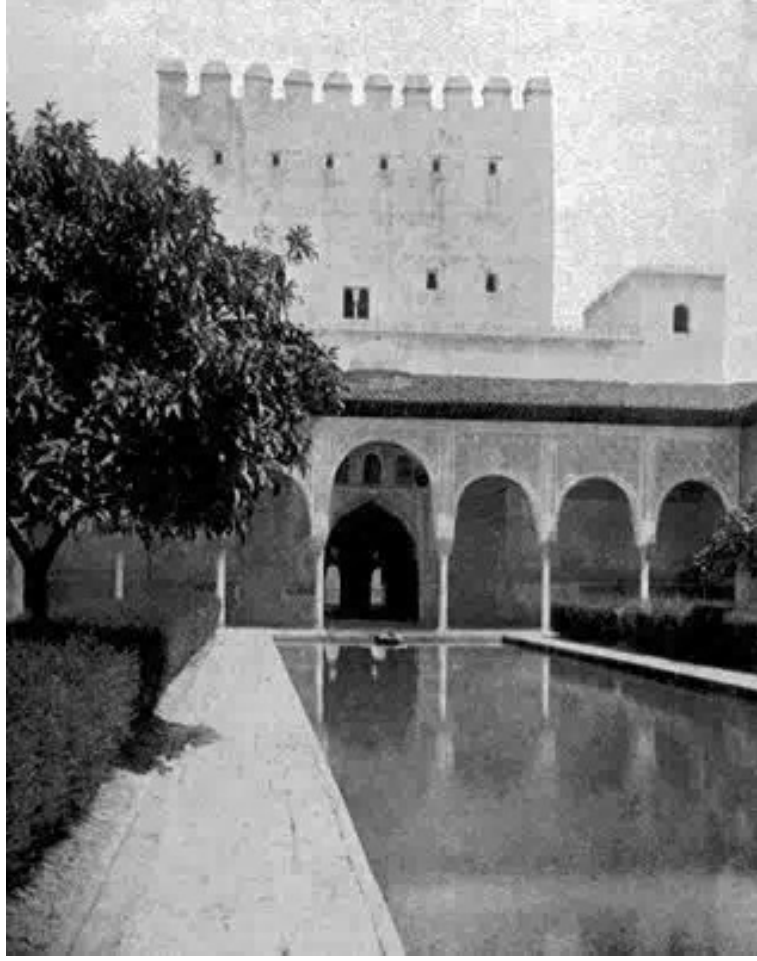
قاعة بني سراج



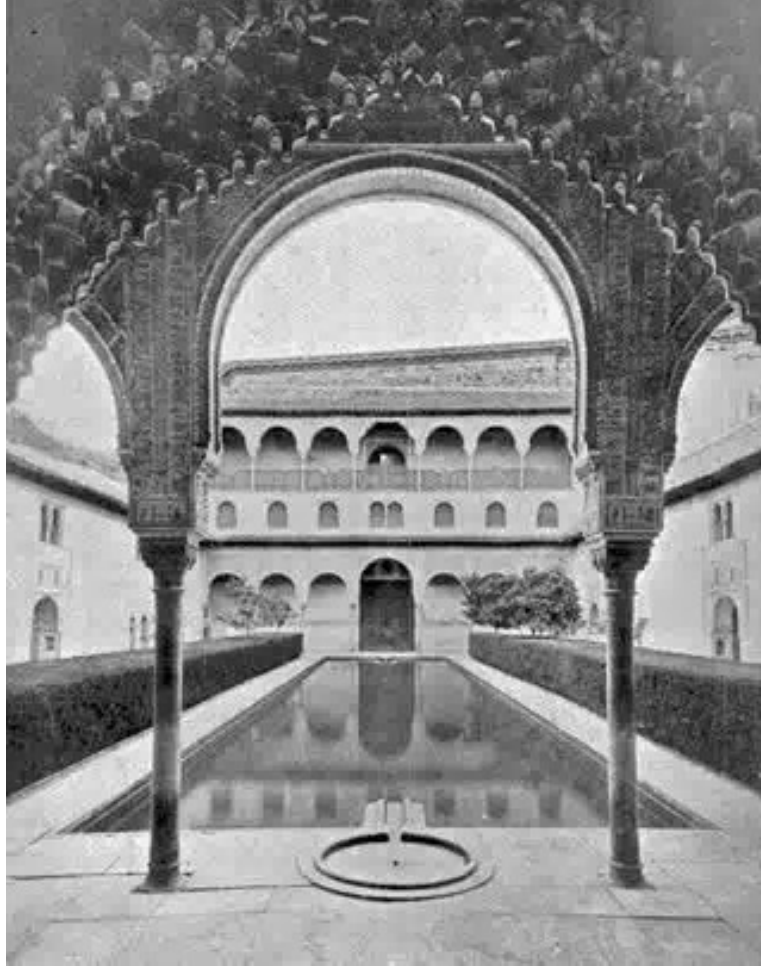
أبواب خشبية، قاعة بني سراج



رواق في فناء بركة السمك، أو فناء الآس



فناء الآس، أو فناء بركة السمك. واجهة قاعة السفراء



فناء الآس، أو بركة السمك



صورة 217: منظر عام لفناء الآس، أو بركة السمك



صورة 218: الجهة الشمالية لفناء بركة السمك، أو الآس



المدخل إلى فناء بركة السمك، أو الآس



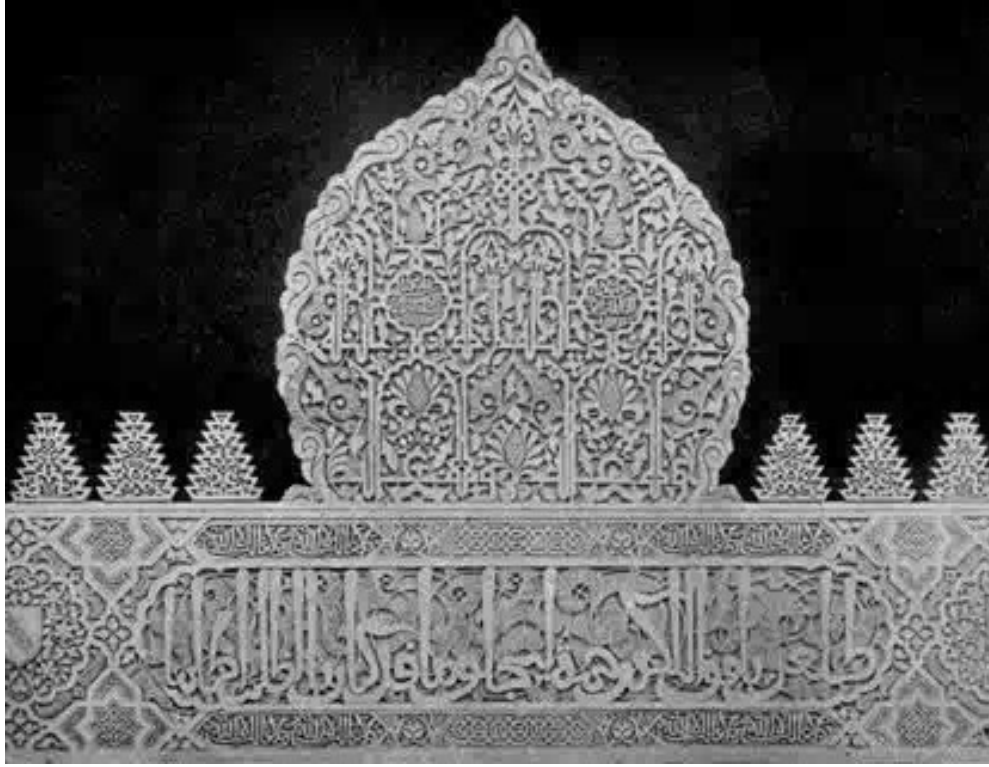
رواق في فناء الآس، أو بركة السمك



منظر عام لفناء الآس، أو بركة السمك



فناء الآس، الواجهة الشرقية



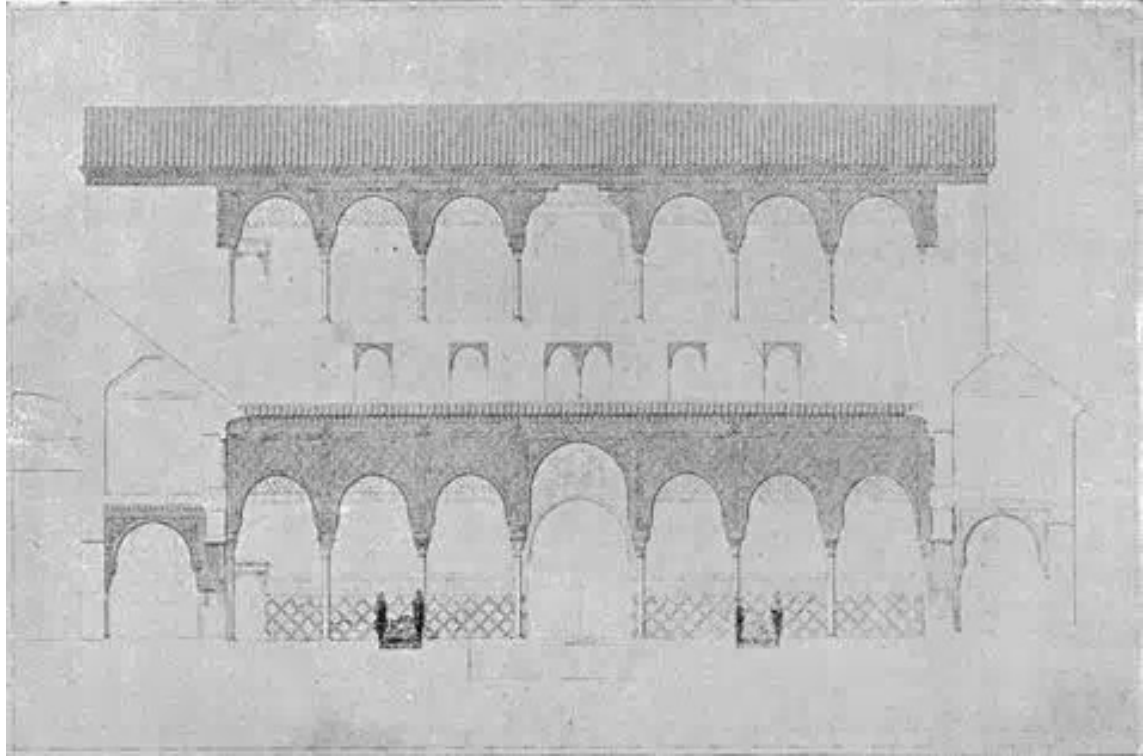
تفصيل في فناء الآس



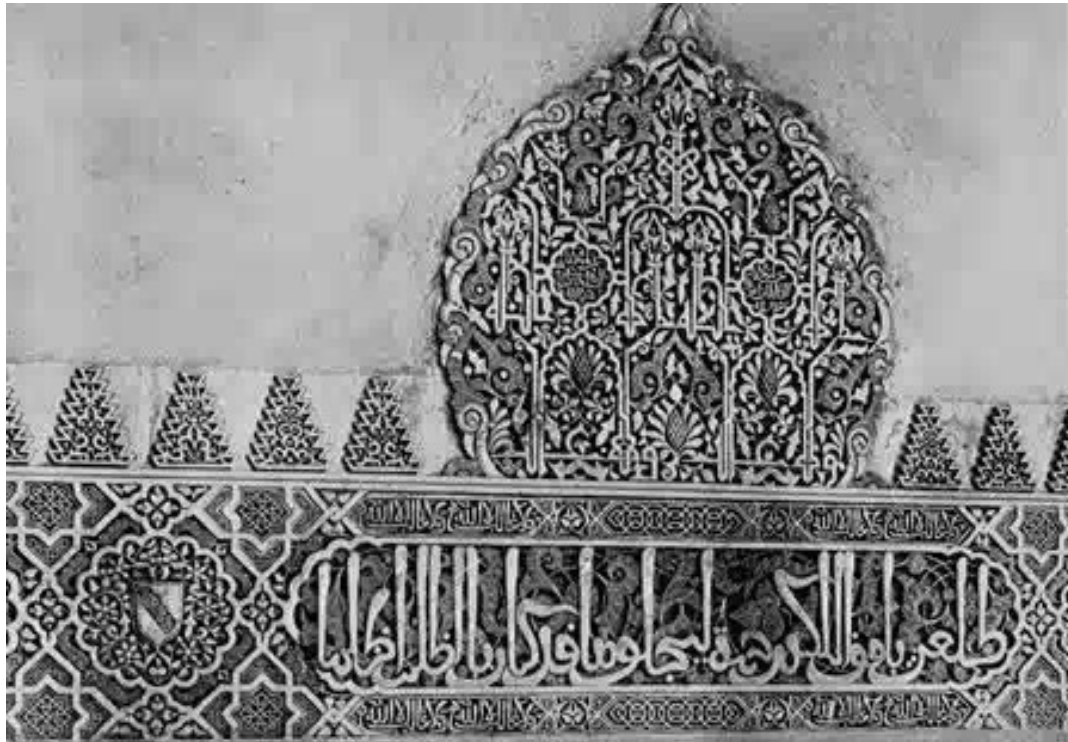
فناء الآس، الواجهة الشرقية



خارج الترواق في فناء بركة السمك، أو الآس



فناء بركة السمك، أو الآس



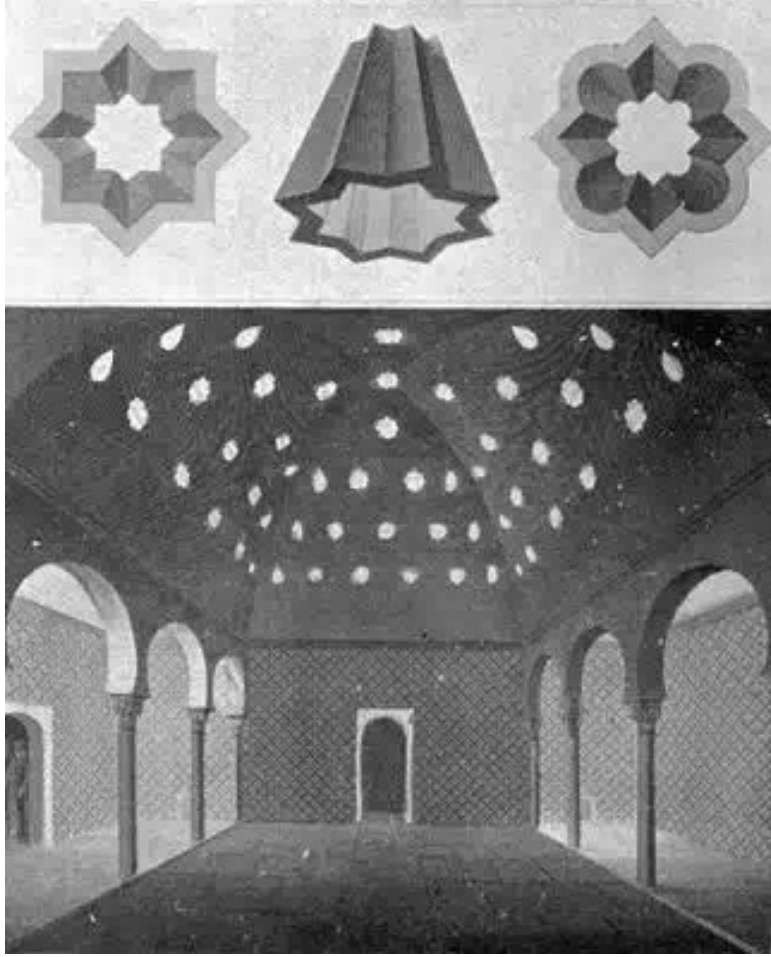
زخرفة في فناء بركة السمك، أو الآس



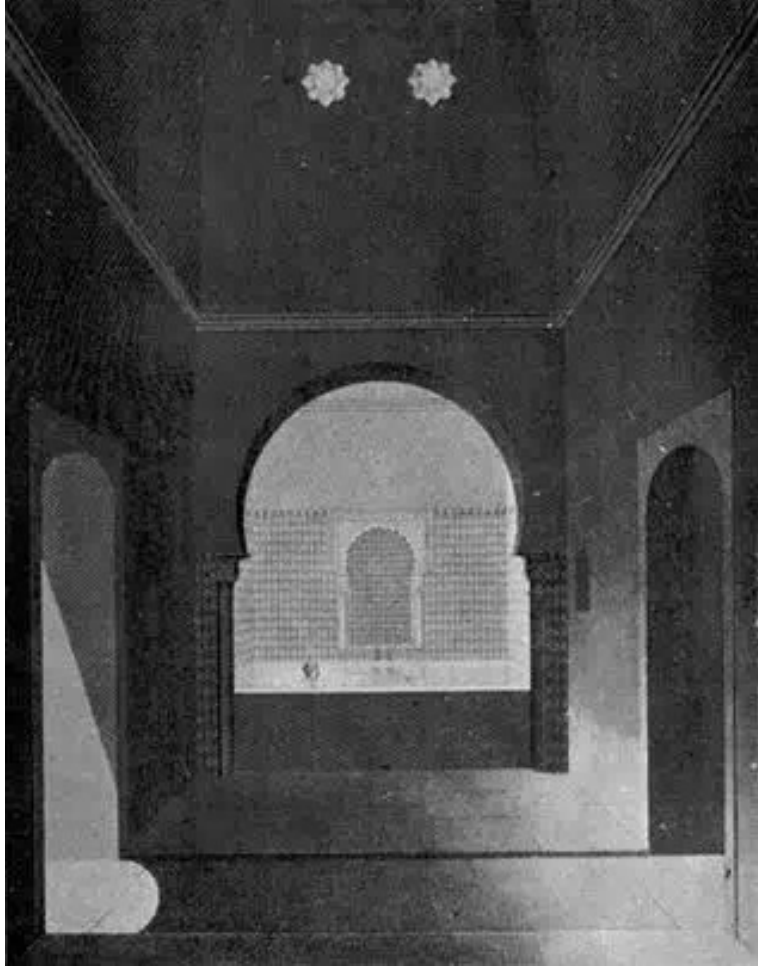
فناء الآس، أو بركة السمك، الذي شَيَّده يوسف الأول



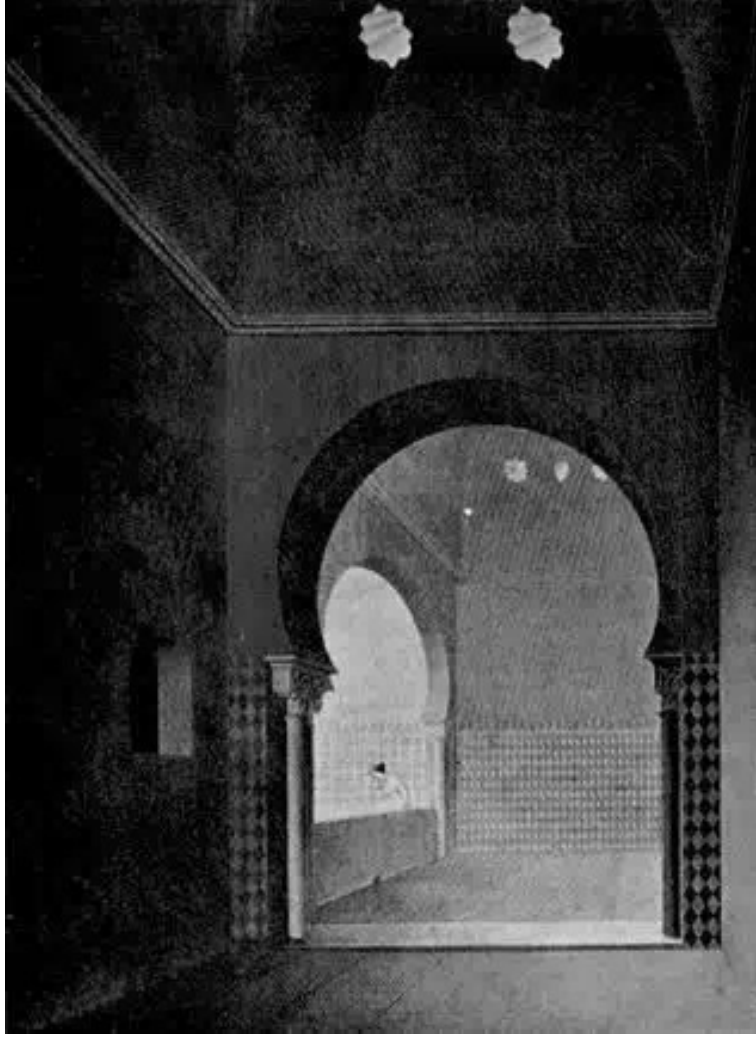
فناء بركة السمك، أو الآس. رواق في فناء بركة السمك، أو الآس



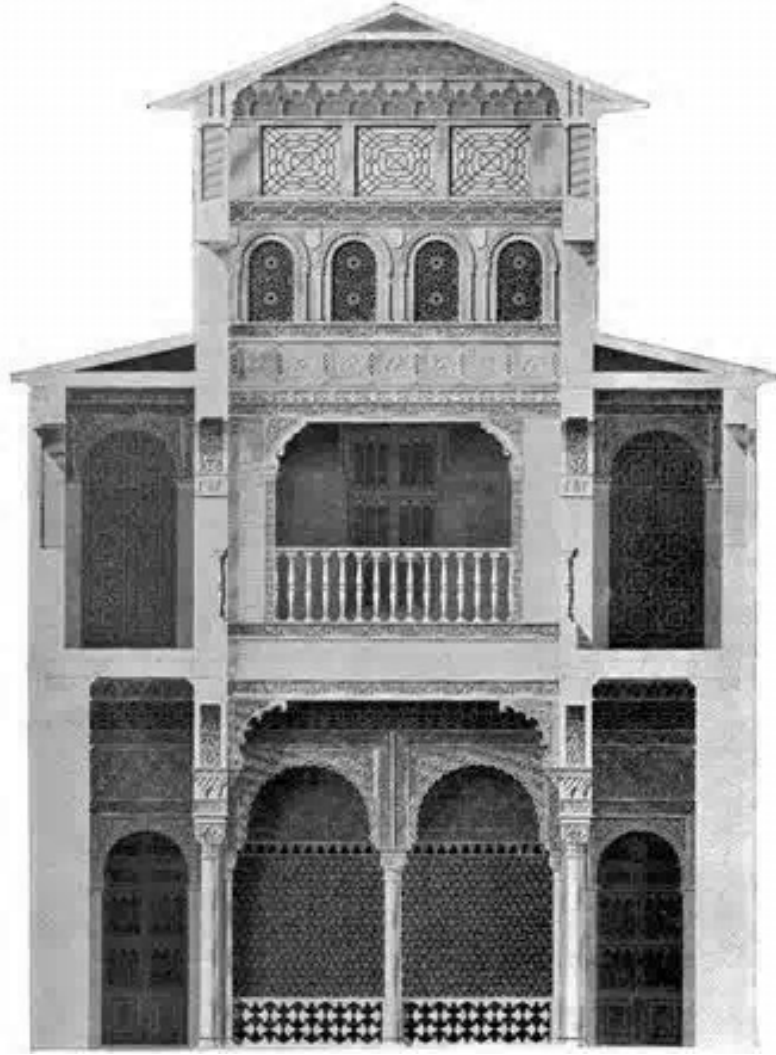
قاعة الحمامات



حمام السلطان



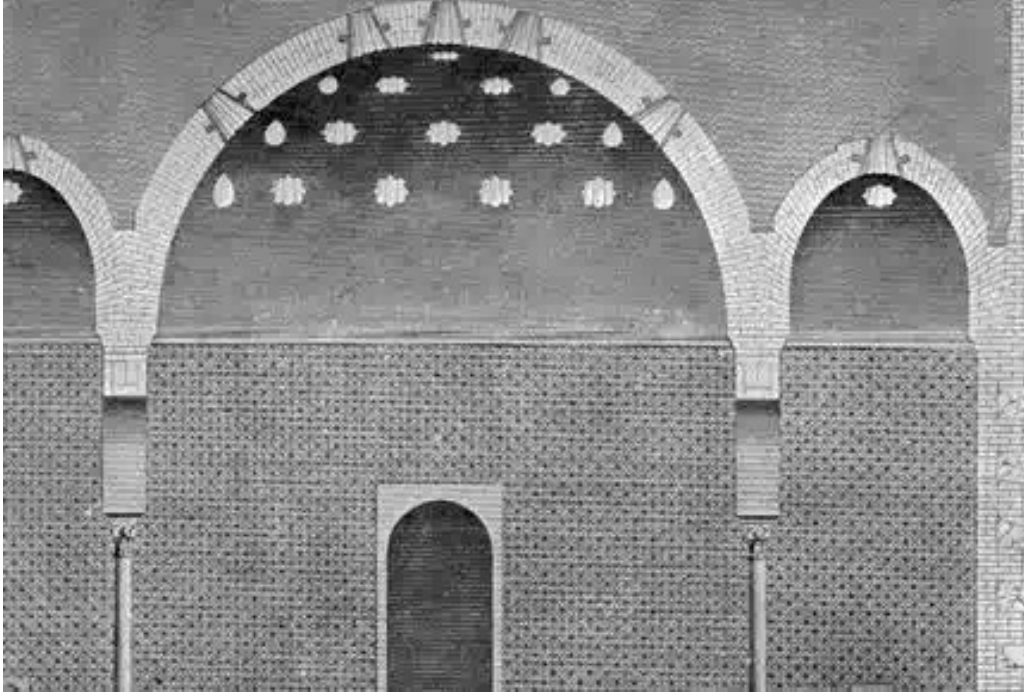
حمام السلطانة



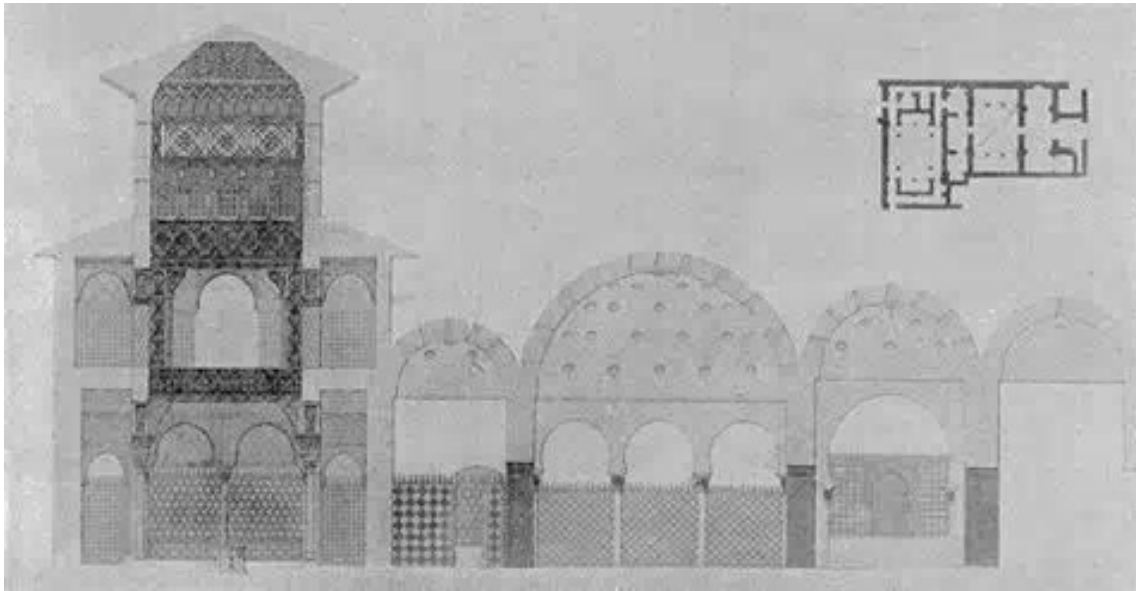
الحمامات، قاعة الاستراحة



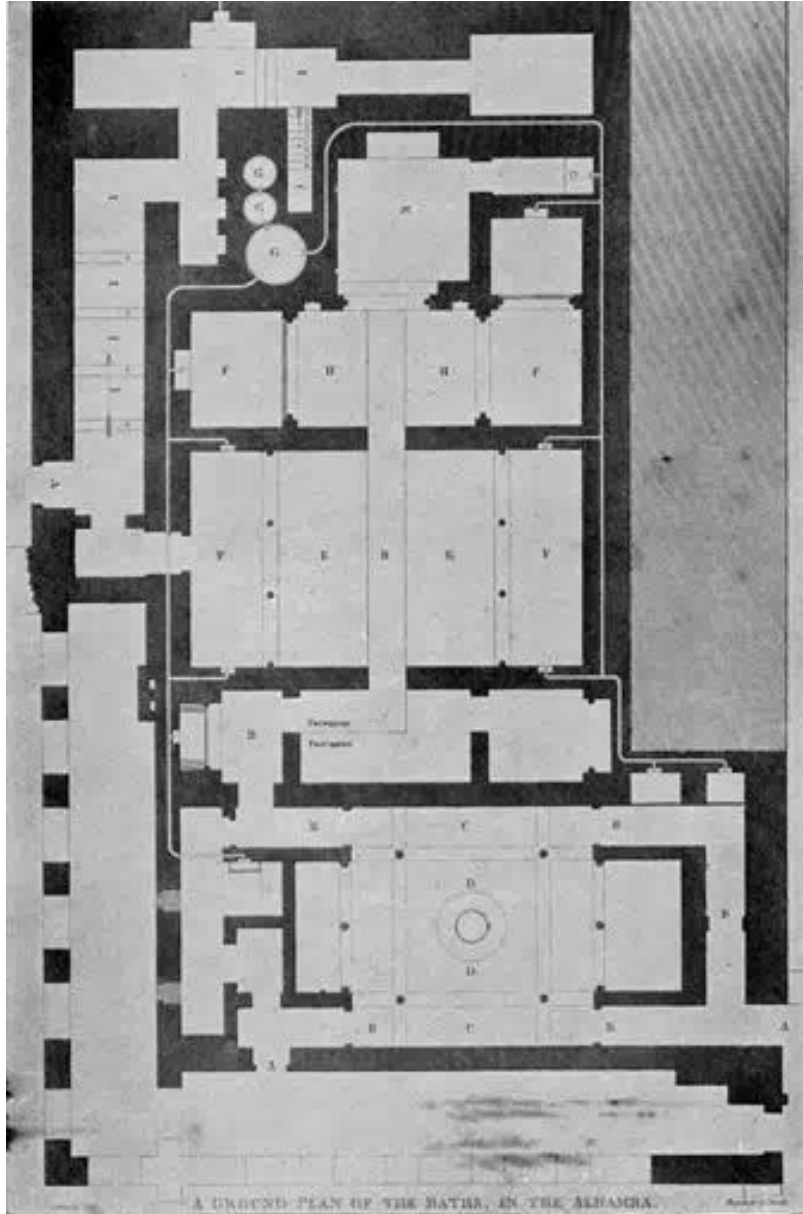
مقصورة الاستراحة



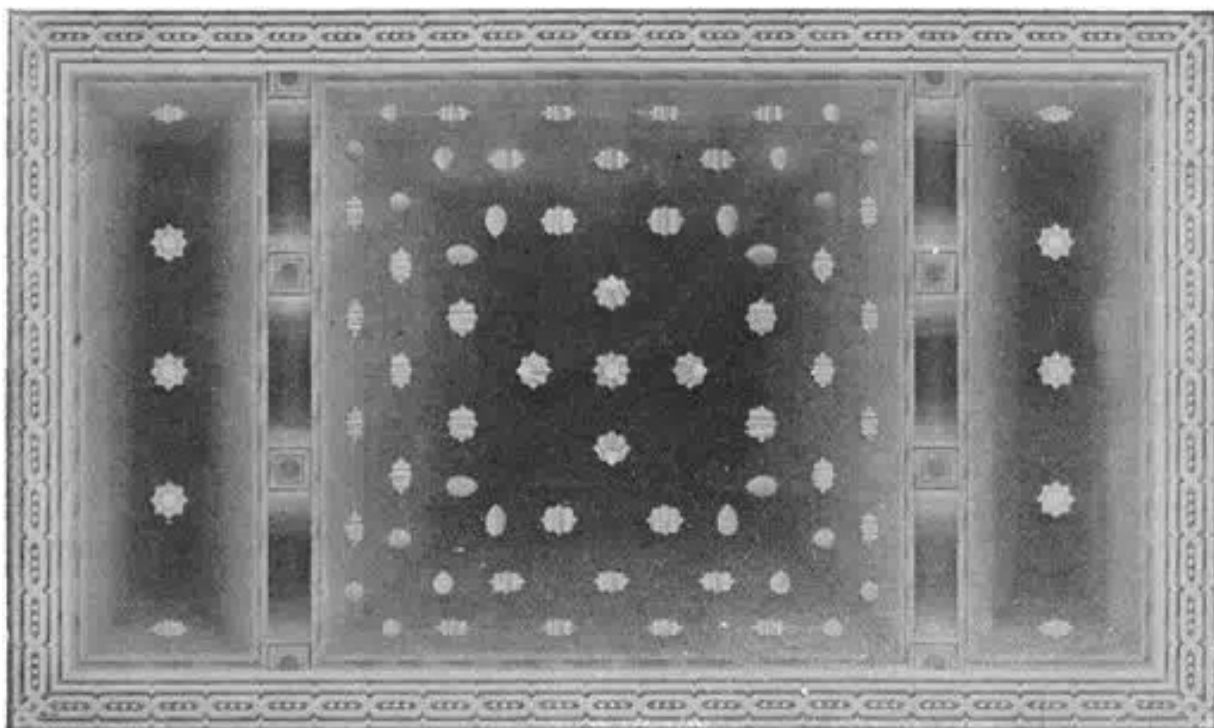
مقطع لقاعة الحمامات



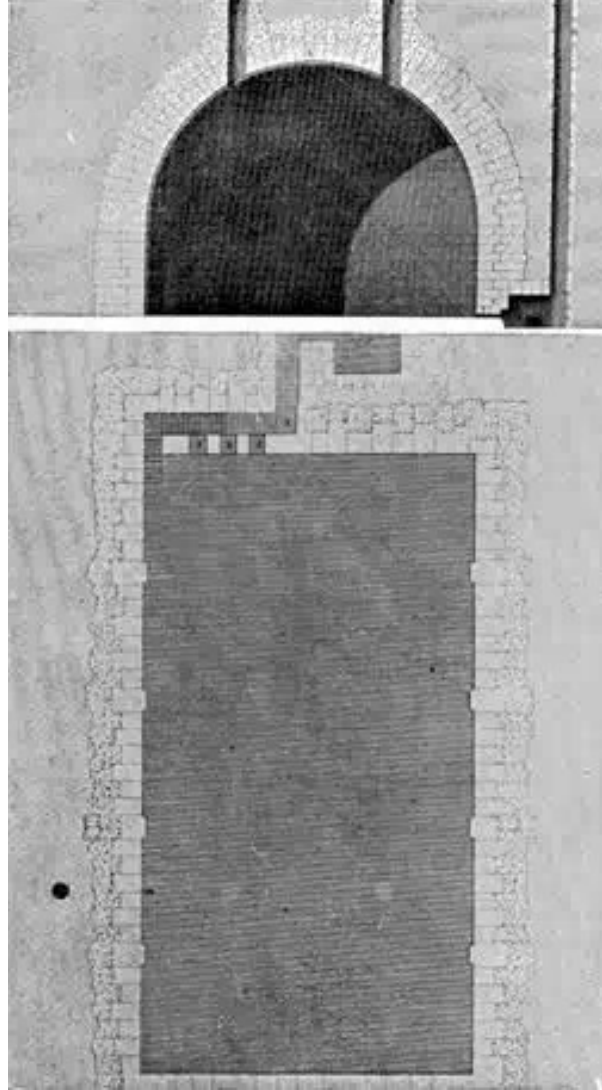
مقطع طولاني عبر الحمامات



المسقط الأرضي للحمامات في قصر الحمراء



سقف قاعة الحمامات



مسقط أفقي ومقطع لخرّان الماء الكبير في قصر الحمراء



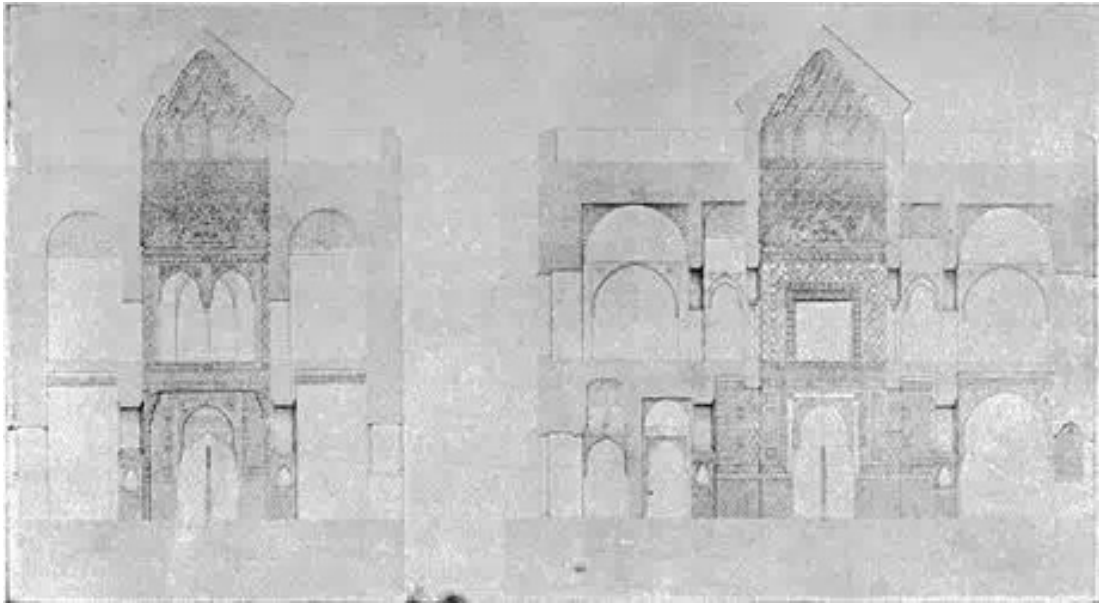
مقطع للحمامات في قصر الحمراء



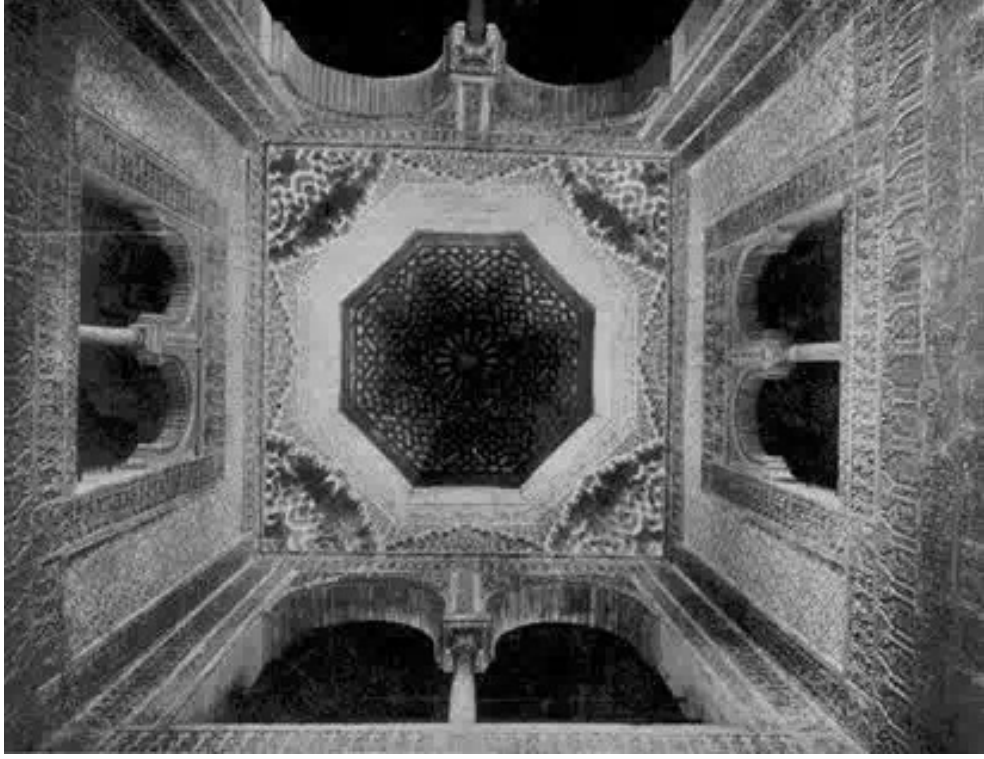
مقصورة الاستراحة. حَمَام السَّلْطَان الَّذِي بَنَاهُ يُوْسُفُ الْأَوَّلُ



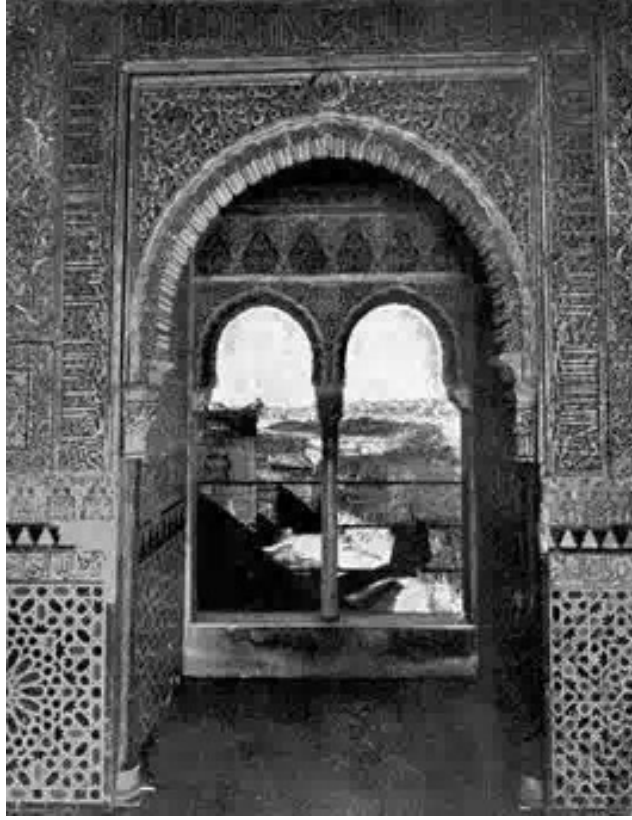
داخل برج الأميرات



مقاطع لبرج الأميرات



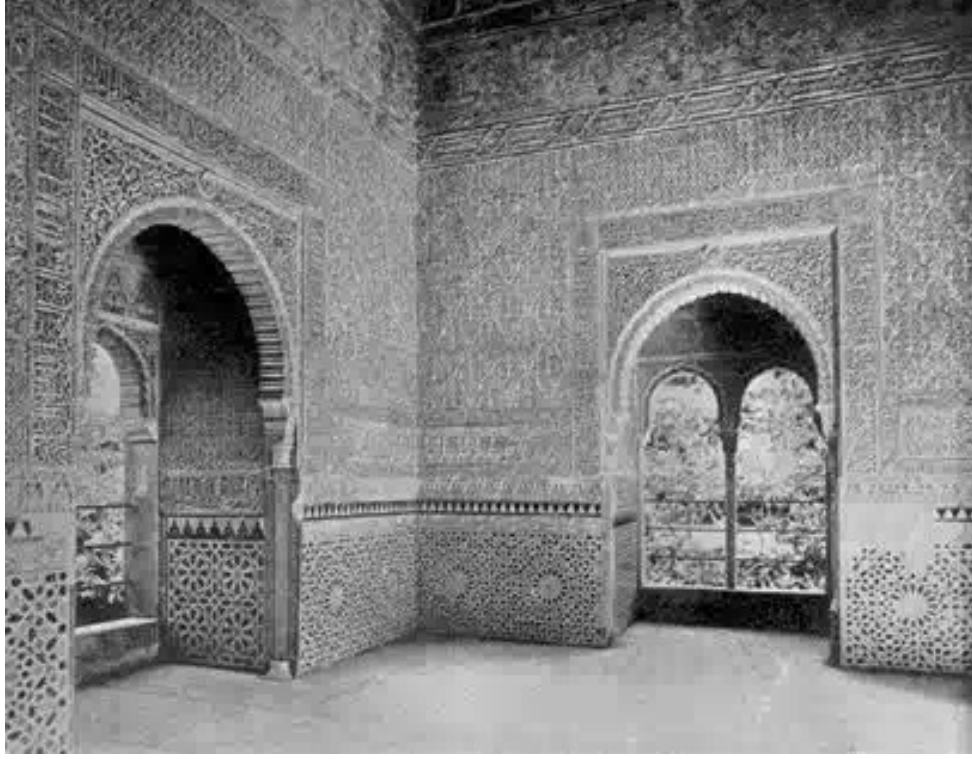
داخل برج الأميرات، القسم العلوي



شرفة «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)، المطلة على الثيغا، سهل غرناطة



مختلى «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)



داخل برج «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)



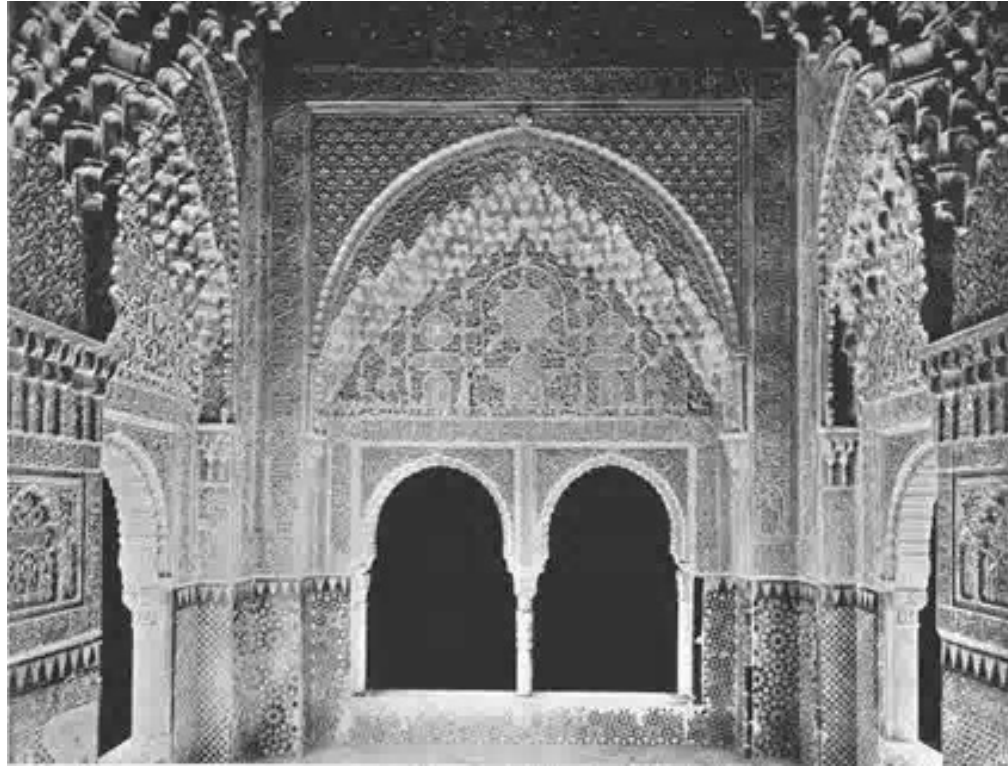
برج «الأسيرة» من المدخل



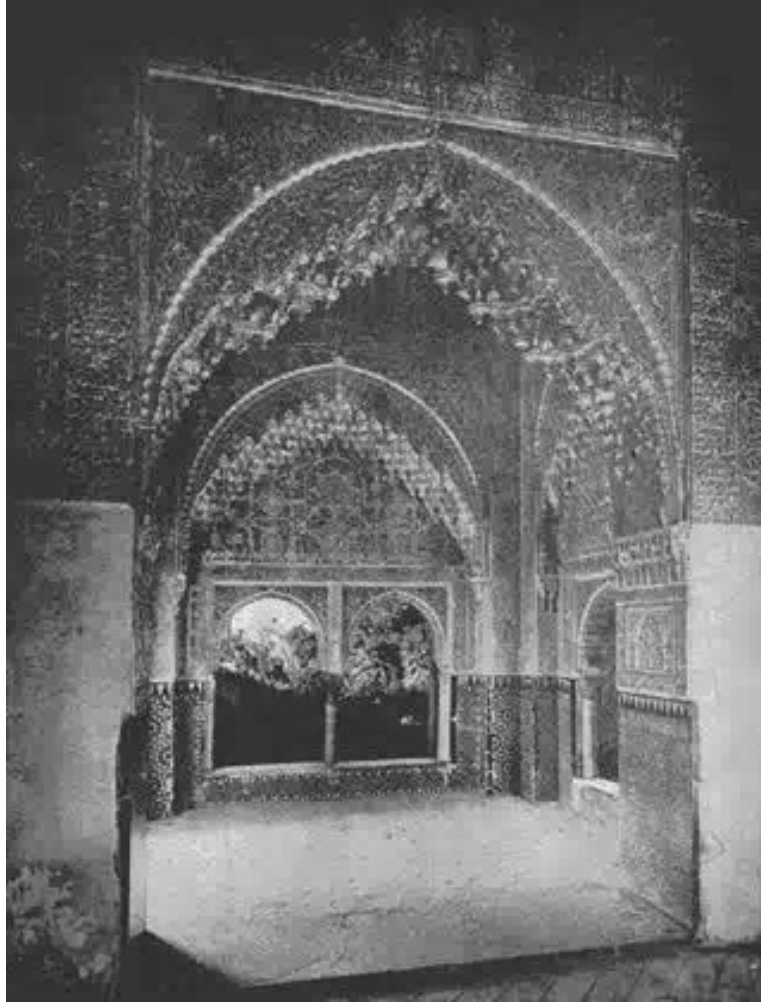
داخل المسجد. غرفة في برج «الأسيرة»



قاعة الشريعة. الحمامات، مقصورة الاستراحة



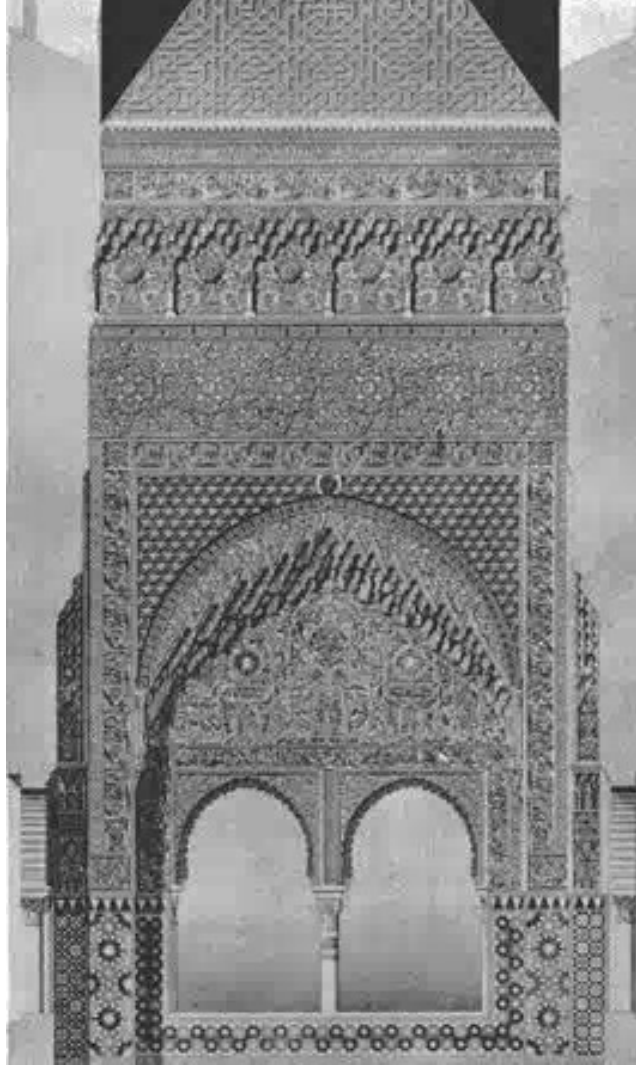
صورة 251: شرفة المحظية، «لينداراجا» Lindaraja



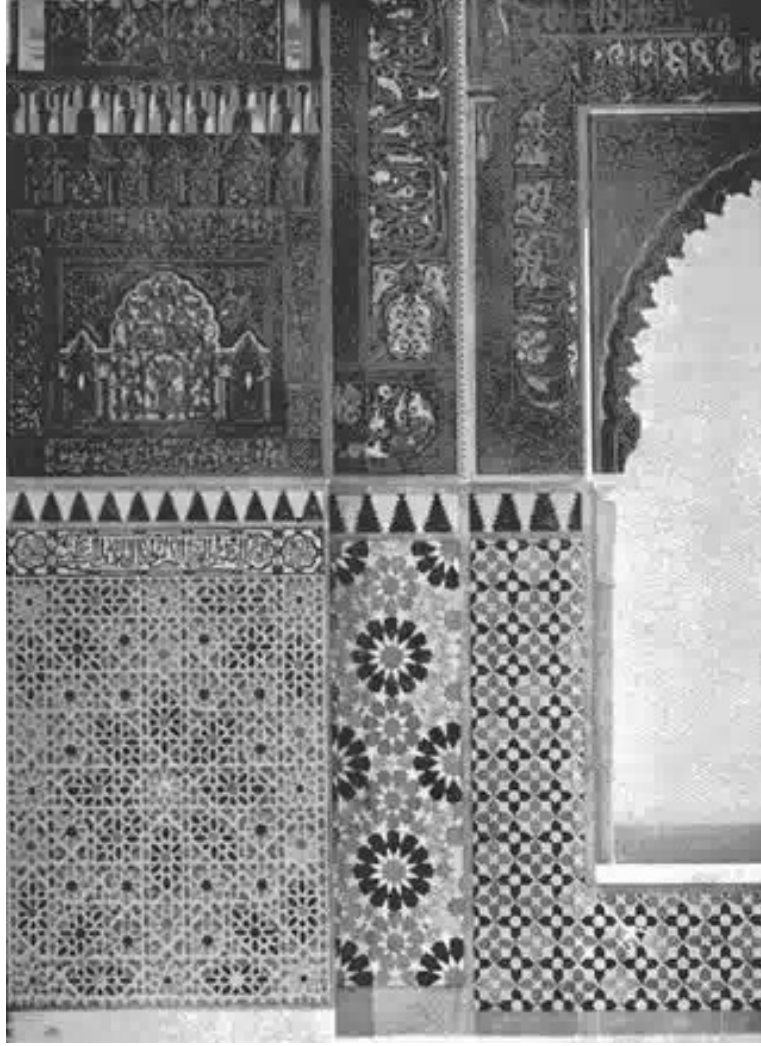
مختلى في شقق «لينداراڭا»



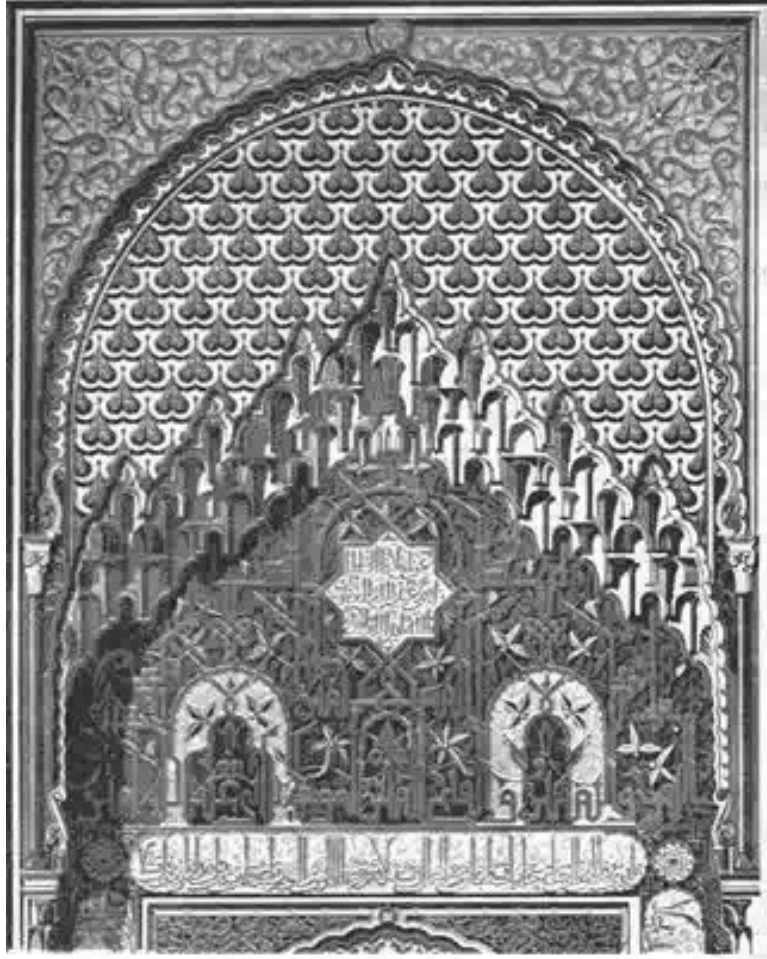
حديقة «لينداراجا»، والشَّقَق التي يقال بأنها كانت تشغله «اللينداراجا» Lindaraja،
وهي سلطنة محظية



تفصيل، داخل شرفة «أينداراخا»



تفصيل، القسم السفلي من شرفة «البنداراखा»



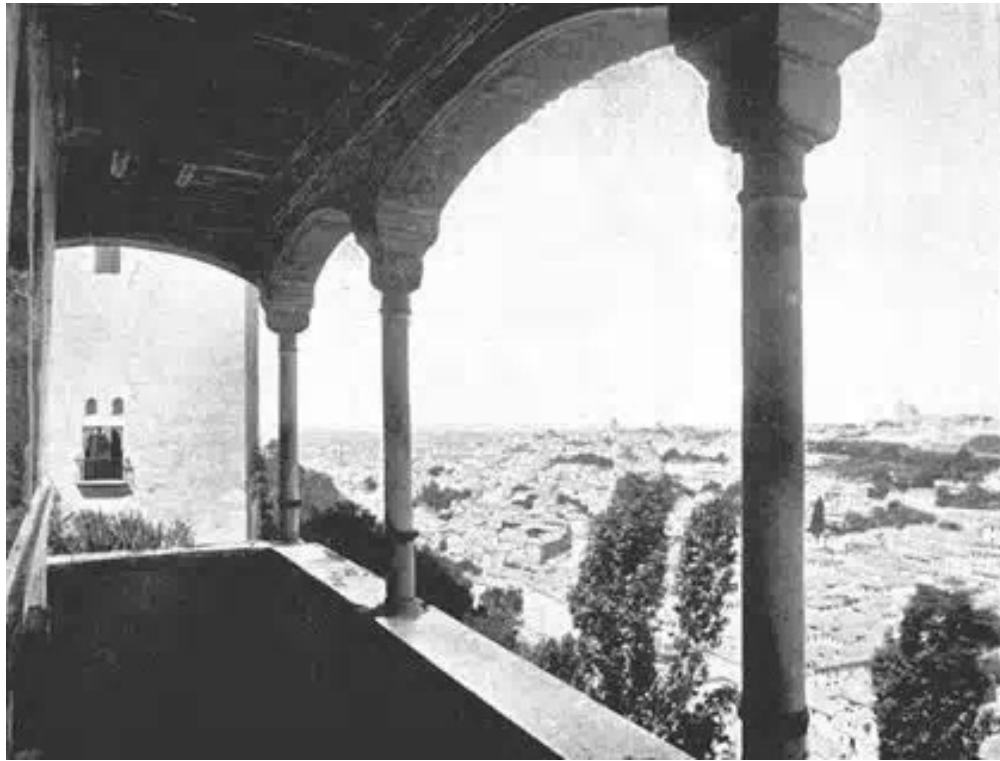
تفصيل للقسم المركزي لشرفة «لينداراخا»



مخدع الملكة ومنظر بعيد لجنة العريف



مخدع الملكة ومنظر جنة العريف



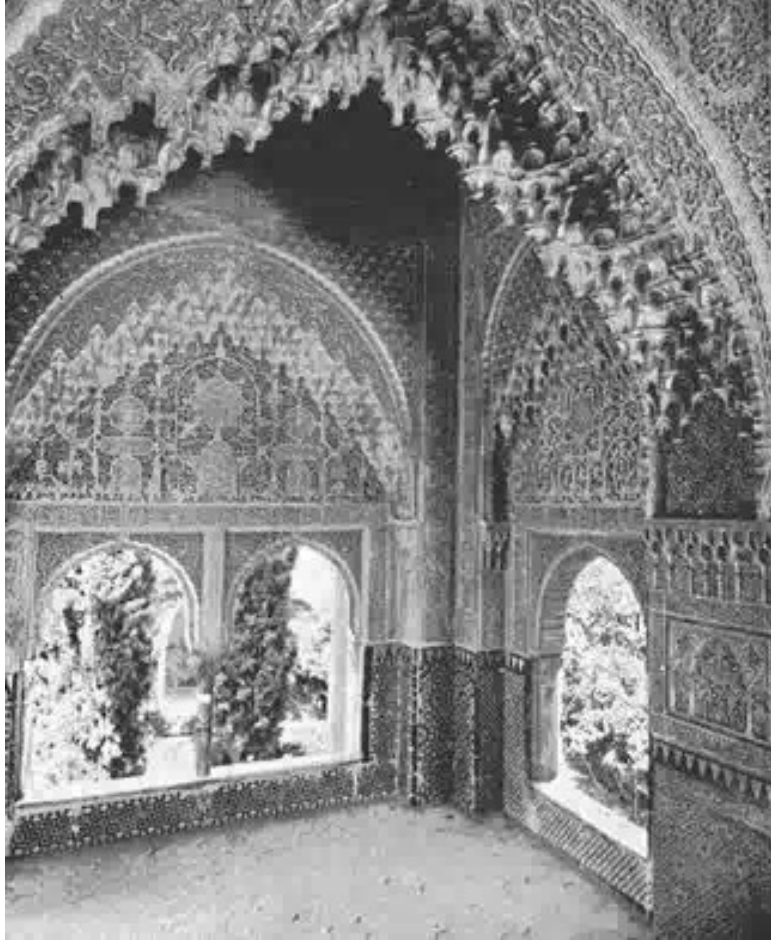
مخدع الملكة ومحلة البيازين القديمة



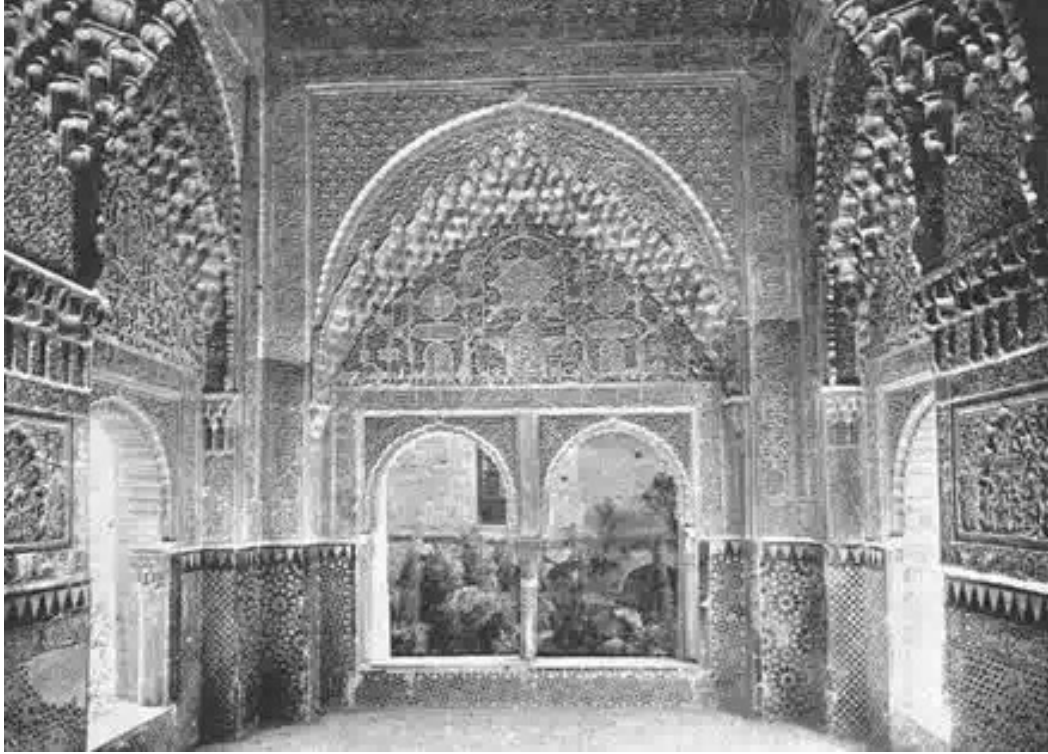
مخدع الملكة ومجرى نهر حدره Darro



حديقة «لينداراخا» والشقق التي أقام بها واشنطن إرفينغ



زاوية شرفة «لينداراخا»



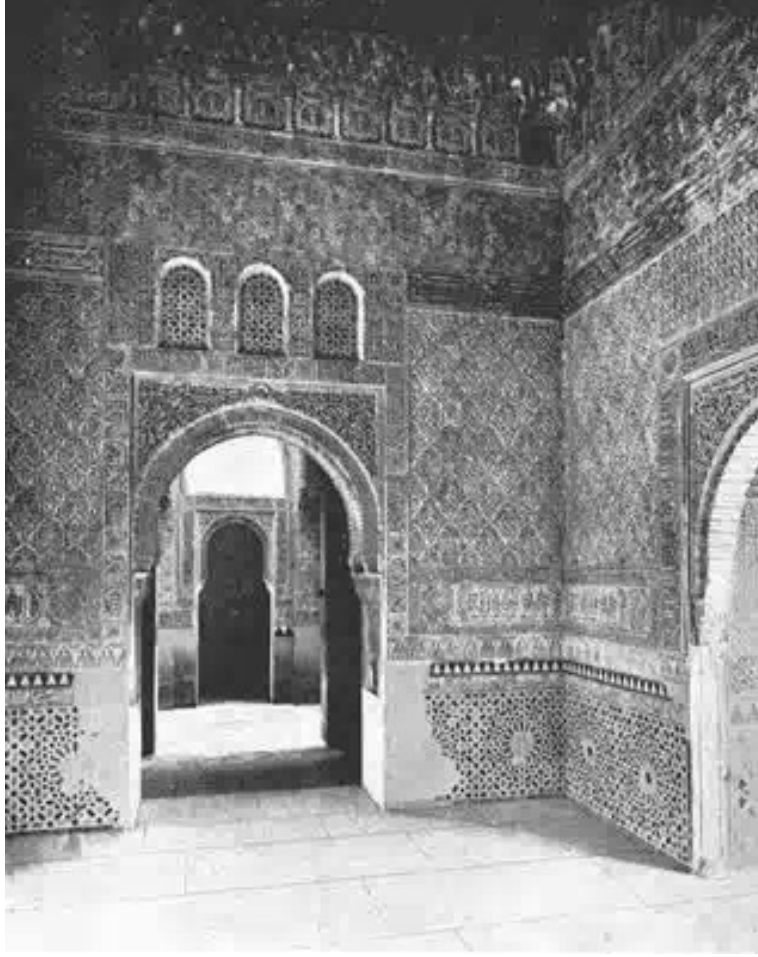
صورة 263: شرفة المحظية «لينداراها» Lindaraja



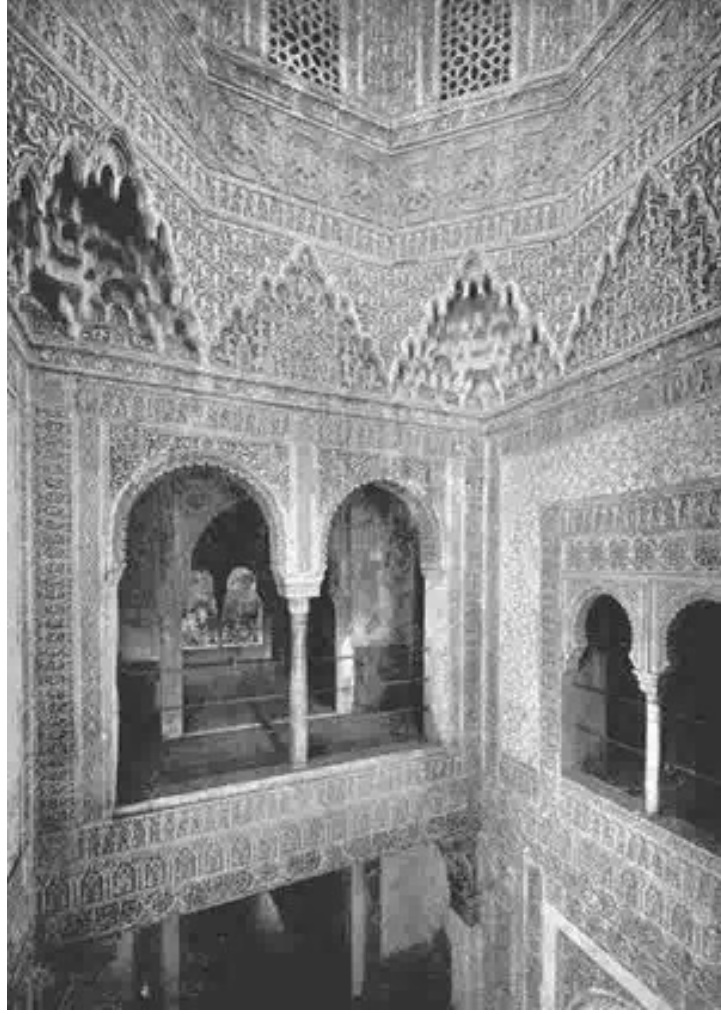
داخل برج الأسيرة، إيسابيل دي سوليس



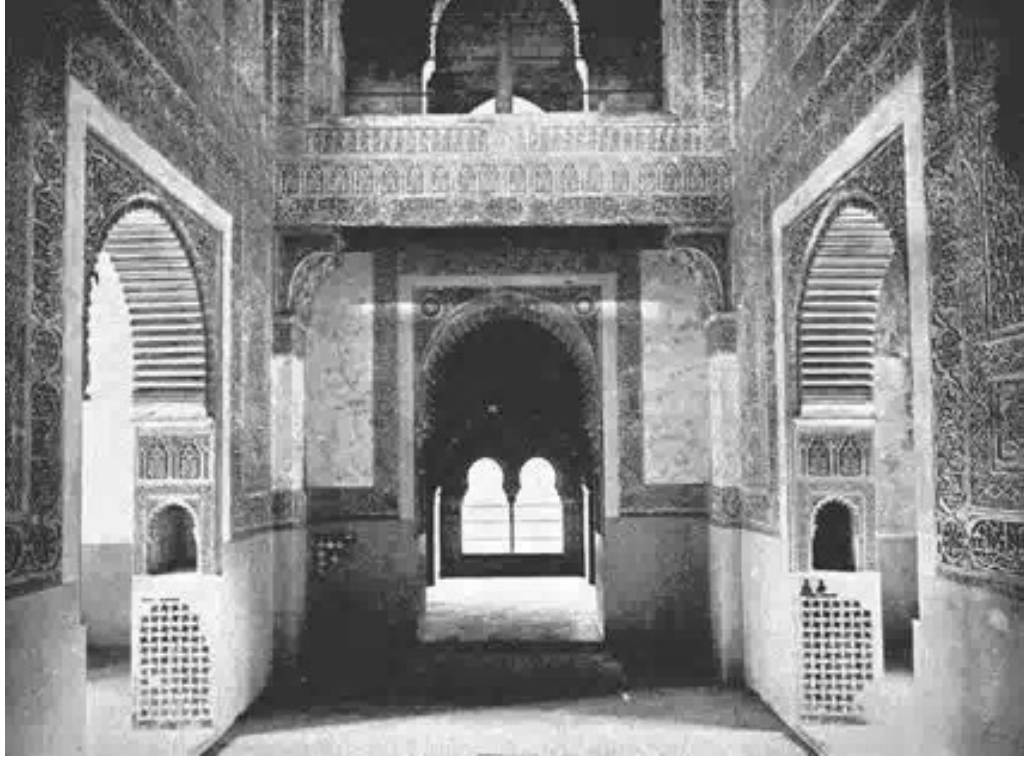
خارج برج الأسيرة



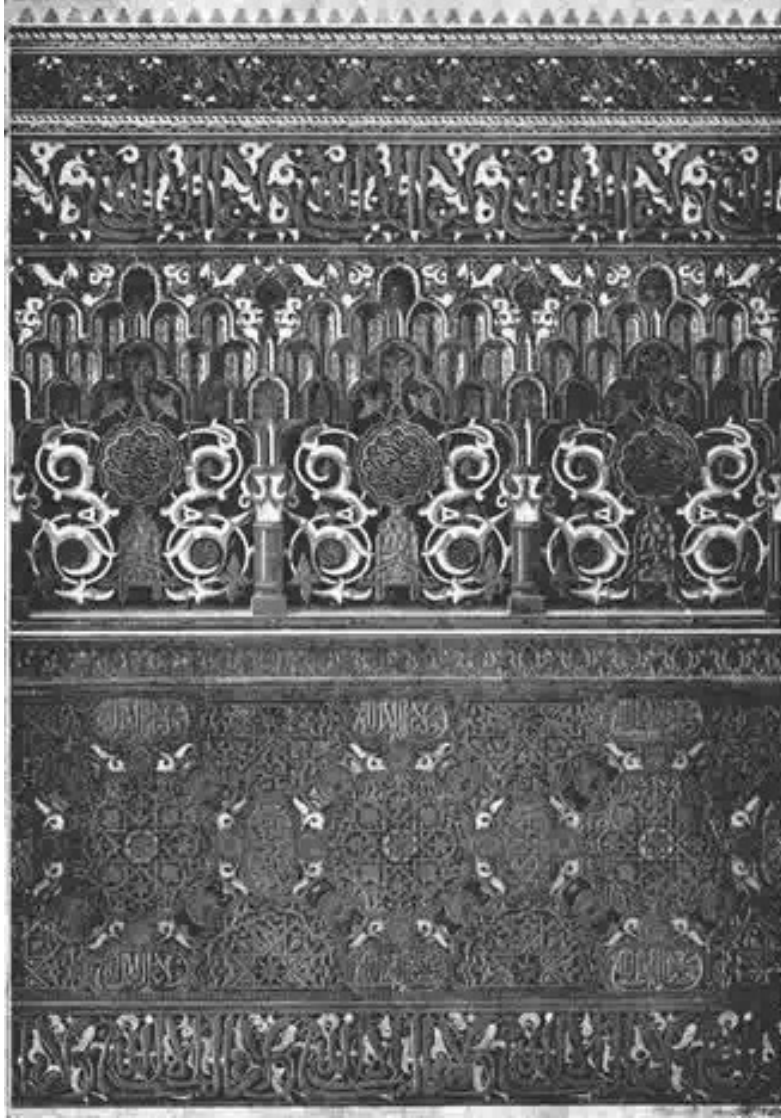
برج الأسيرة، إيسابيل دي سوليس



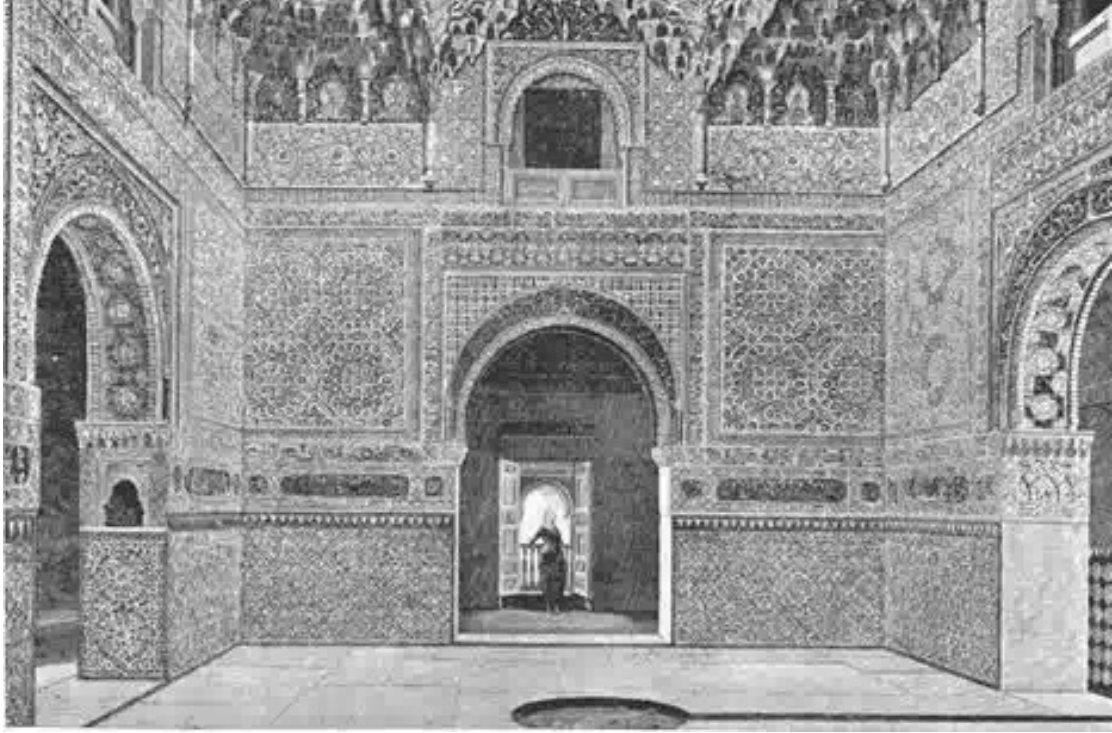
داخل برج الأميرات، القسم العلوي



داخل برج الأميرات



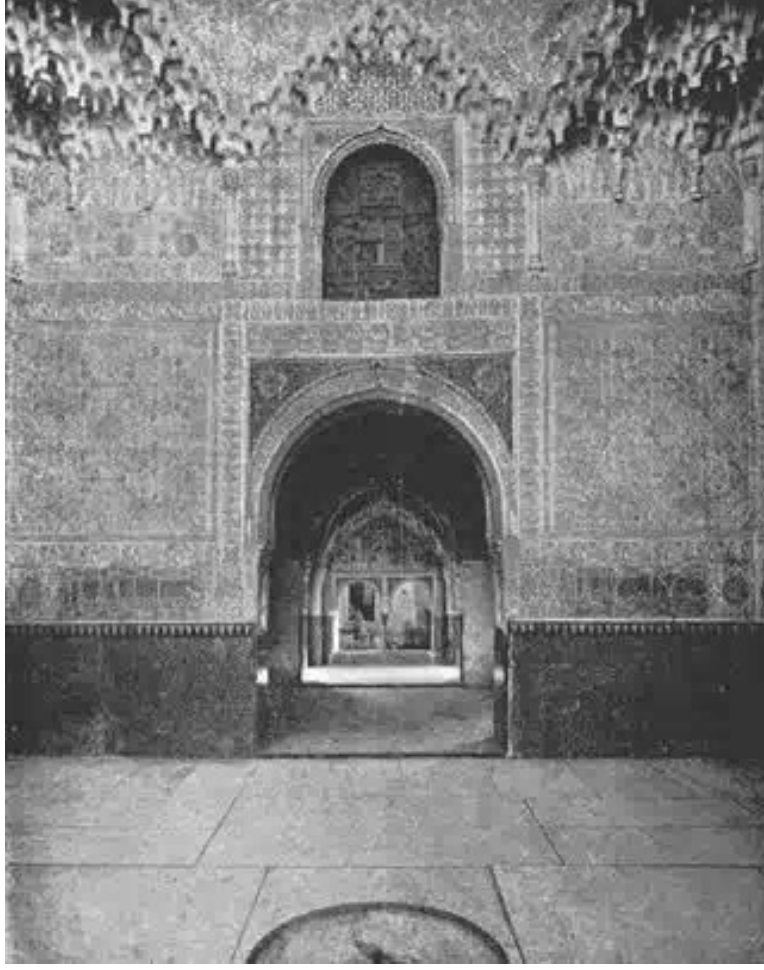
تفصيل للقسم العلوي من شرفة «لينداراخا»



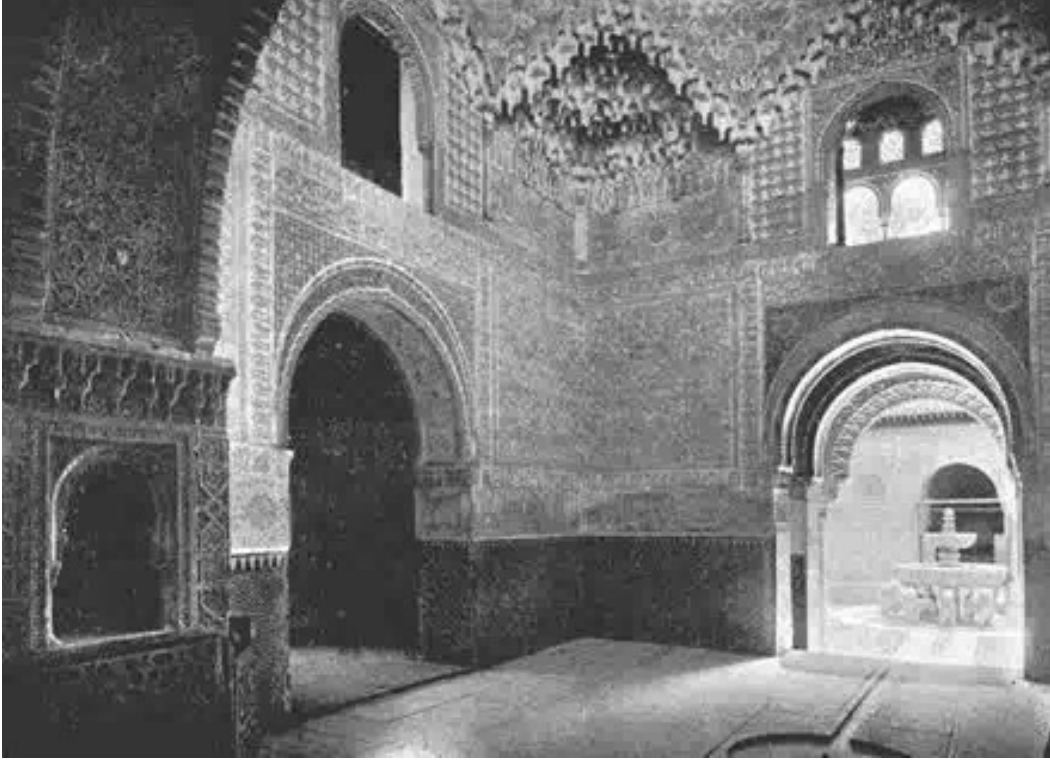
قاعة الأختين



مدخل قاعة الأختين



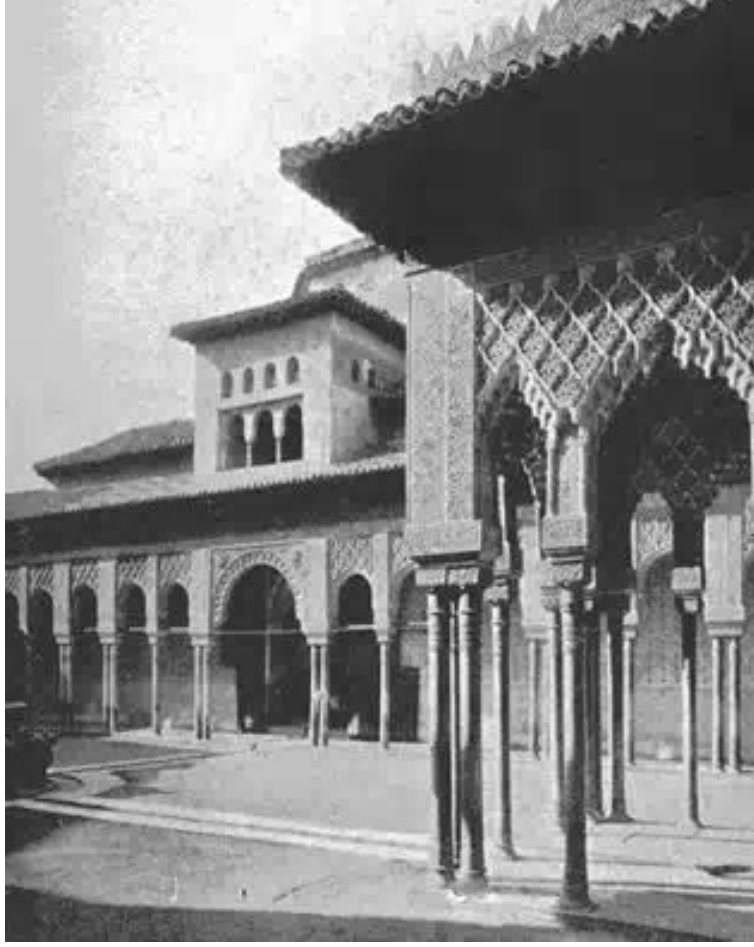
داخل قاعة الأختين



قاعة الأختين



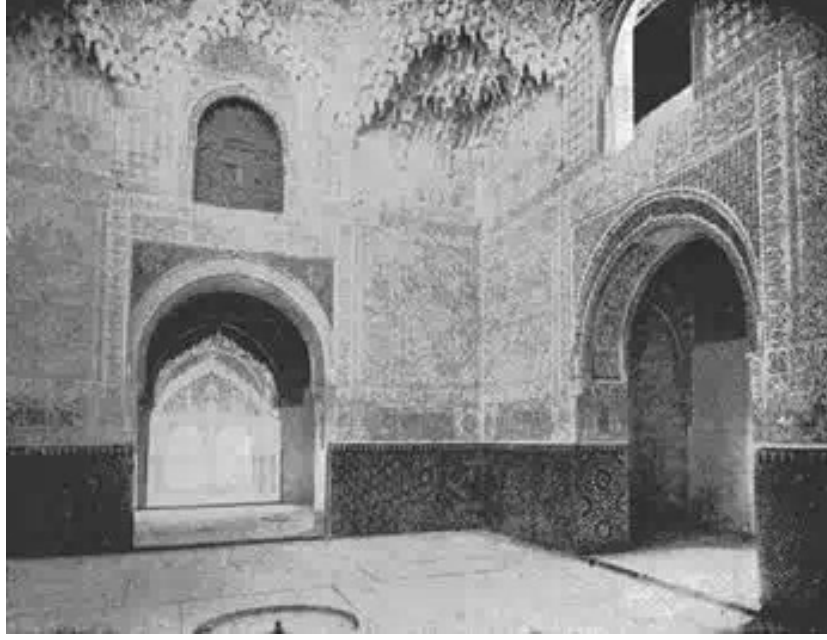
قاعة الأخطين



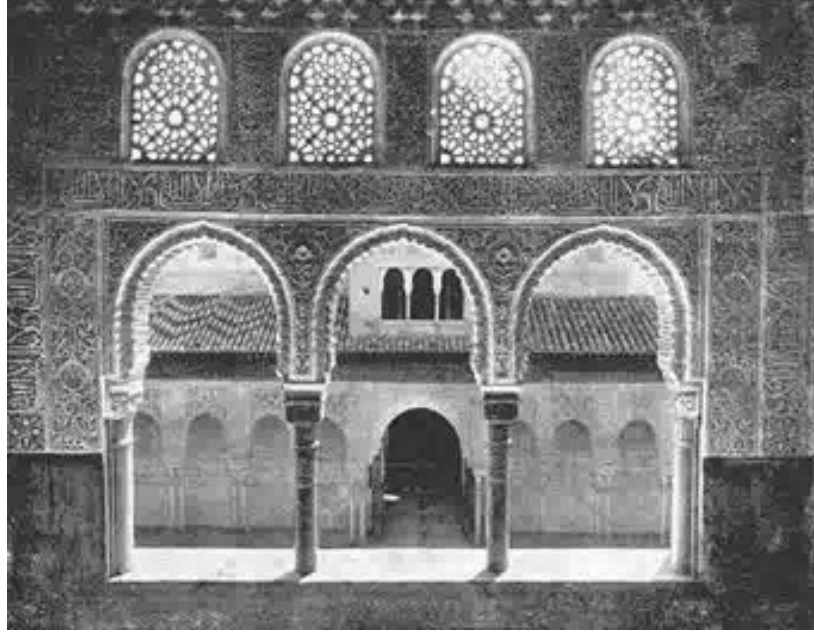
هيكل وواجهة قاعة الأختين



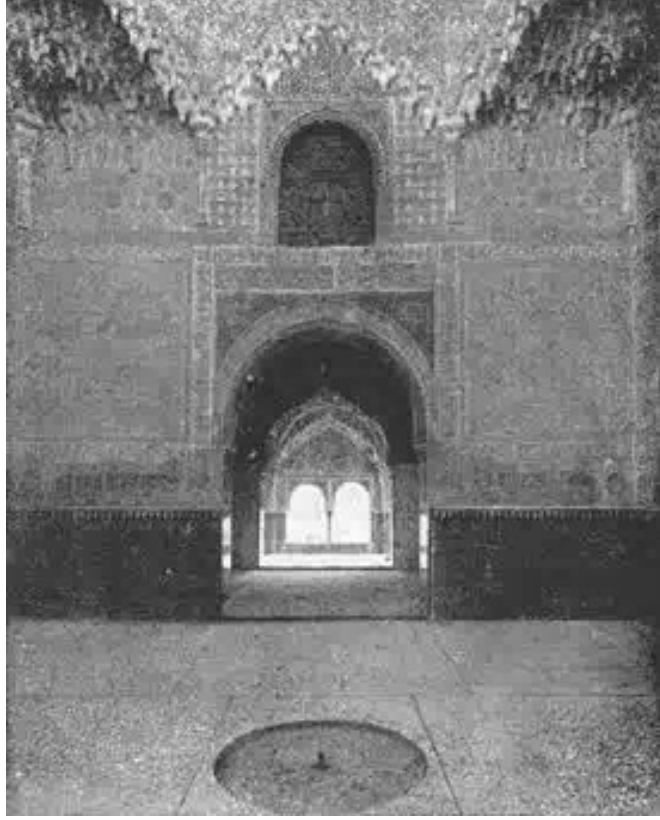
منظر في قاعة الأختين



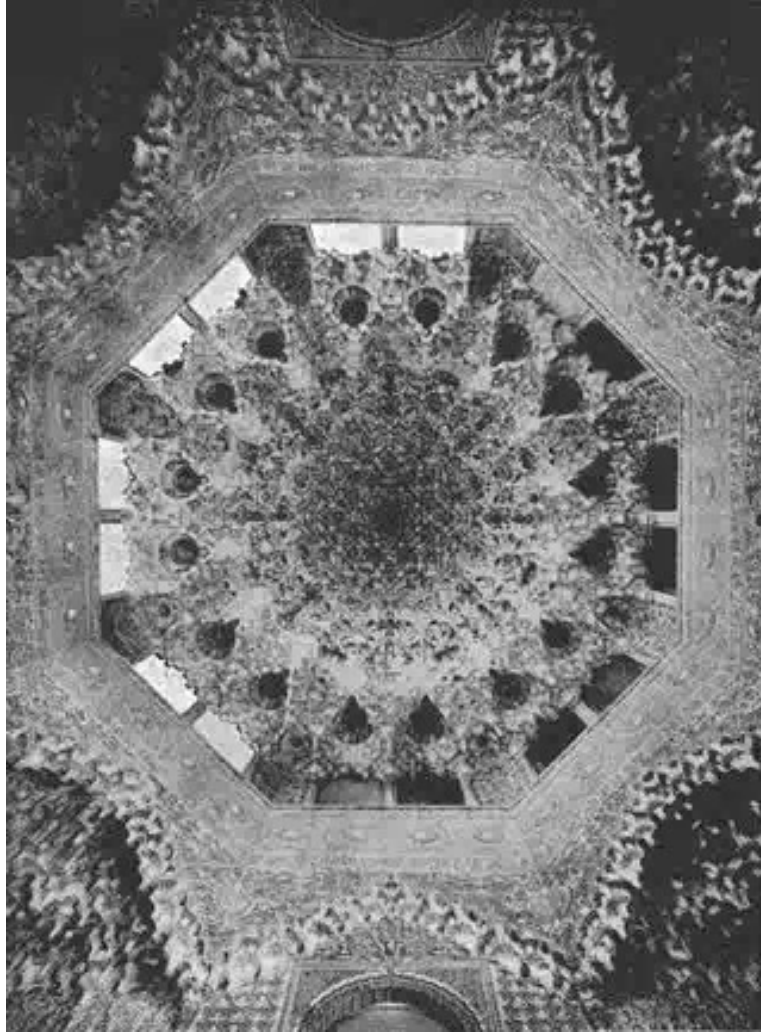
قاعة الأختين من باب المدخل، شيدها يوسف الأول



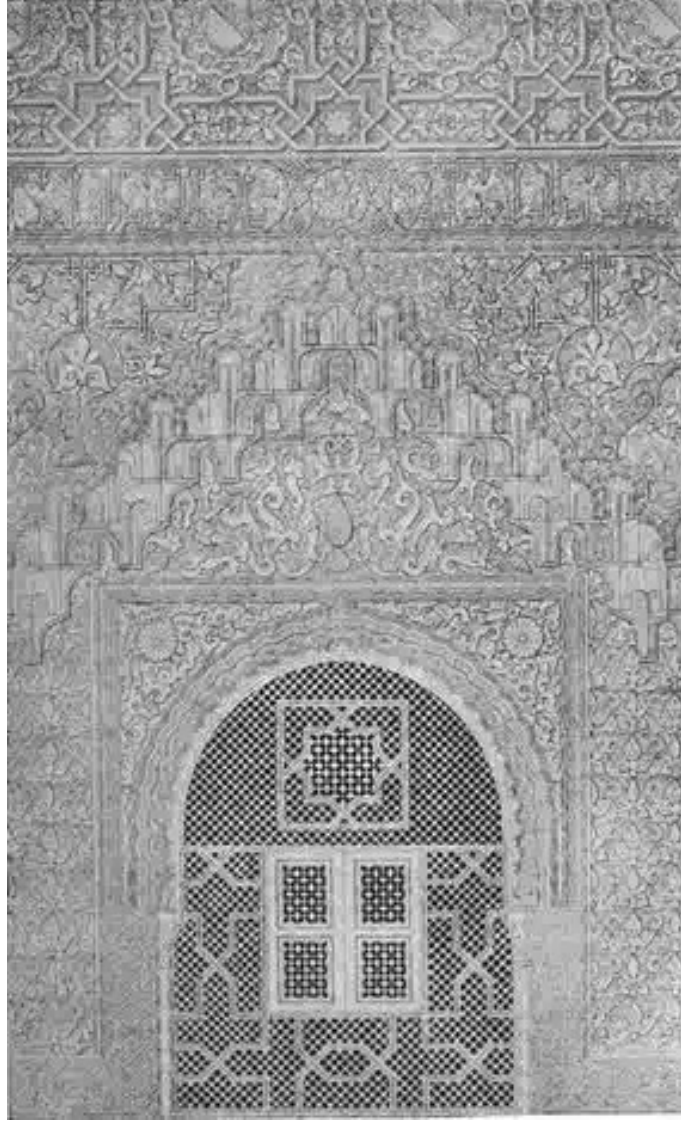
الشرفة العلوية لقاعة الأختين



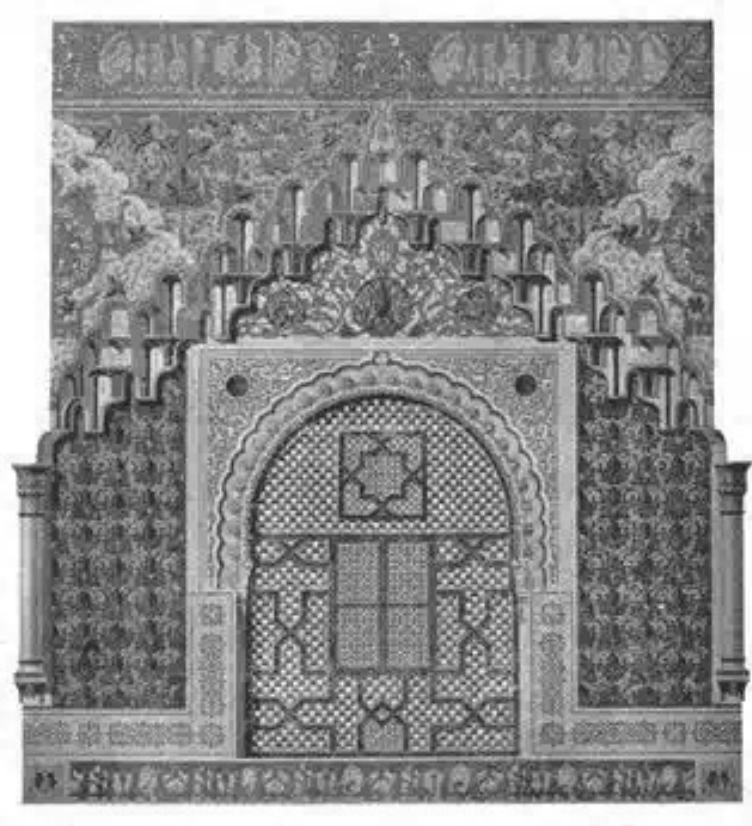
قاعة الأختين من باب المدخل



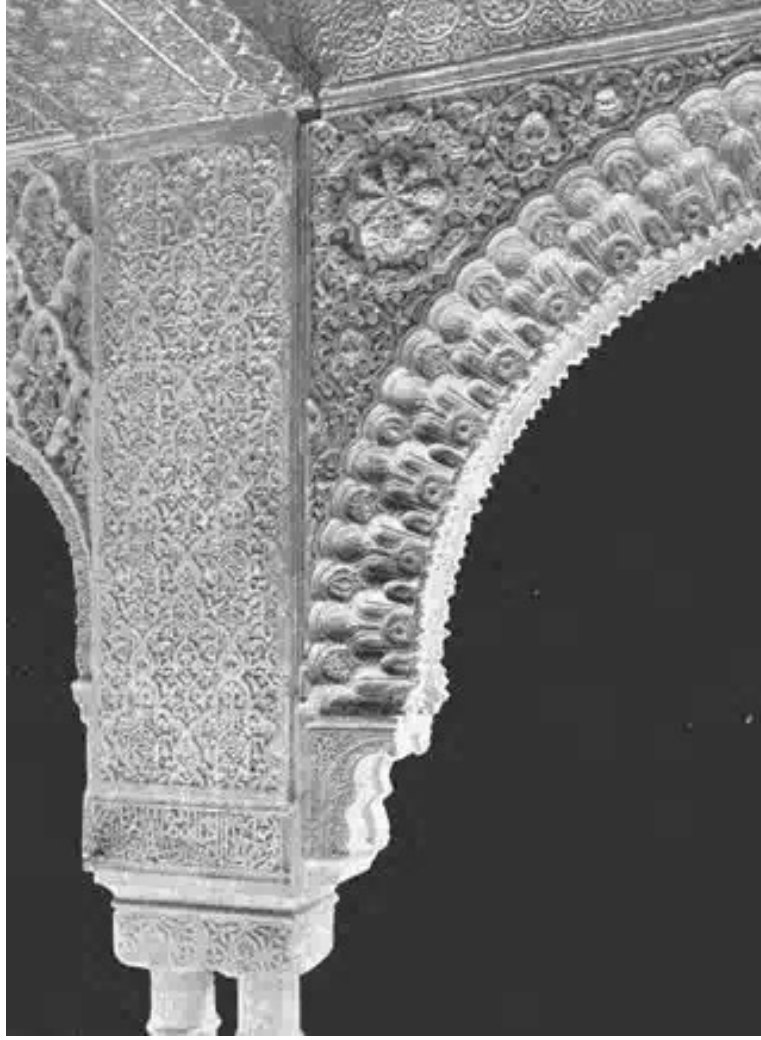
سقف قاعة الأختين



تفصيل الطابق العوي، قاعة الأختين



تفصيل النوافذ الجانبية لقاعة الأختين



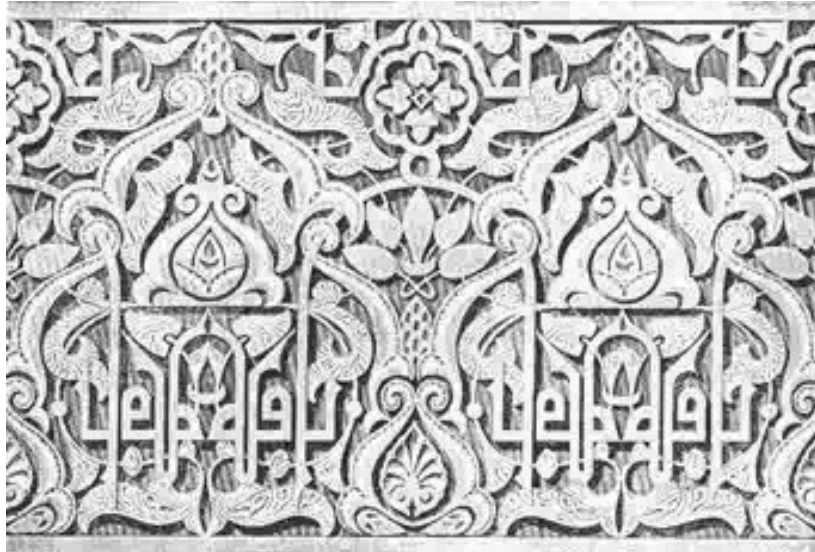
تفصيل في قاعة الأختين



لوح، وزخرفة، وكتابات في قاعة الأختين



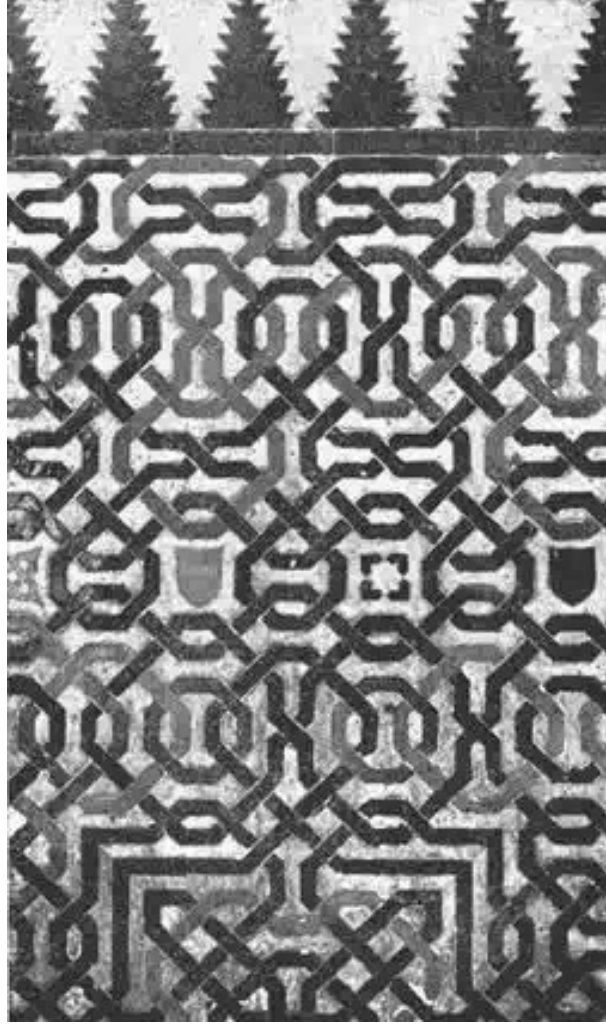
نقش كتابي في قاعة الأختين



طنف في قاعة الأختين



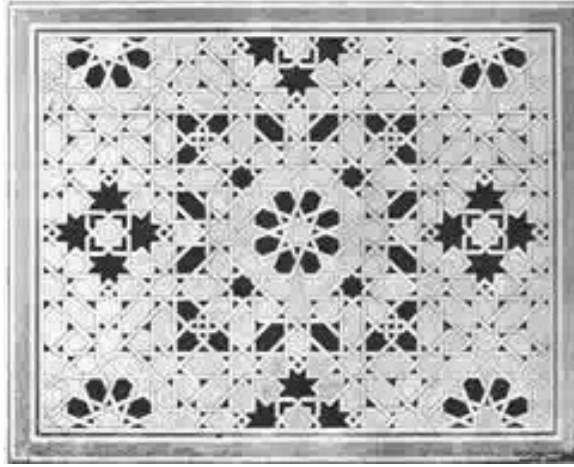
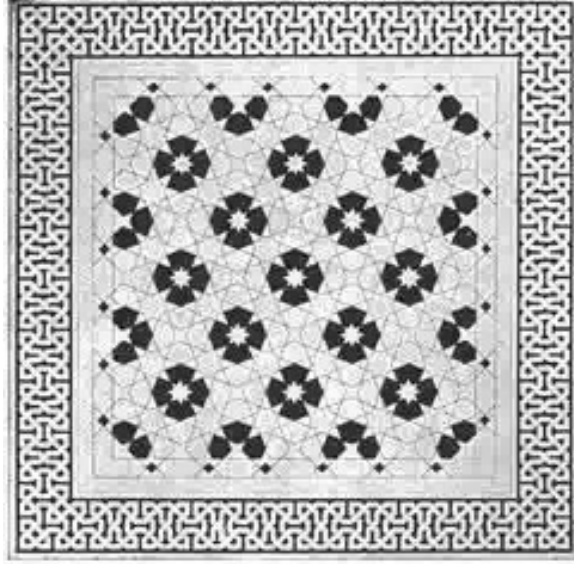
لوح على عضائد المدخل، قاعة الأختين



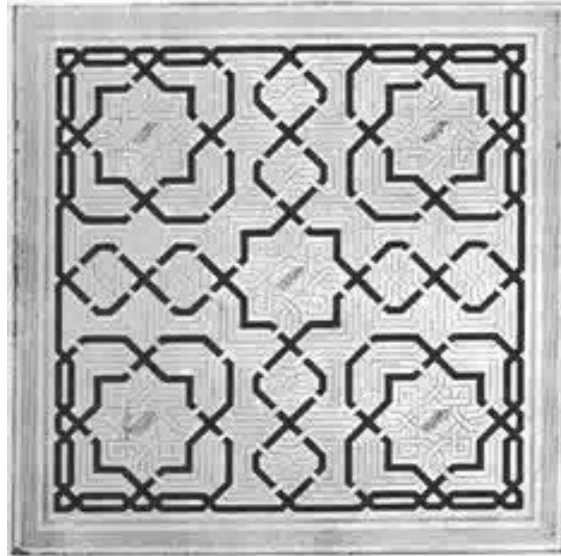
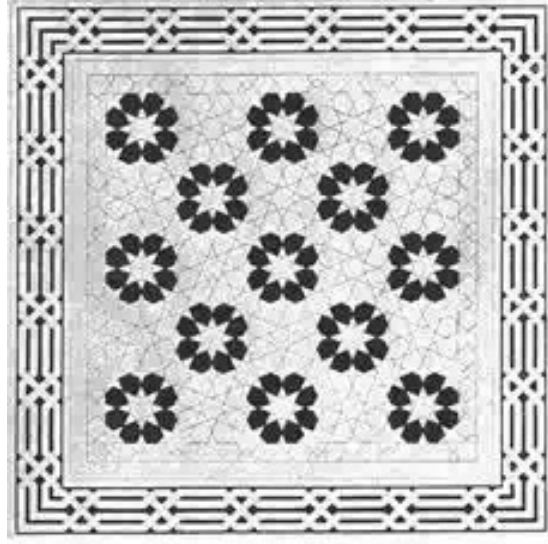
تفاصيل للألواح المزججة في دادو Dado قاعة الأختين



ألواح زخرفة شريطية، قاعة الأختين



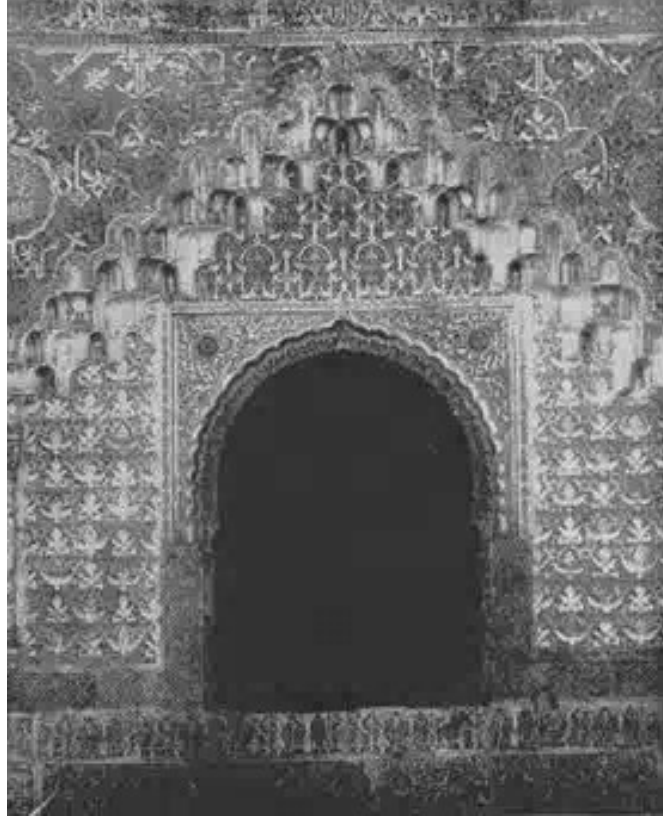
فسيفساء في دادو Dado الفجوة. فسيفساء في دادو مدخل قاعة الأختين



فسيفساء في دادو Dado قاعة الشُّفراء . فسيفساء في دادو قاعة الأختين



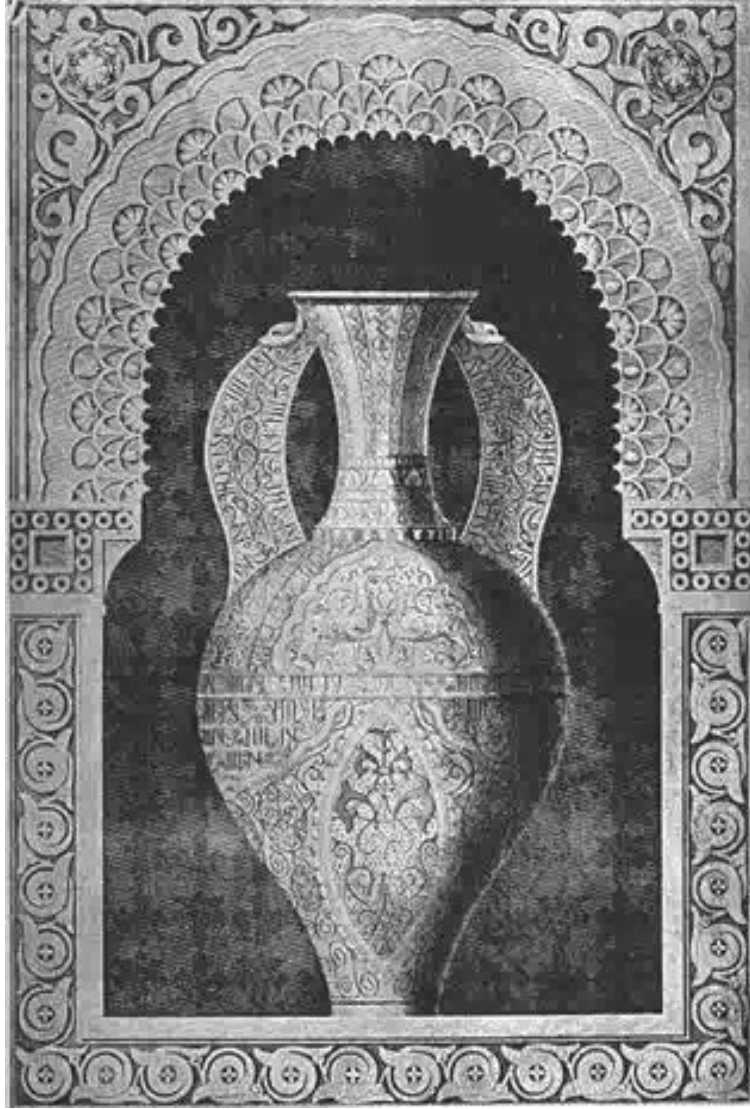
باب النبيذ. الواجهة الغربية



تفصيل لحصيرة النافذة القديمة الوحيدة الباقية في قصر الحمراء



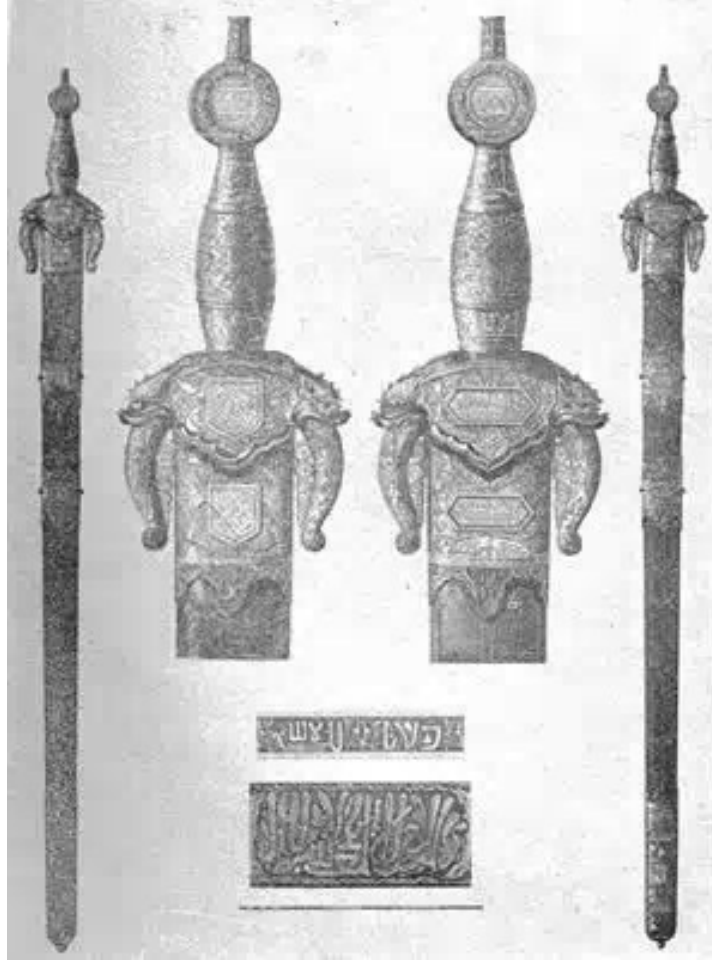
إل خارو El Jarro جرة عربية توجد الآن في متحف القصر



إل خأرو El Jarro الجرة العربية والمشكاة التي كانت موضوعة فيها، قاعة الأختين



جرة عربية من القرن الرابع عشر في المشكاة التي ظلت بها حتى عام 1837



سيف الملك المسلم الأخير لغرناطة، الذي يُطلق عليه: «سيف أبو عبديل»

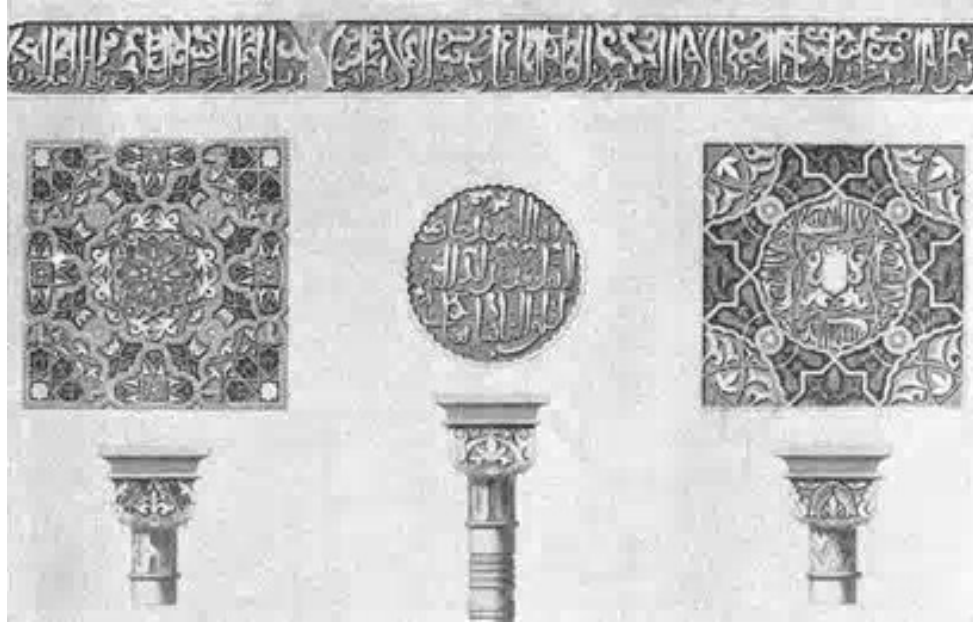


تسليم «أبو عبدل» غرناطة لفرناندو وإيزابيلا، 2 يناير 1492



نقد ذهبي (الوجه والظهر) يعود إلى محمد الأول،

منشئ قصر الحمراء، الذي حكم بين 1232-1272 للميلاد

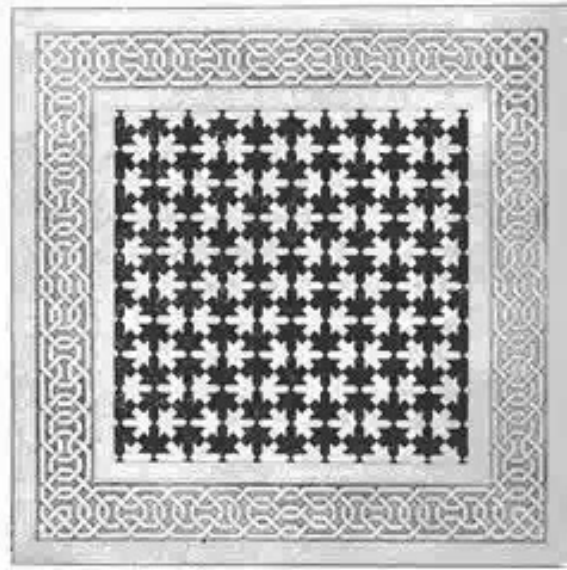
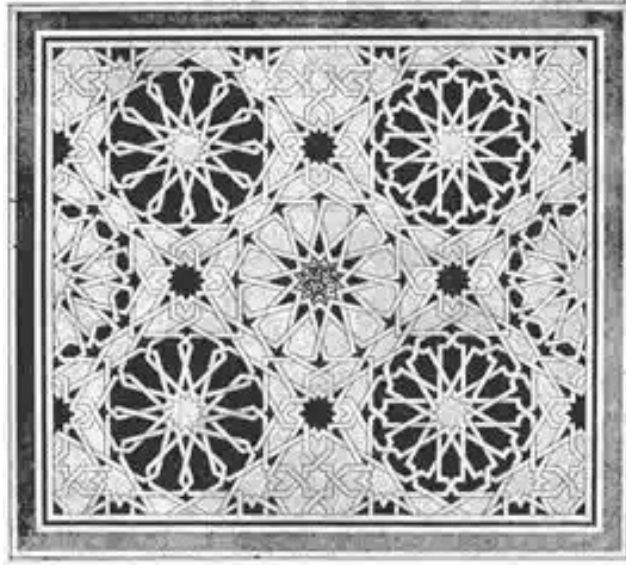


تفاصيل كتابات، وتيجان عربية

los muy altos catholros y muy poderosos señores don fernando y doña
sabel rey y Reyna nuestros señores conquistaron por fuerza d'armas e pte
noy ridad de granada la qual despues de aver tenidopis altras e upe
suva ptiada muy chote en poe e y moro mule y baze ules e entregaron qual bera
bra y otras fuerças a dos dias de enero de mill y cccc. xx años este muy modra
sus al pusieron en ella por qual mude y captanaron y un golpe de mude
conde de tendilla que d'agallon qual partiendosus al de aqui dexaron en la di
caba all bamba conquistados caballos e mill peones a los moros ma u da
ron sus al quedar en sus castas en la ridad e sus alcarras como prime
ro estabam este die ho conde por su ma u a y rito de sus al bvo hazer este calabe

الكتابة القوطية التي وضعها في قصر الحمراء الكونت تِنْدِيَا، Tendilla،

لتخليد استسلام القلعة في عام 1492



تبايط بالفسيساء في غرفة لباس الملكة (Tocador de la Reyna).

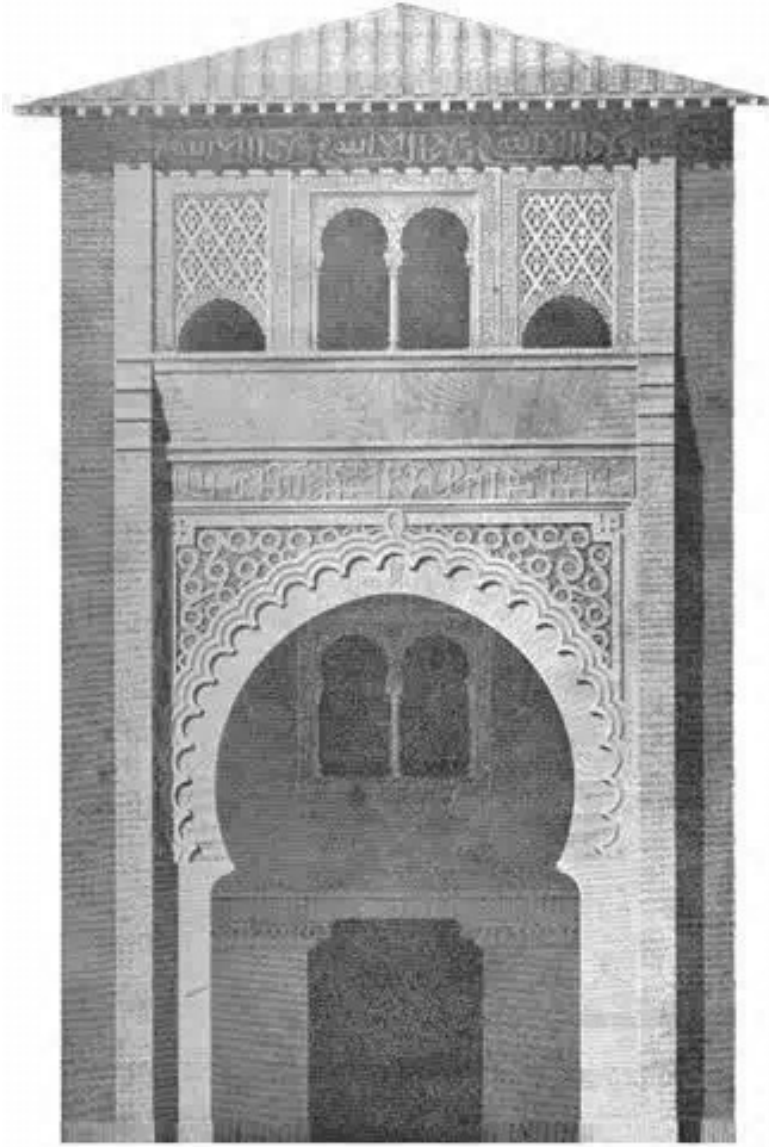
فسيساء من قطعة في قصر الحمراء



بيت الفحم



سوق الحبوب القديم وبيت الفحم



ارتفاع كاسا دل كاربون، أو بيت الفحم، الذي كان يعرف ببيت ديك الطّقس



فناء دار عربيّة في البيازين



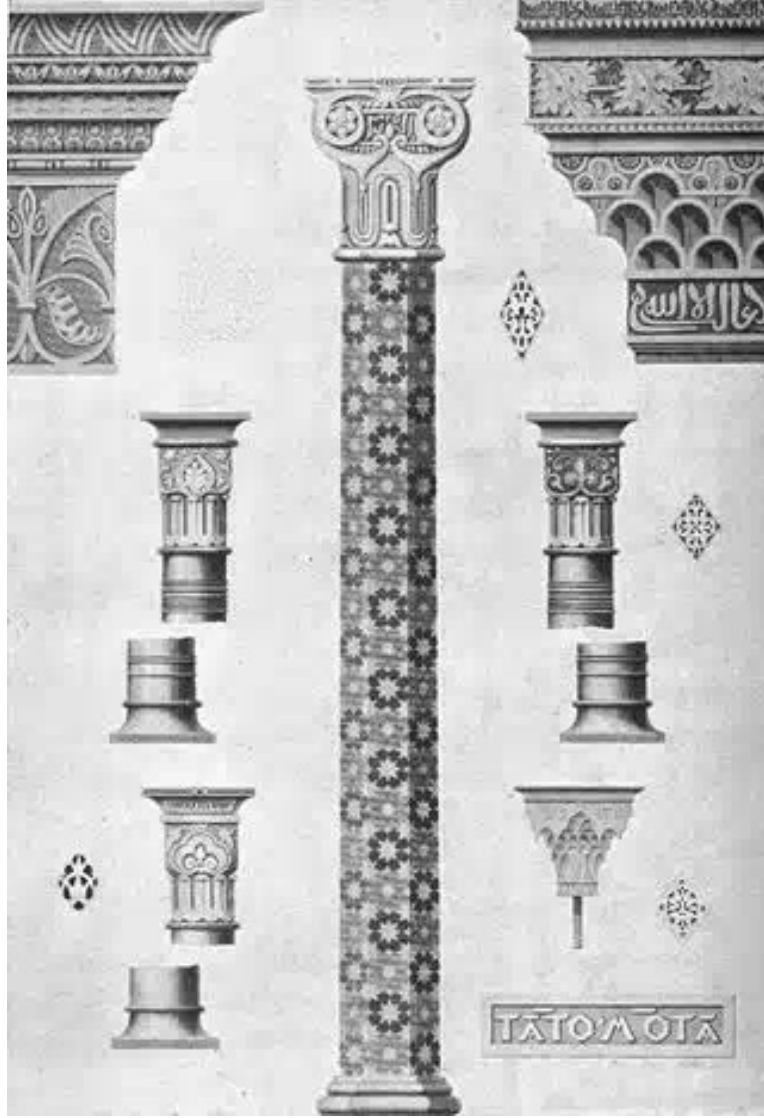
داخل دار عربيّة في البيازين



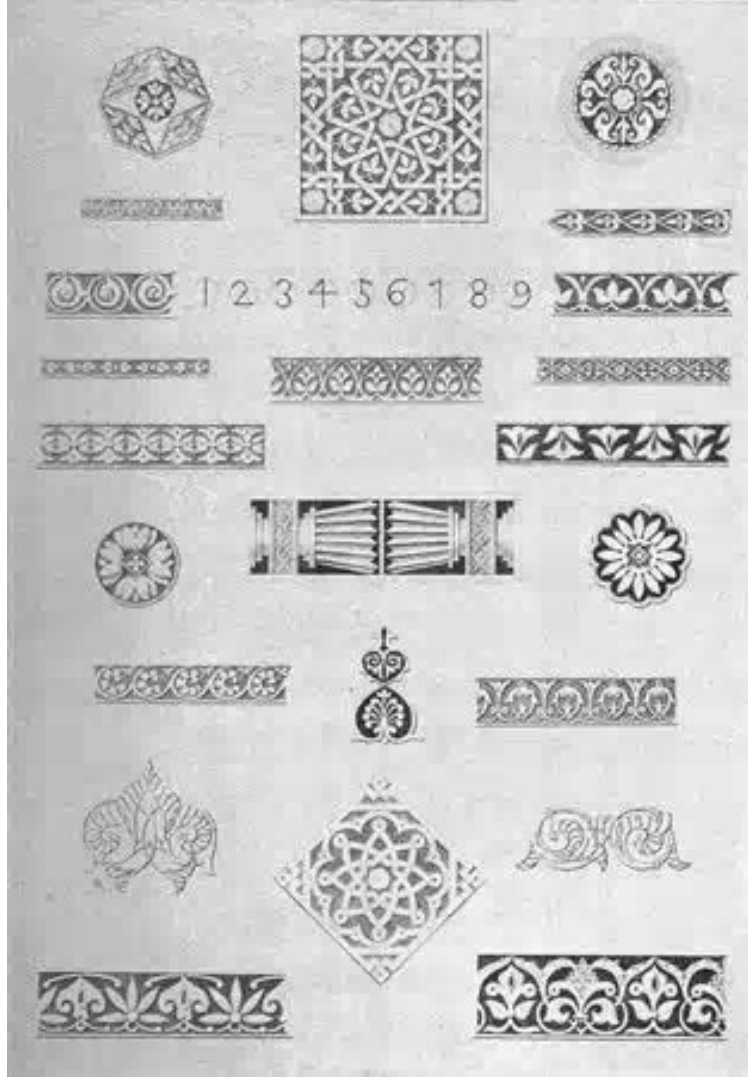
مناداة «أبو عبديل». رسم پلاثیدو فرانشیس Plácido Frances
(المعرض الوطني للفنون الجميلة، 1884)



المؤلف في قصر الحمراء



طنوف وتيجان وأعمدة في قصر الحمراء



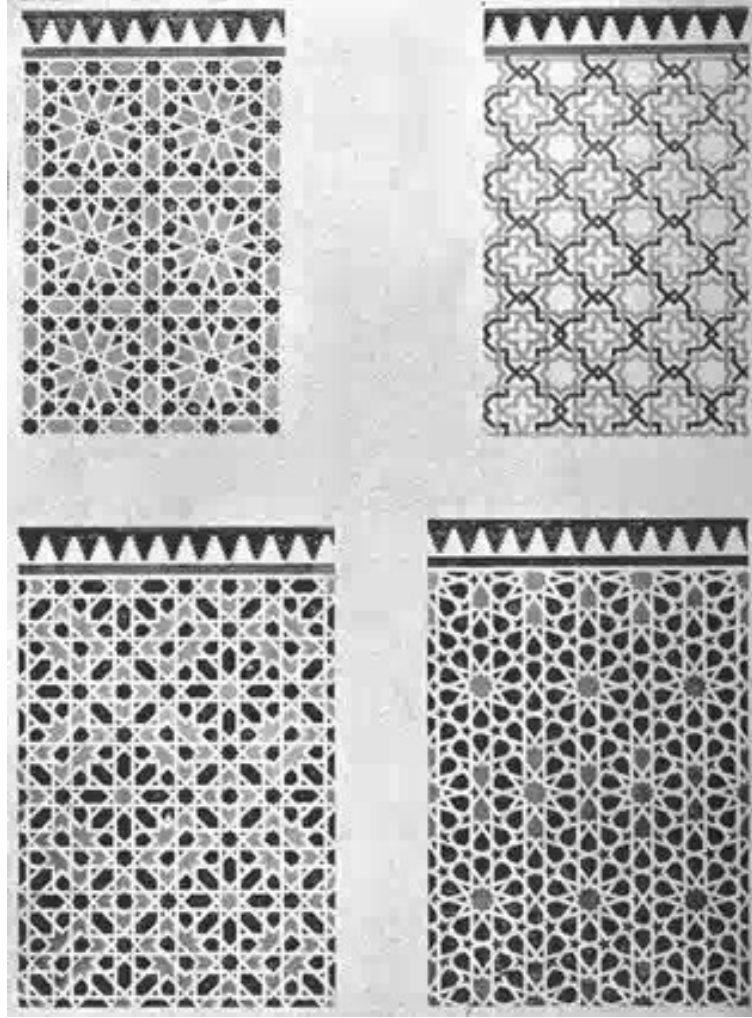
زخارف متنوعة في قصر الحمراء



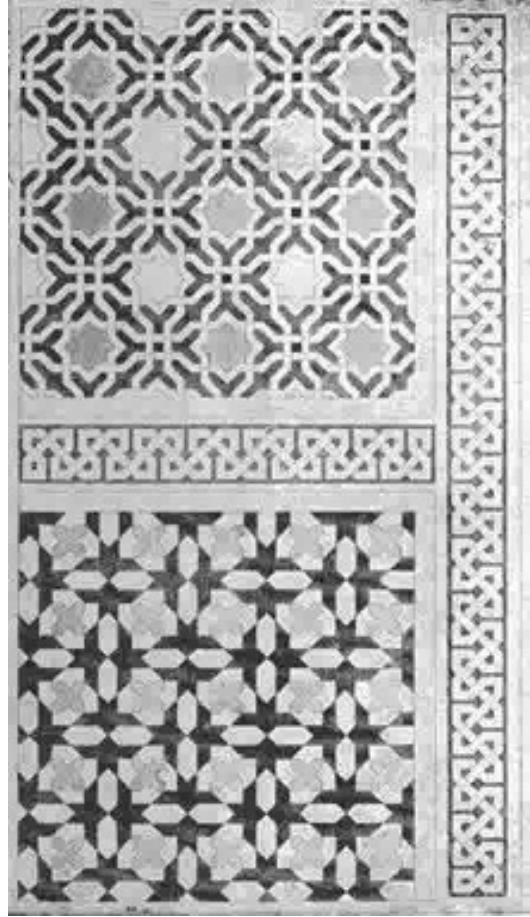
قصة جوبيتر Jupiter وليدا Leda في قصر الحمراء



نقش ضئيل البروز، يوجد حالياً في متحف الحمراء



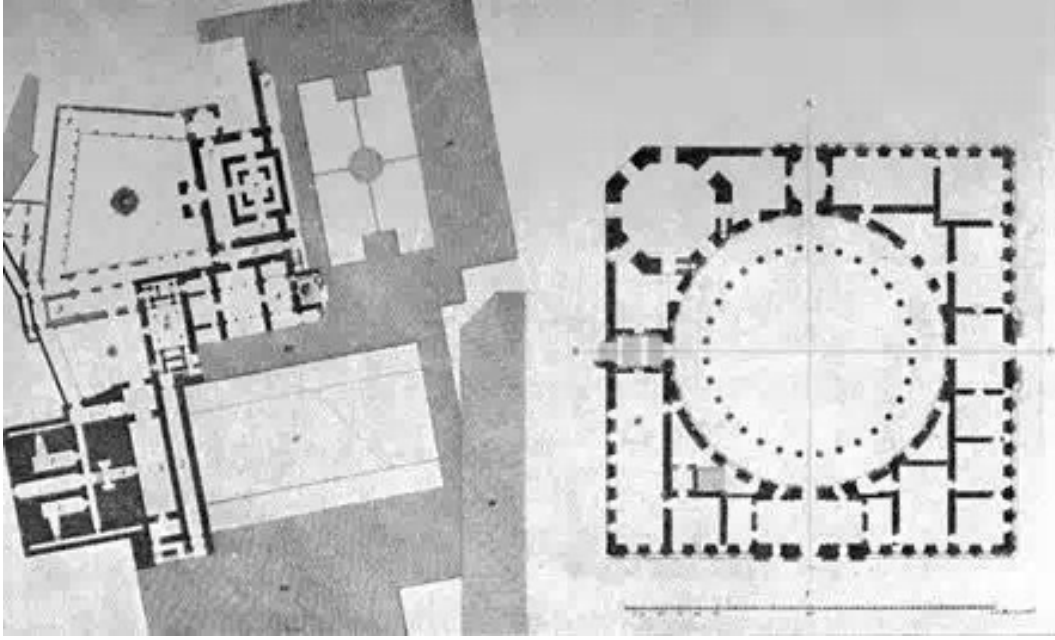
لوحات منقّدة بالرسوم الشّمعية في غرفة سان دومينغو الملكية



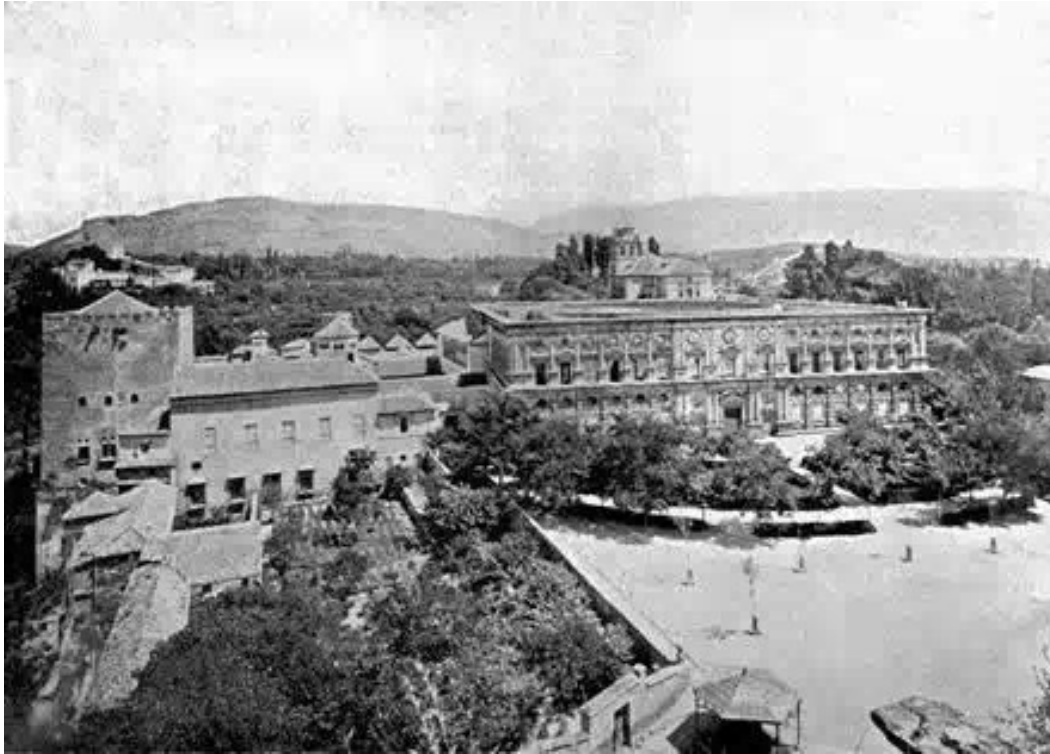
نماذج فسيفساء متنوعة من قصر الحمراء



كتابات في قصر الحمراء



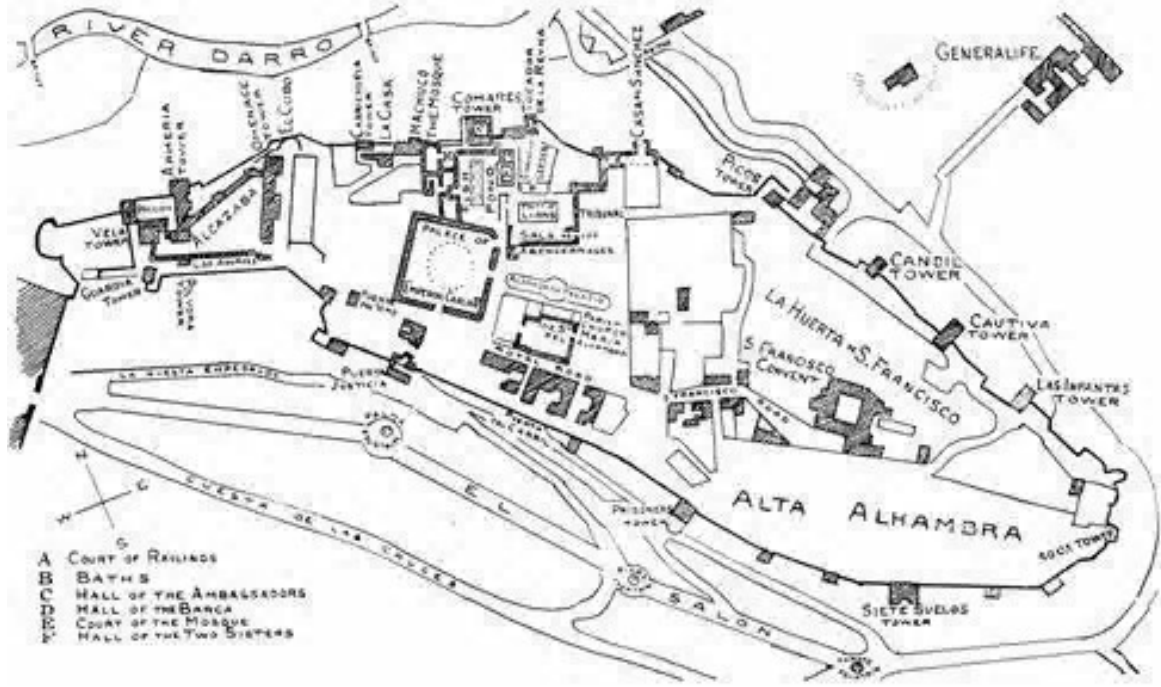
مسقط أفقي لقصر كارلوس الخامس (شارلكان) والعقود تحت الأرضية لقصر الحمراء



منظر عام لقصر الحمراء من برج العرفان (أوميناخه)



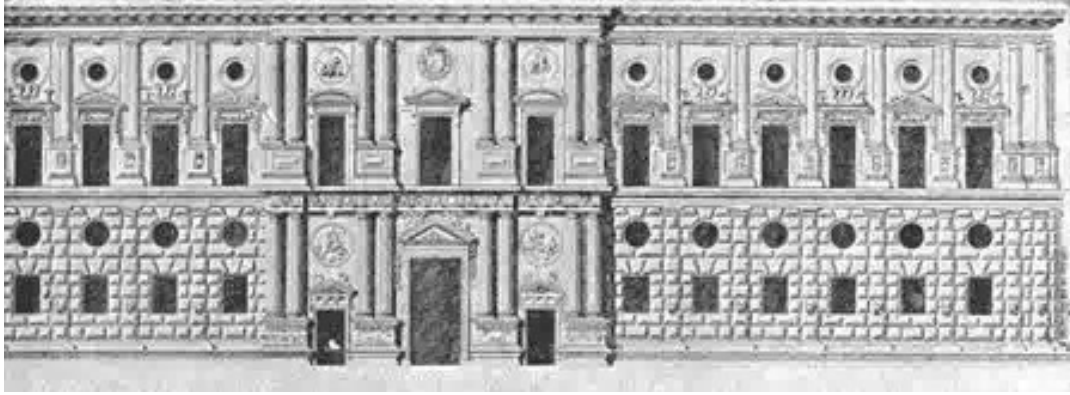
خزان الماء القديم. مطلع القرن الرابع عشر للميلاد



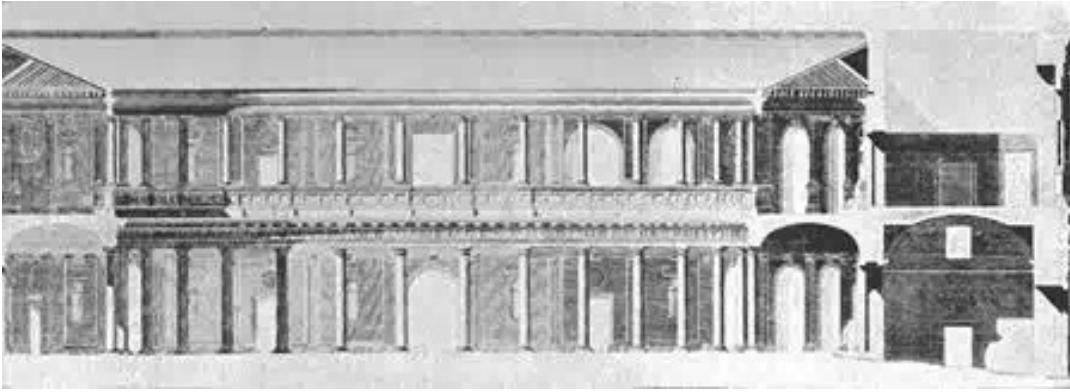
قصر الحمراء (لوحة تم رسمها خصيصاً للسلسلة الإسبانية)



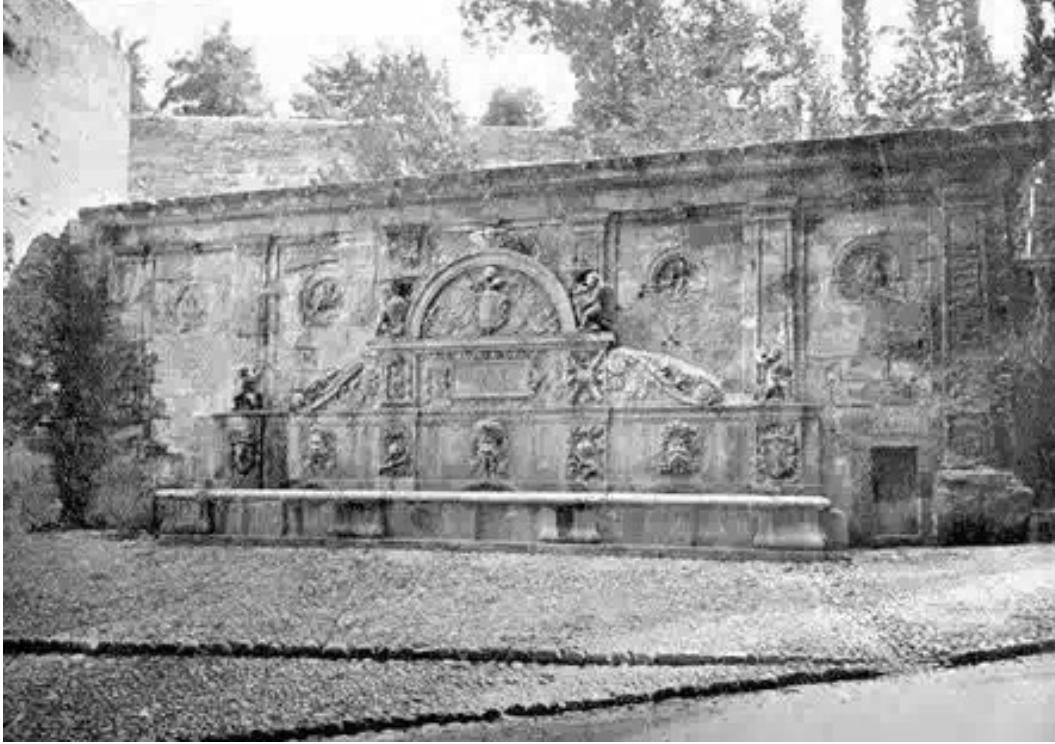
جزء من خارج قصر كارلوس الخامس (شارلكان)



مسقط طولي (ارتفاع) قصر كارلوس الخامس



مقطع لقصر كارلوس الخامس



نافورة الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلمان)



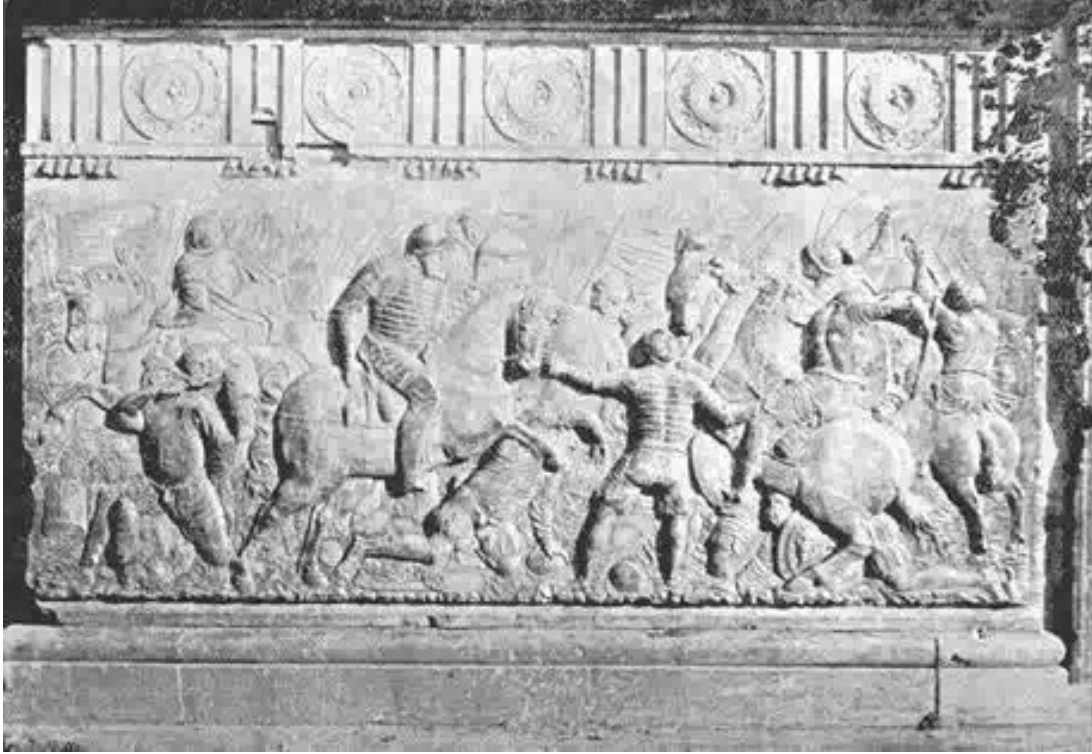
منظر لقصر كارلوس الخامس من برج العرفان (أوميناخيه)



داخل قصر كارلوس الخامس



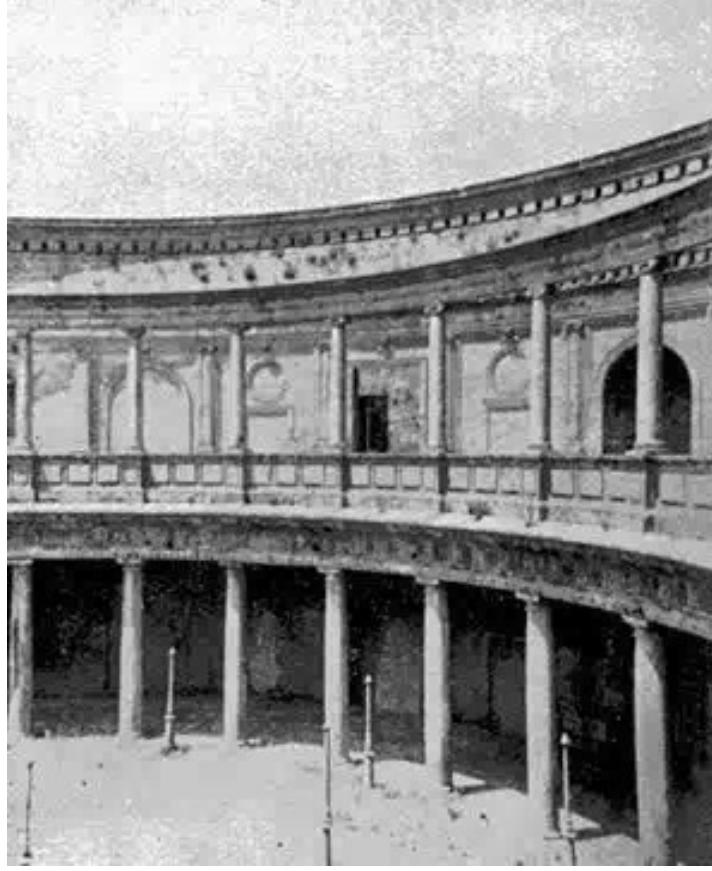
بؤابة قصر كارلوس الخامس



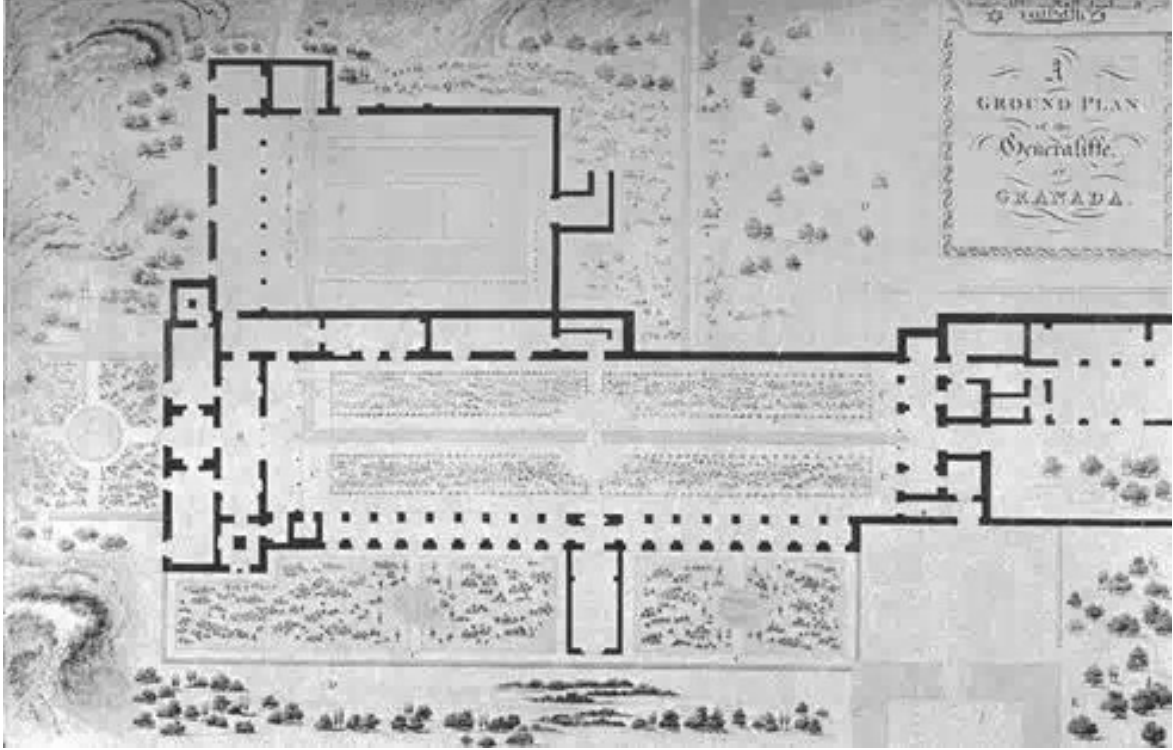
نقش ضئيل البروز في قصر كارلوس الخامس



مدخل مرّوق لقصر كارلوس الخامس يرى من جهة الغرب



الفناء الروماني، قصر كارلوس الخامس



المسقط الأفقي الأرضي لجنة العريف في غرناطة



جنة العريف



الفناء الرئيسي لجنّة العريف



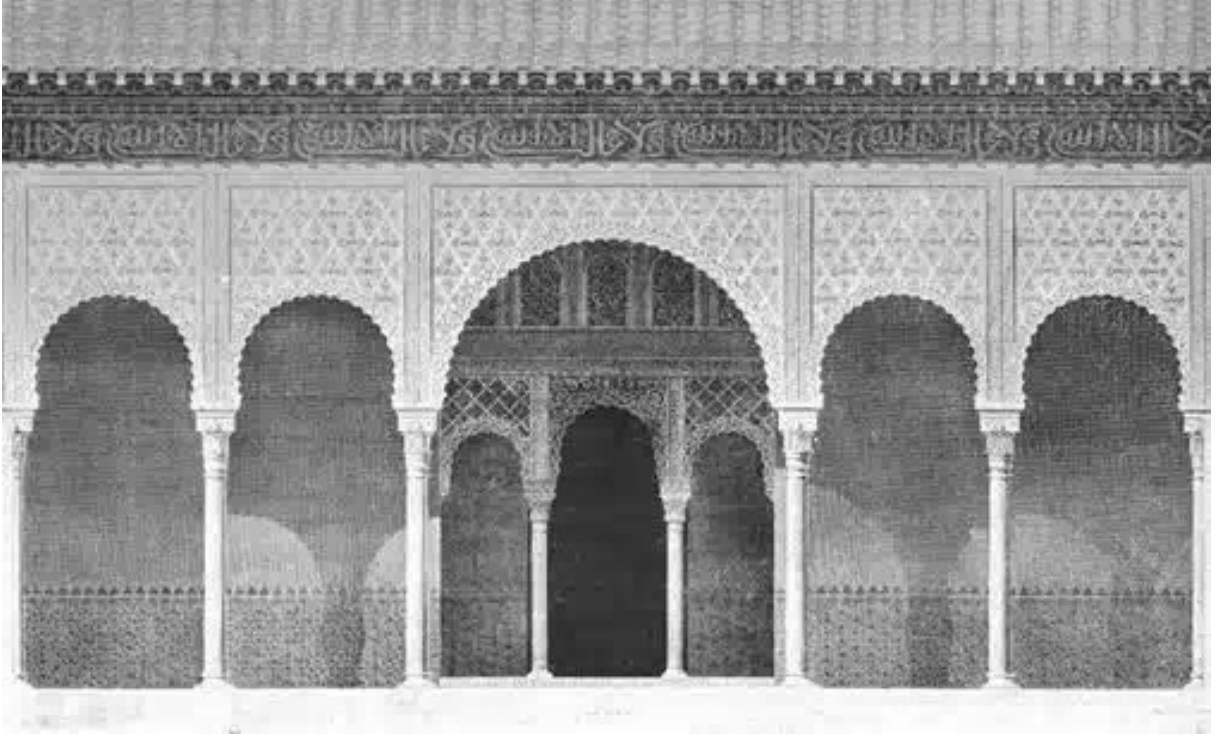
فناء بركة السمك في جنة العريف



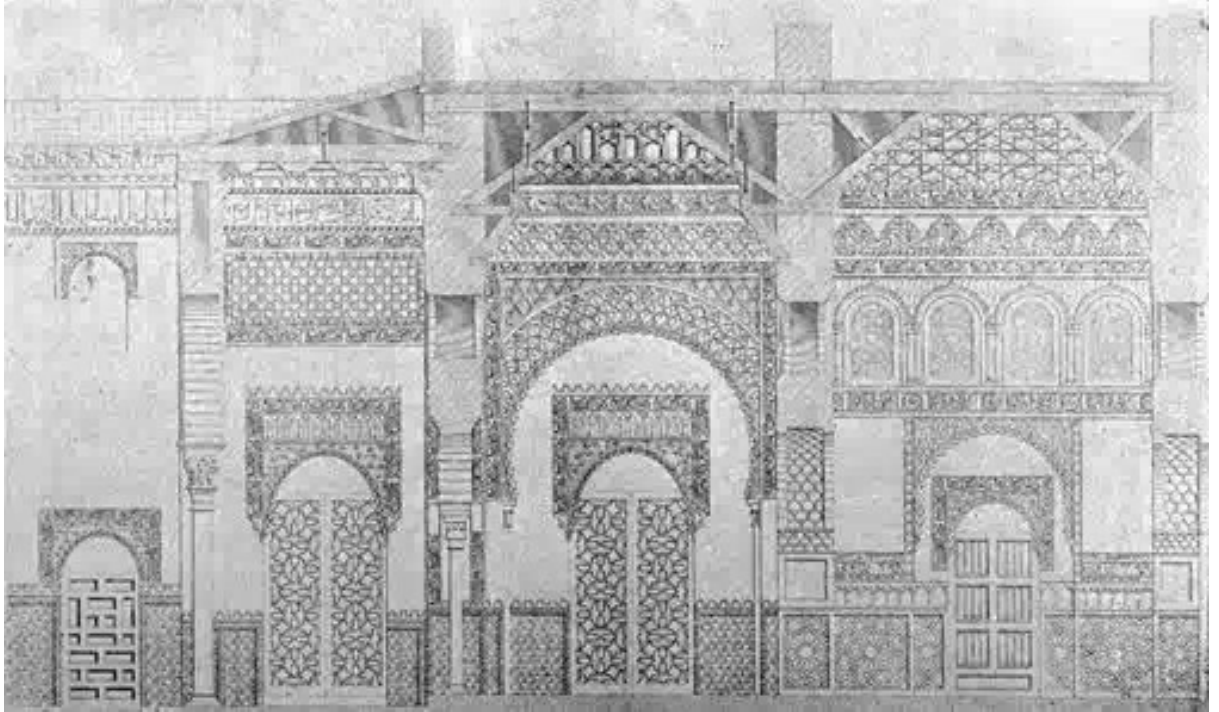
النزهات والحدائق في جنة العريف



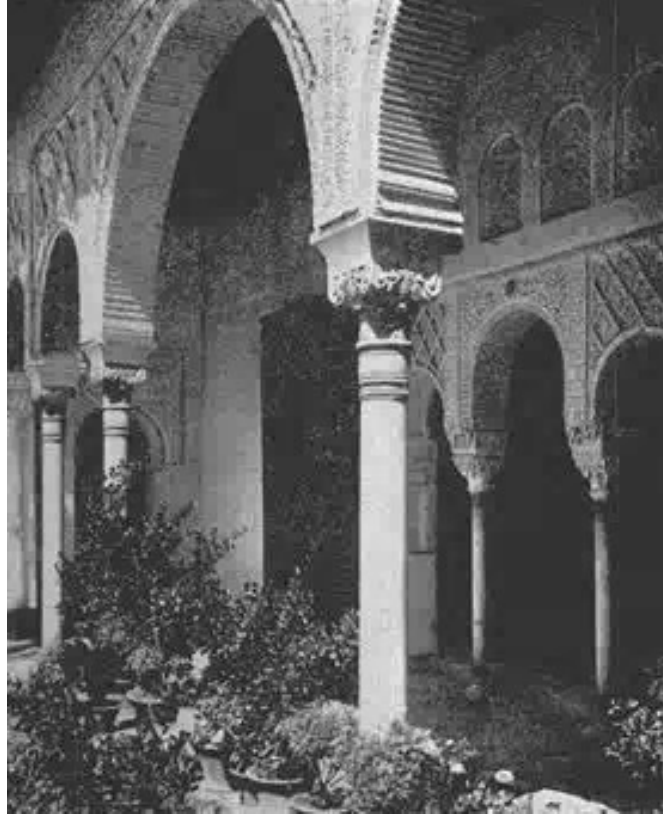
جنة العريف



مشهد أمامي لرواق جنة العريف المعقد



مقطع عرضي للقبلا الملكية في جنة العريف



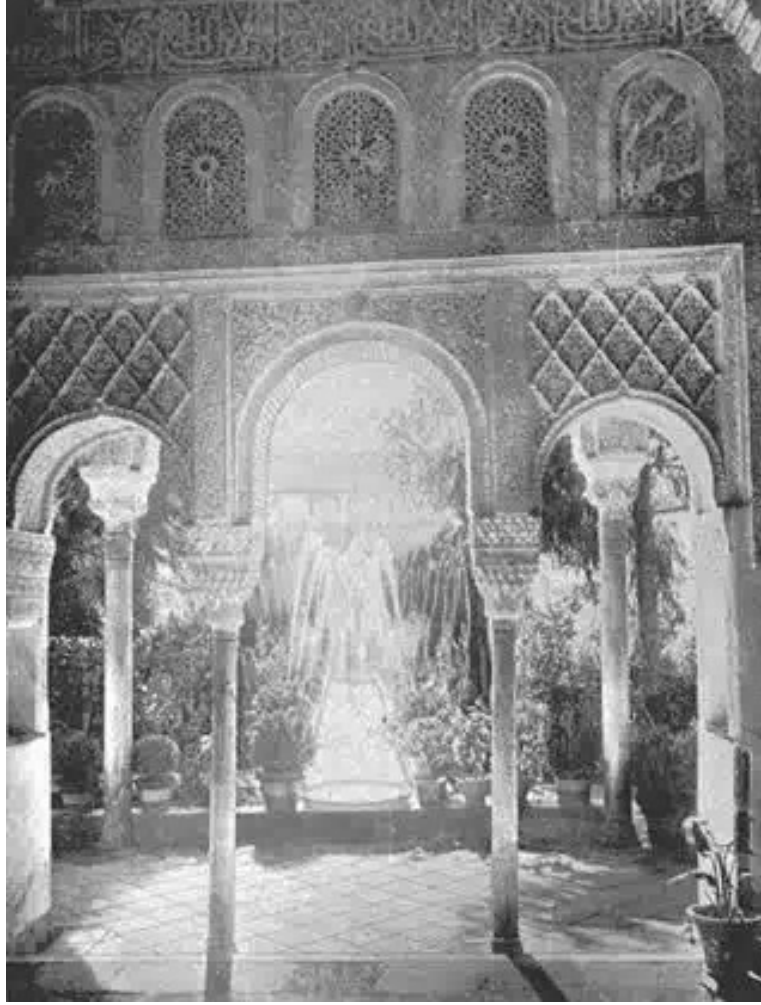
رواق في جنة العريف



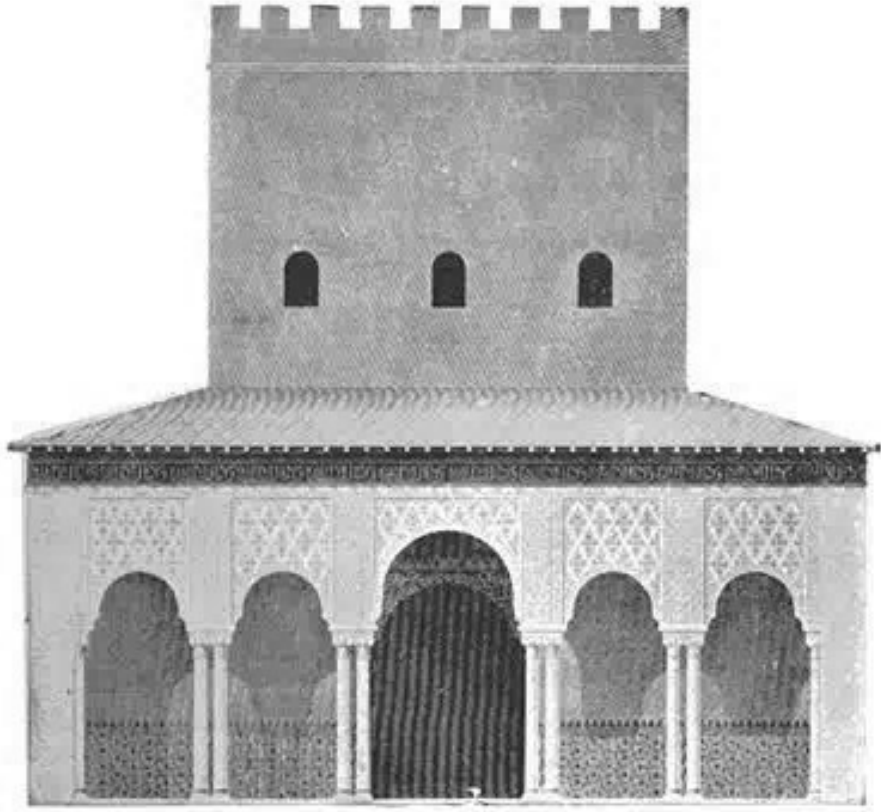
جَنَّة العَرِيف. رواق في فناء السَّقِيَّة



جَنَّة العرِيف. المدخل إلى رواق اللوحة الشخصية



حديقة جنة العريف



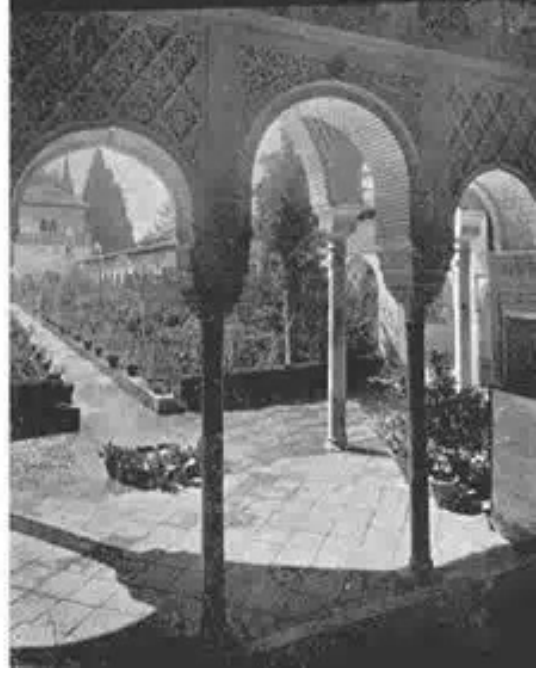
ارتفاع رواق جنة العريف المعقد



فناء السّقيّة في جَنّة العريف



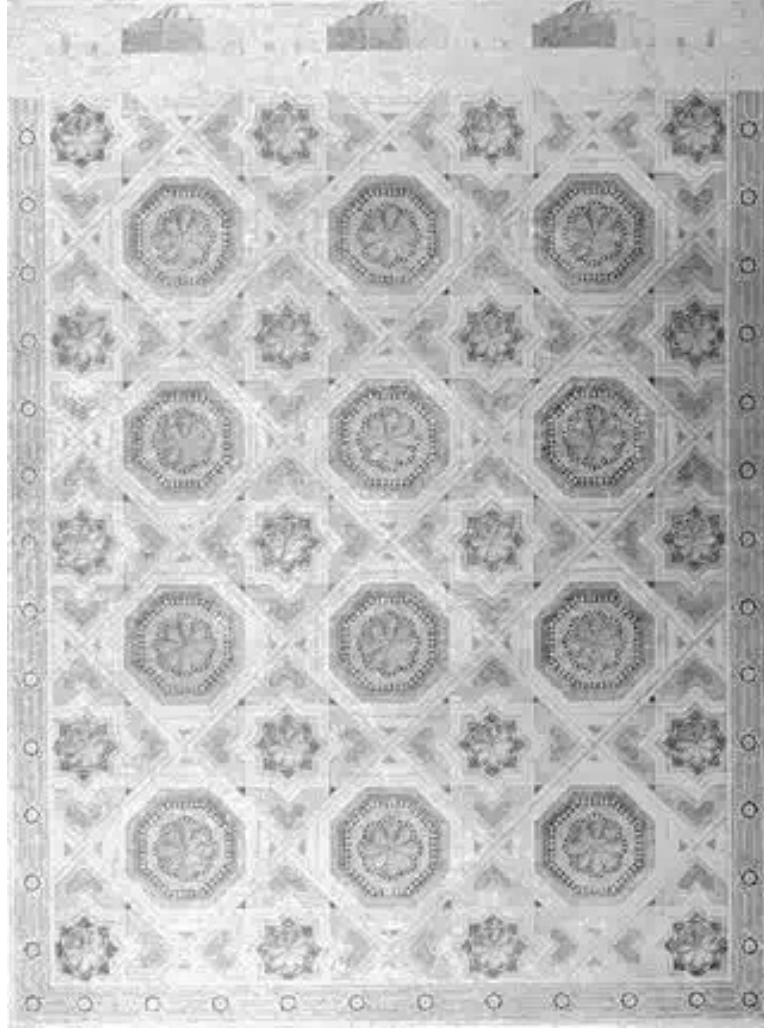
رکن من فناء السَّقِيَّة



فناء السرو. ركن في فناء السقية



سروة السلطانة في جنة العريف



سقف في جنة العريف



جَنَّة العَرِيف. فناء السَّقِيَّة من المدخل الرَّئِيسِي



جَنَّة العريف. فناء السَّقِيَّة من الدَّاخل



منظر خارجي لجنّة العريف



المدخل إلى جنة العريف



جَنَّة العَرِيف. فناء سَرُوة السُّلْطَانة



جَنَّة العريف. فناء السَّقِيَّة من الدَّاخل



الواجهة الغربية لقصر كارلوس الخامس (شارلكان)



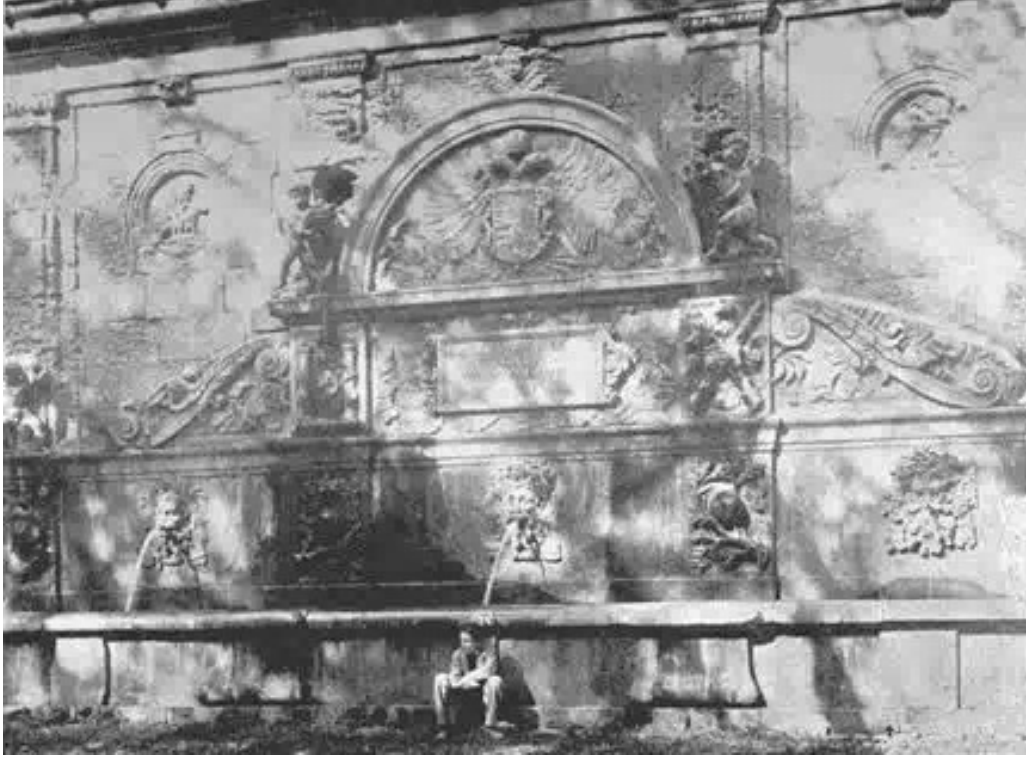
باب الغرناداس



النزهات والفنادق في قصر الحمراء



باب الشريعة ونافورة كارلوس الخامس



جوار قصر الحمراء . نافورة كارلوس الخامس



باب الشريعة. المدخل الرئيسي إلى قصر الحمراء



باب الشريعة



باب النَّبِيِّ. الْوَجْهَةُ الشَّرْقِيَّة



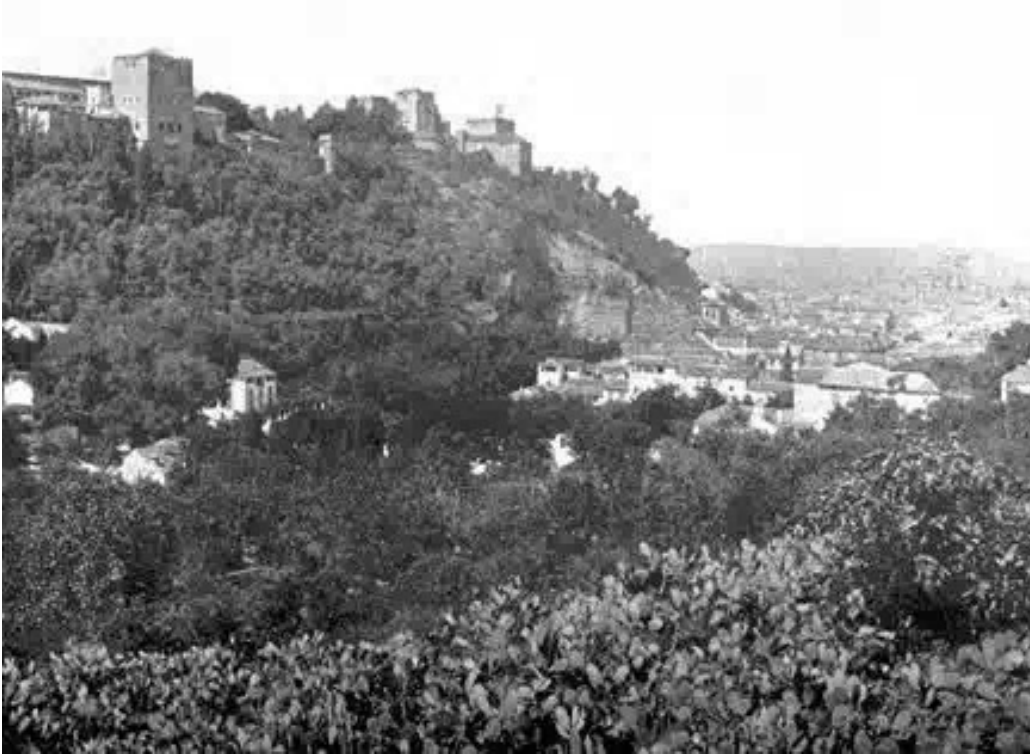
جوار قصر الحمراء . برج الآكام (الذري)



برج الآكام



منظر عام لقصر الحمراء من كرسي المغربي (ستيا دل مورو)



منظر عام لقصر الحمراء من حواري العجر



منظر عام لقصر الحمراء من جنة العريف



منظر لغرناطة وقصر الحمراء من جبل ساكرومونتِه



منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



برج الحراسة، الكاتدرائية، وغرناطة



فیلات علی ضفاف نهر دارو (حدره)



منظر عام لقصر الحمراء



قِيَلَات على ضفاف نهر دأرو (حدره)



برج الحراسة والكاتدرائية



البرج الأحمر



برج العرفان (أوميناخه) وحواري العجر: خارج كهوفهم



مجرى نهر دأرو (حدره)



باب إلبيرة. المدخل القديم للتحصينات الدفاعية



مكان الغسيل في باب الشمس (پويرتا دل سول)



فناء دار عربيّة



بوابة مقوسنة مغربية



داخل دار قديمة في شارع قرن الذهب Calle del Horno de Oro



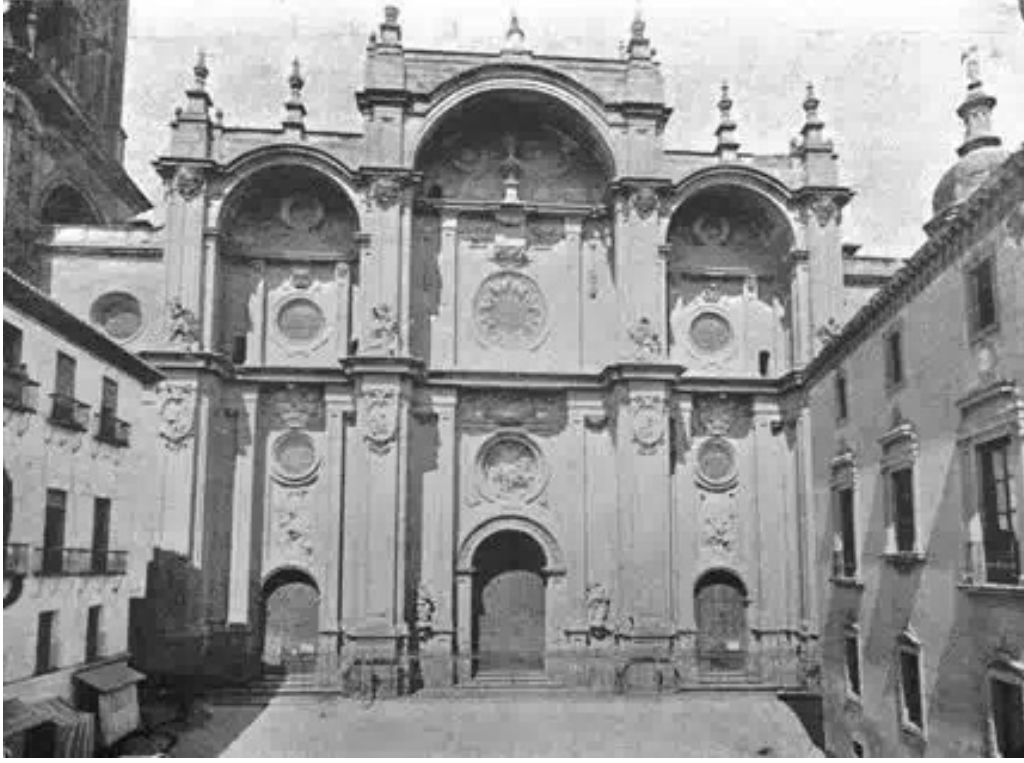
داخل دار قديمة في البيازين



الكاتدرائية ومنظر عام



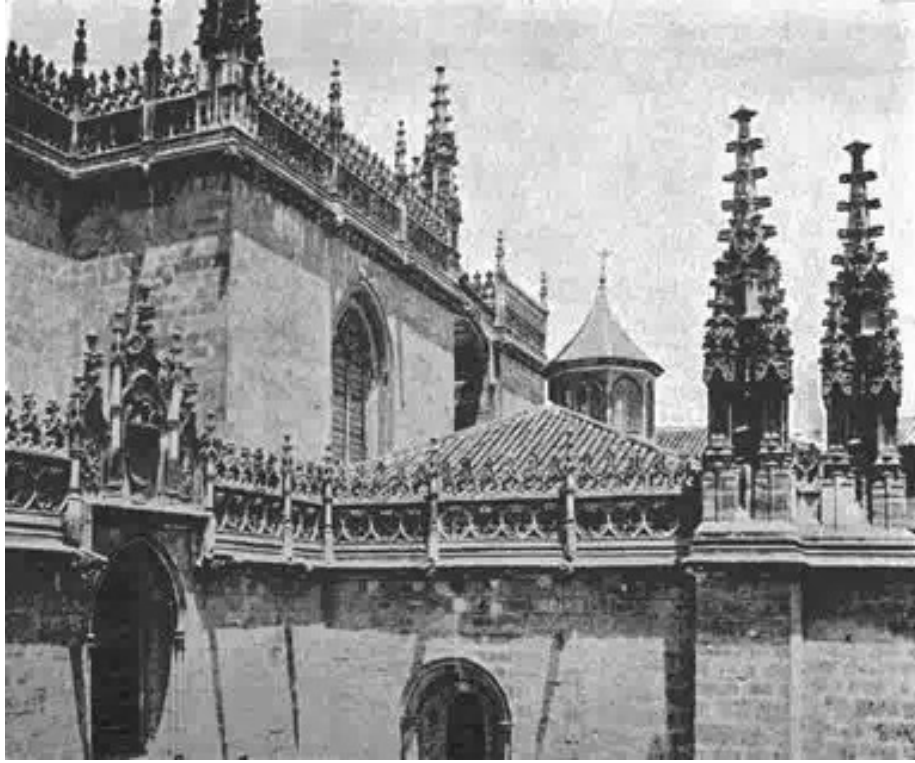
منظر عام للكاتدرائية



منظر عام لخارج الكاتدرائية



مدخل الكنيسة الملاكية



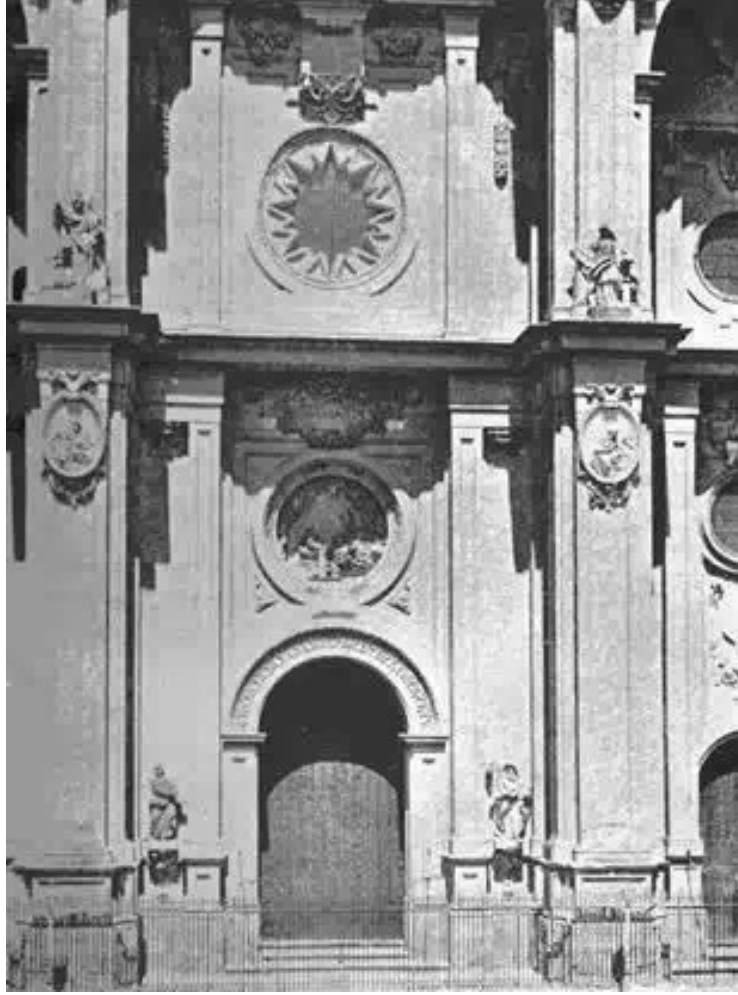
خارج الكنيسة الملكية للملكيين الكاثوليكين



تفصيل بخارج الكنيسة الملكية



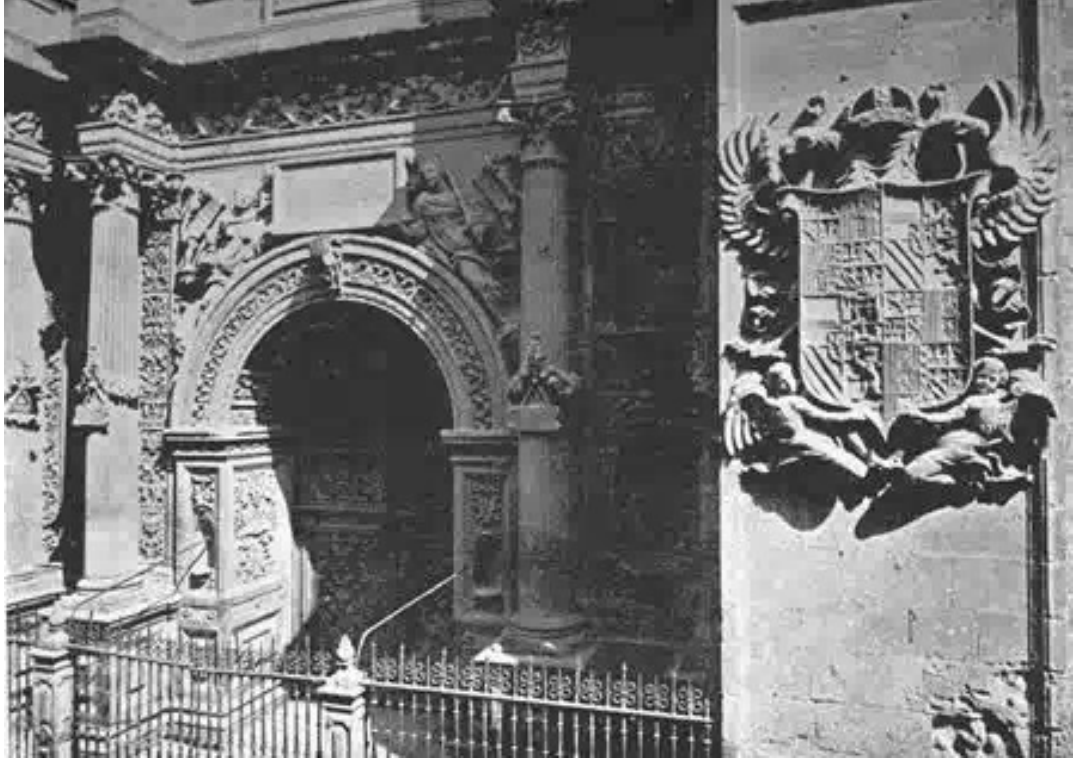
خارج الكنيسة الملكية



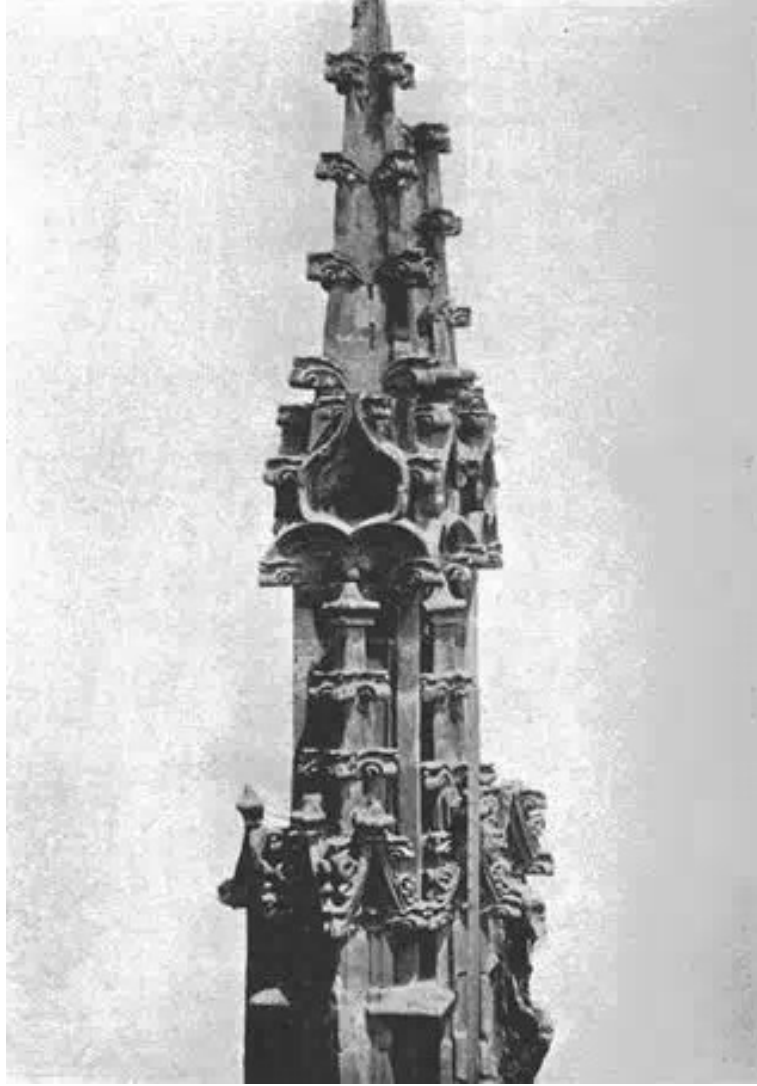
خارج الكاتدرائية



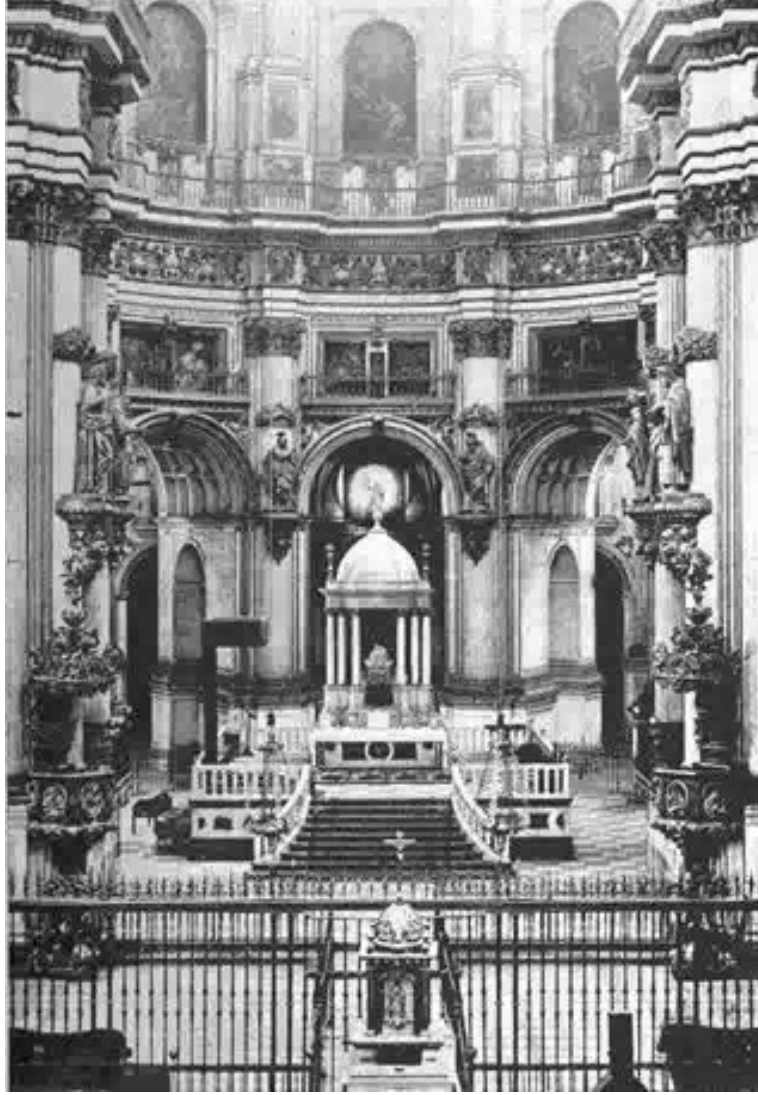
خارج الكنيسة الملكية



خارج الكاتدرائية. باب الغفران



برج مُستدق قوطي على الكنيسة الملكيّة



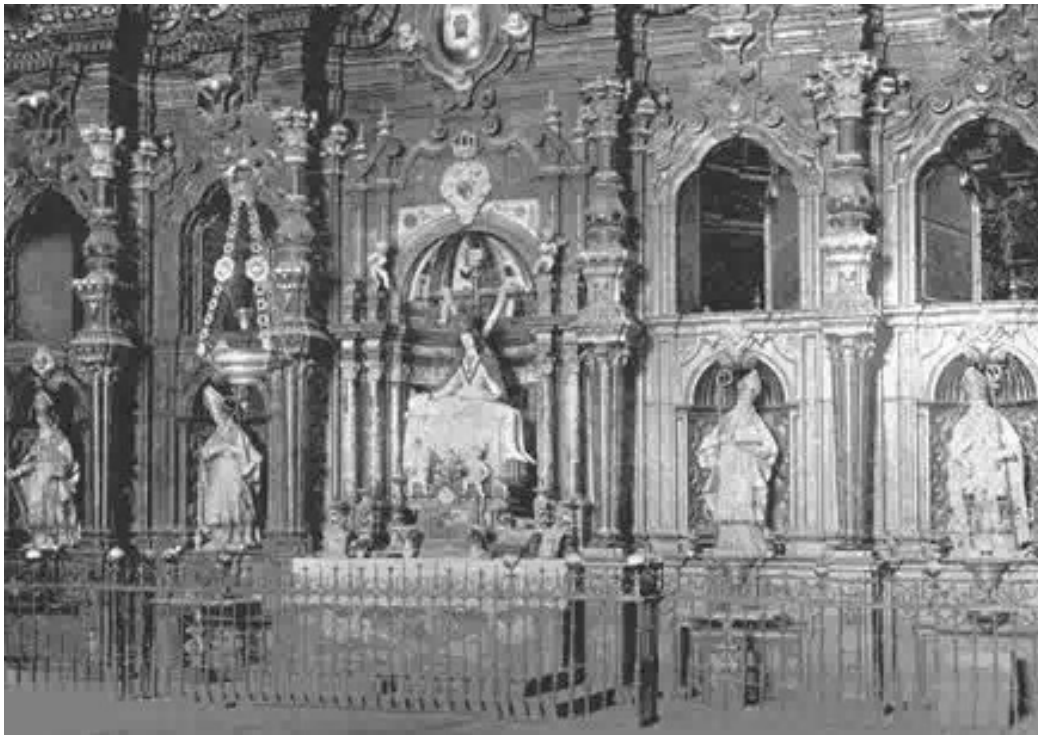
الكاتدرائية. منظر من الكورس



الكاتدرائية. منظر عام لمذبح الهيكل والمذبح العالي



نقش ضئيل البروز في كتلة مذبح الكنيسة الملكية



منظر عام لمذبح الهيكل في الكاتدرائية



الكنيسة الملكيّة. ضريح الملكين الكاثوليكيين



الكنيسة الملكية. تفصيل لضريح الملكين الكاثوليكيين



الكنيسة الملكية. ضريح الملك فرناندو الكاثوليكي



ضريح الملك فرناندو



ضريح إيسابيل الكاثوليكية



مدخل كنيسة القديس يوحنا اللاهوتي San Juan de Dios



ضريح أونسو كانو Alonso Cano في سان خيرونيمو



رأس يوحنا المعمدان



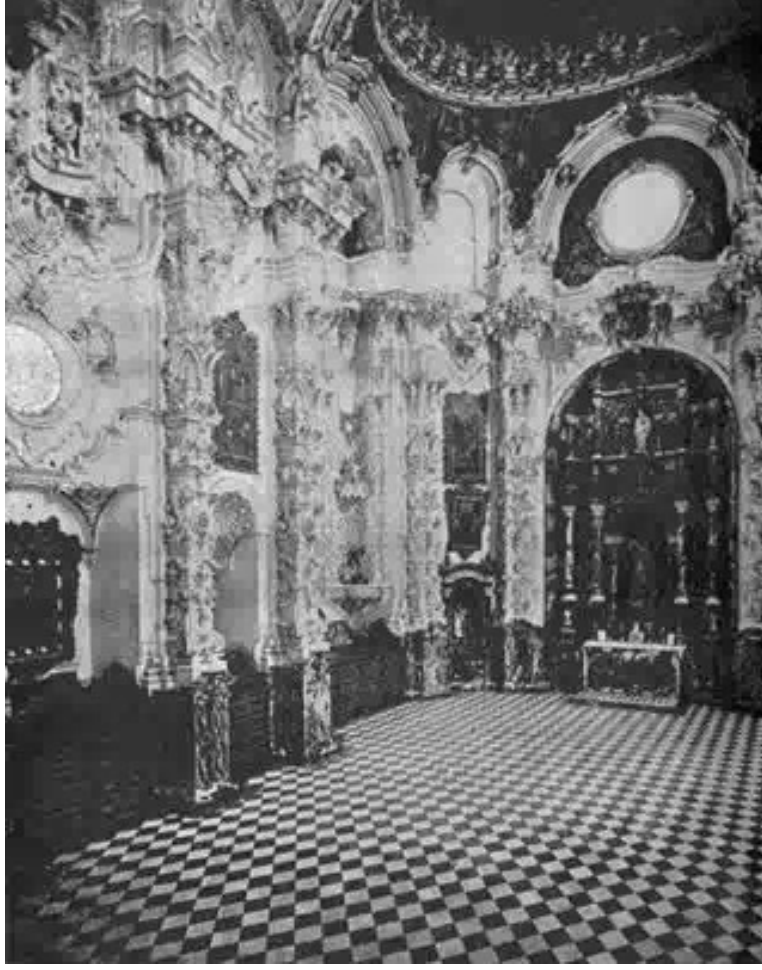
رأس يوحنا المعمدان



رأس يوحنا المعمدان



خارج دیر کارتوخا



الموهف (غرفة المقدسات) في دير كارتوخا، الجهة اليسرى



الموهف (غرفة المقدسات) في دير كارتوخا، الجهة اليمنى



دير كارتوخا، قُدس الأقداس



دير كارتوخا، تفاصيل الخزائن في الموهف (غرفة المقدسات)



مذابح في دير كارتوخا. لوحات من عمل سانتشيث إي كوتان، أحد رهبان سلك الدير



دير كارتوخا، الحبل بلا دنس، عمل مورتيو



دير كارتوخا، عذراء الشبحة، عمل مورنيو



دير كارتوخا، القديس يوسف والطفل. منحوتة لألونسو كانو



دير كارتوخا، القديسة مريم المجدلانية. منحوتة لألونسو كانو



دیر کارتوخوا، خیالۂ پشنقون شہداء . عمل سانتشیث کوتان



دير كارتوفا، تعميد المسيح. عمل سانتشيث كوتان



دير كارتوخا، العائلة المقدسة. عمل سانتشيث كوتان



صلب المسيح. عمل مورائيس



حَبِل السَّيِّدَة العُذْرَاء . عمل موراليس



حواري الفجر. خارج الكهوف



حواري الفجر



عجس ير قصون في حوارهم



أنواع من العجر عند مداخل كهوفهم

-474-

عجر يرقصون في حوارهم



أنواع من العجر عند مداخل كهوفهم

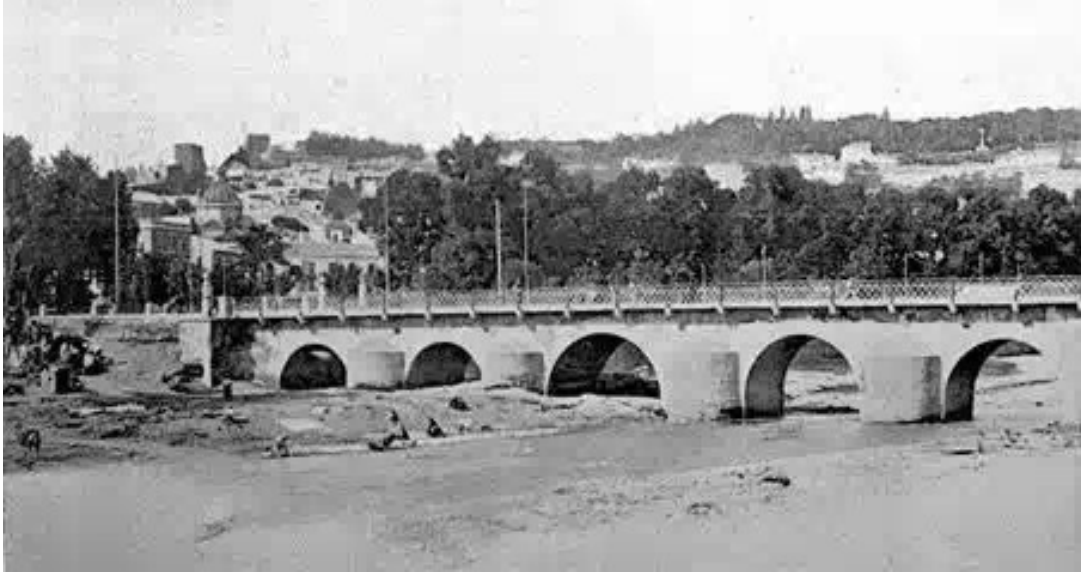


عجر يرقصون في حواريهم



راقصات غجر وقائدهن خ. أمايا

J. Amaya



جسر نهر شنيل Genil



منظر عام



منظر عام لمحلة البيازين القديمة



منظر عام من برج الحراسة



قصر عربي قديم، هو الآن في ملك نبيل إسباني



دار البلدية القديمة



الباب الملكي وشارع الملوك الكاثوليكيين



نُصب كولومبوس في الباسيو دل سالون Paseo del Salón



سوق الحرير الخام



سوق الحرير الخام. سوق الحرير العربي القديم



خارج دار قديمة، كويستا ديل پيسكادو (طلعة السمك)



محكمة العدل



مجري نهر دازو (خدره)



سوق ومعرض للغجر في التريونفو Triunfo



شارع سان أنطون (كاتبه سان أنتون)



حتى أنتيكيرويل، والسبييرا نيقادا، و«زفرة المغربي الأخيرة»



مجرى نهر دارو (حدره) ومنظر السبييرا نيقادا



ساحة ماريانا بينيدا، ودار عربيّة، ومنظر السّييرا نيقادا



منظر عام لقصر الحمراء والسييرا نيفادا من سان ميغيل



طريق أويتور Huétor ومنظر السييرا نيفادا



قبيلات علی ضفاف نهر دازو (خدره)



مجرى نهر دارو (حدره)



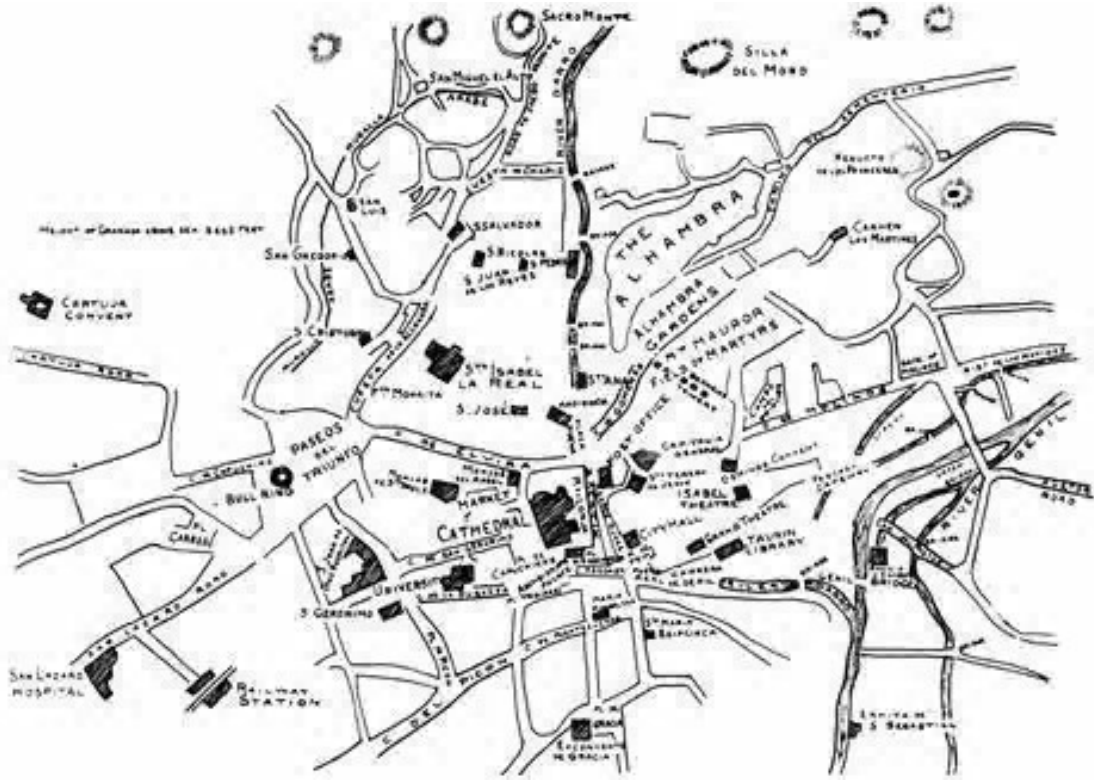
الجسر الأخضر ومنظر السّييرا نيقادا



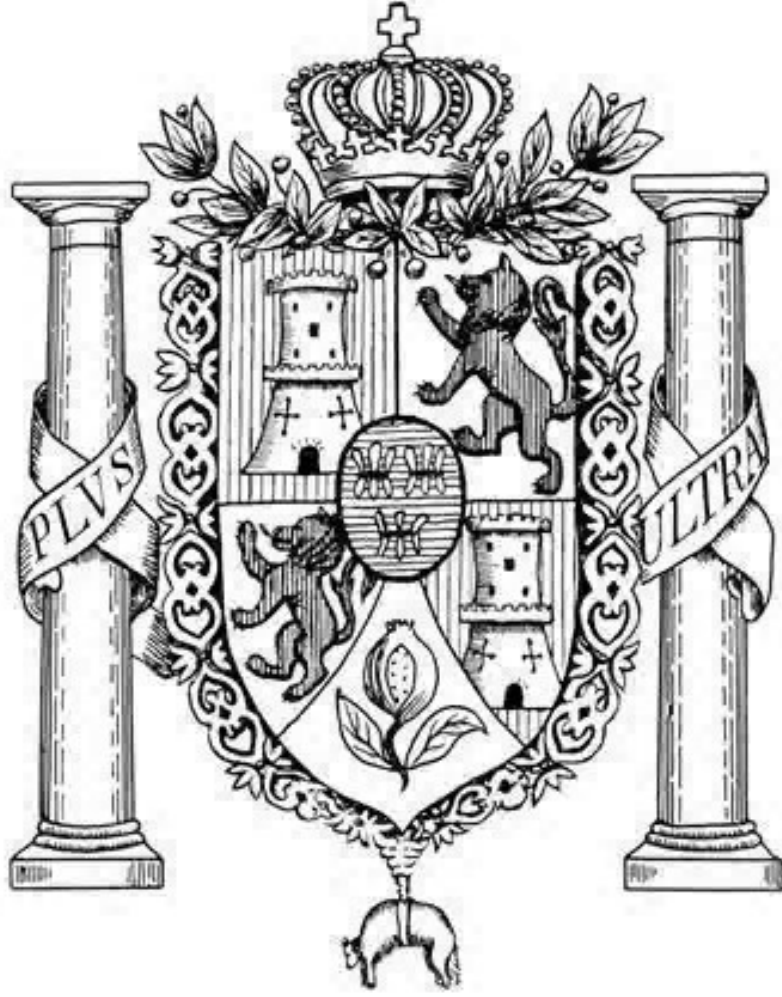
منظر السّييرا نيقادا



منظر عام للسّييرا نيقادا ونهر شنيل Genil



غرناطة (رسمت خصيماً للسلسلة الإسبانية)



شعار مدينة غرناطة